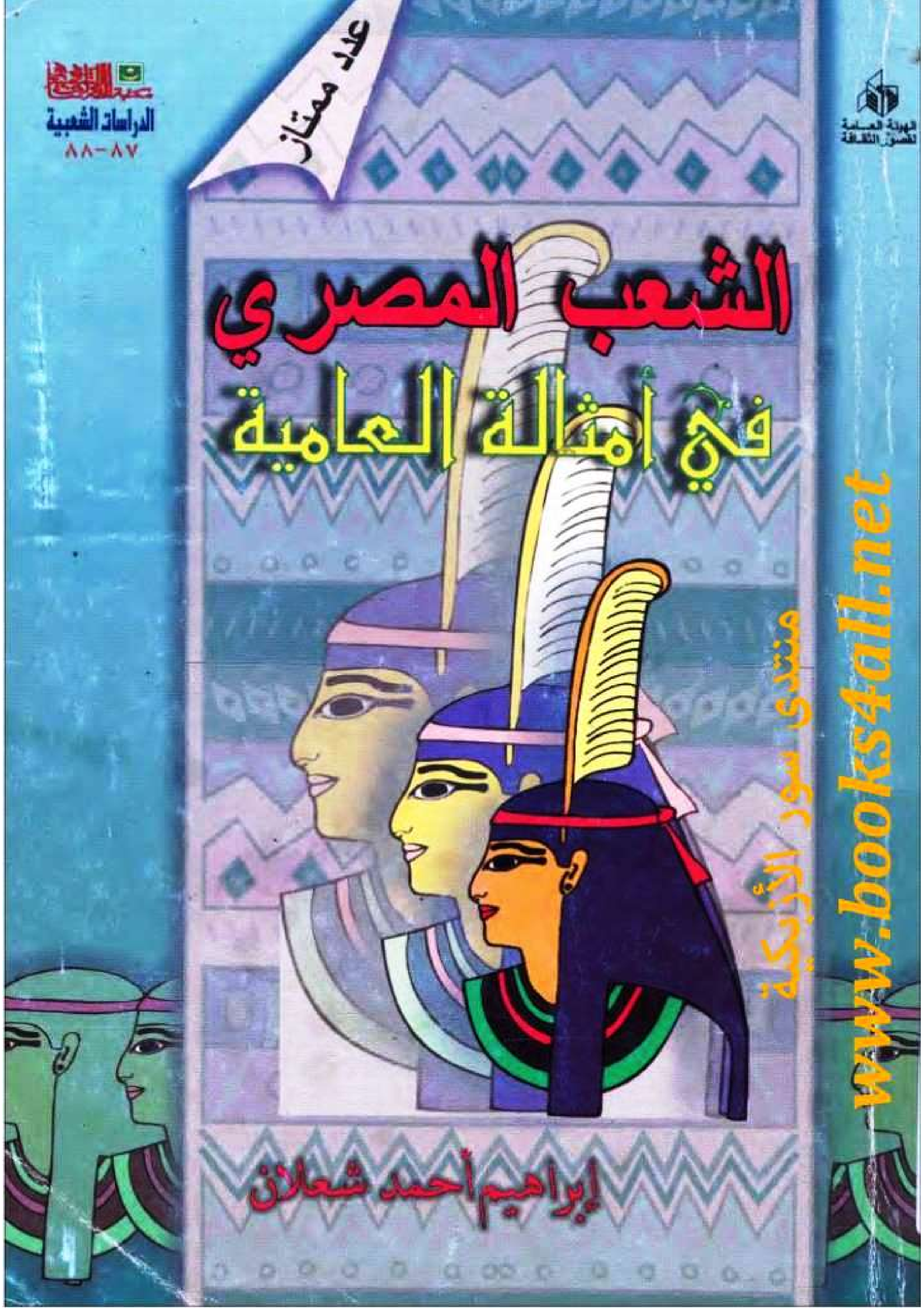

عدد ممتاز
عيد الأضحى المبارك
الدراسات الشعبية
٨٧-٨٨
الهيئة العامة لقصور الثقافة
الشعب المصري
في أمثالة العامية
إبراهيم أحمد شعلان
www.books4all.net
منتدى سور الأزبكية





الهيئة العامة
لقصور الثقافة

الشعب المصرى

فى أمثاله العامية

تأليف

إبراهيم أحمد شعلان



سلسلة شهرية تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة

تعنى بنشر الدراسات المتعلقة بالفولكلور
ونصوص وصور وحكايات وملامح الأدب الشعبي



٨٨،٨٧

القاهرة - فبراير/مارس ٢٠٠٤ م

الشعب المصرى فى أمثاله العامية

تأليف : إبراهيم أحمد شعلان

• تصميم الغلاف : عبد الرحمن نور الدين

• تنفيذ الغلاف : غريب نـــدا

• كلمة الغلاف : من تقديم الأديب خيرى شلبى

• مراجعة لغوية : أشرف السعدى

• رقم الإيداع : ٢٠٠٤ / ٧٤٣٠

الترقيم الدولى :

I.S.B.N. 977 - 305 - 714 - 3

• طبع من هذا الكتاب ثلاثة آلاف نسخة

• المراسلات : باسم / مدير التحرير

على العنوان التالى : ١٦ أ شارع أمين سامى

القصر العينى - القاهرة

- رقم بريدى ١١٥٦١

ت : ٧٩٤٧٨٩١ (داخلى : ١٨٠)

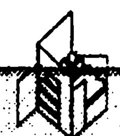
• الطباعة والتنفيذ :

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩

شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

ت : ٨٣٣٨٢٤٠



الدليل إلى متحف الأمثال

بقلم : خيرى شلبى

الأمثال العامية هى ديوان الحياة عند الشعب المصرى ربما دون شعوب العالم كله ، فعلى حد علمى ليس هناك أمة من الأمم الكثيرة تتخاطب فى حياتها اليومية بالأمثال سوى هذه الأمة الأدبية بالسليقة : إن المثل يعنى القدوة ، ومعناه حرفيًا أن القريحة التى صاغت المثل قد نحتت بالمفردات تمثالاً باقيًا لمعنى أصيل ملىء بعصير التجربة الحياتية ، محكم إلى حد الإيجاز المعجز ، مبنى كنظرية علمية لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها ، مفهم ، قاطع باتر لا يقبل اللجاجة ولا المراجعة . المثل قيمة معنوية تولدت من المكابدات واحتكاك المشاعر بالمواقف واصطدام المواقف بالموروث العقائدى . ولهذا اكتسبت الأمثال قوة القانون ، وشرعية الشريعة ، وتحولت إلى

عملة متداولة تكون فى كثير من الأحيان أقوى من العملة النقدية ، ولربَ كلمة من مفردتين أو ثلاثة فى صيغة مثل عامى تحل محل العقود والإيصالات والكمبيالات ، أو تنهى خلافًا طال صخبه ، وتوقف معركة ارتفع احتدامها . والكثيرون منا يعرفون سيدات عجائز لا يستعملن فى حواراتهن اليومية سوى الأمثال ، ولديهن منها حصيلة يصعب حصرها ، مما يؤكد أن المثل الشعبى سليقة إنسانية خاصة بالمصريين على وجه التحديد ؛ لأننا شعب رائد فى تقديس الكلمة باعتبارها أعظم أداة للتفكير ، للشعور ، للصلاة ، لاكتشاف النَفَس الإلهى فى تفاصيل الكون . إن معجزة الكلمة خرجت من عندنا فى الزمن القديم منذ أن ناجى بها إخناتون رب الوجود وخالق الأكوان المتمثل فى الشمس ؛ كانت الكلمة فى اللغة المصرية القديمة شكلاً وصوتًا معًا ، التشكيل والتصويت جعلا من المفردة المصرية القديمة وعاءً يتسع لصفحات من المعانى والدلالات ، مما أورث المصريين غريزة الإيجاز والجزالة . وإذا كانت العلوم الحديثة قد أوقفتنا على أبجدية اللغة المصرية القديمة وكيفية تكوين المفردات ومعرفة معانيها إلا أننا نعجز عن التحدث بها لأننا نفتقد صوتها ولا نعرف كيف كانت الإيقاعات الصوتية للحروف ؛ فإن الأهم من نطقها ما ظهر من معانيها ، وأعظم

إنجاز لفك الأبجدية المصرية القديمة هو ترجمة كتاب الموتى المصرى ، عمدة الكتب فى الدنيا كلها ، وقاموس التجربة المصرية فى الحياة والموت .

يشهد كتاب الموتى أن المثل الشعبى - عاميًا كان أو فصيحًا - سليقة مصرية أصيلة . إن هذا الكم الهائل من الحكمة والعلم والتجربة والنفاذ إلى ما وراء الطبيعة ، الذى يحتويه كتاب الموتى ، إذا ما وُجد فى تراث شعب من الشعوب أصبح هذا الشعب بالضرورة - وبالميراث الوجدانى - حكيمًا نابهًا يعرف شمولية الحقيقة ويشعر بقيمة الكلمة وينتج الأمثال المتجددة . وهذا ما قد حدث للشعب المصرى ، فمضمون كتاب الموتى مبذور فى وجدانه ، وملكة التعبير فى دماغه ناشطة . وولع المصريين بالأمثال هو الظاهرة الفولكلورية الوحيدة التى لم تتعرض للانقراض بسبب انتشار الميديا الإعلامية التى أصبحت تقدم للناس زادًا فنيًا جاهزًا مطبوخًا ومعلبًا ؛ انقرضت الأغنيات والألعاب والحواديت وفنون الوشم ، أقصد لم يعد لها أى امتداد معاصر ، لم يبق منها إلا ما بقى فى ذاكرة البعض ؛ فى حين لا يزال المثل الشعبى وسيظل يجرى على الألسنة إلى ما لا نهاية ؛ لأن المثل سليقة مصرية ، وعملة ذات رصيد .

إلا أن عُملة الأمثال شأنها شأن العملة النقدية يمكن أن يبرع

البعض فى تزييفها . وينطبق عليها هى الأخرى مقولة إن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من الأسواق . . وهكذا تشيع فى حياتنا أمثال عامية شديدة الإتقان ذات صياغة خلابة ولكنها تحتوى على سموم ضارة . إن التراكم الحضارى لأمة من الأمم حينما يضمر فيها الفكر النقدى والحاسة الذوقية تطمس فيها العناصر الأصيلة وتسود العناصر الزائفة . لقد كان هناك دائمًا أبدًا ذائقة نقدية تفحص المثل قبل تداوله ، كأن يسمع الإنسان مثلاً خلابًا فيفكر فيه جيدًا قبل أن يوافق على قبول معناه ؛ لأن موافقته الشخصية التى ستتم بينه وبين نفسه قد يترتب عليها تعديل فى سلوكه أو فى قناعاته . إنه إذا فكر جيدًا سيعرف - مثلاً - أن هذا المثل الذى سمعه خاص بفئة من الفئات ولهذا لا يصلح للتعميم ، أو أن هذا المثل دسيسة لا تتسق مع طبيعة الشعب المصرى ، وهذا المثل مقصود به السخرية لا أكثر ولا أقل . . إلخ إلخ .

وحينما قرأت كتاب الأمثال الذى جمعه العلامة أحمد تيمور باشا حمدت له ذلك الجهد العظيم فى تجميع ديوان الحياة ، لكننى سخطت على نقصه ، وانتظرت أن يجىء باحث عالم يضع هذه الأمثال تحت مجهر الفحص ليرينا من خلالها المكونات الجوهرية للشخصية المصرية على امتداد التاريخ حتى

نفهم خفاياها وأسرارها الكثيرة ، ويرينا ما فى بعض الأمثال من زيف ، ومدخولات للتضليل والخداع . . إلخ . وكنت أتمنى أن أقوم بمثل هذا الدور لولا أننى أشفقت على نفسى من حمله العلمى الثقيل . وإذا بى أفاجأ بأن مكتبتى الخاصة التى تراكمت فوق بعضها تلالاً فوق تلال حتى أعجزتنى عن التعامل معها ، قد أبرزت لى بالمصادفة كتابًا لم أكن قد انتبهت إليه فى الزحام صدر فى العام الثانى والسبعين من القرن الماضى بعنوان [الشعب المصرى فى أمثاله العامية] لمؤلفه الأستاذ إبراهيم أحمد شعلان ، فى طبعة وحيدة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب . سحبته بشغف ، قلبت فيه فإذا هو الكتاب الذى كنت أحلم بتأليفه ، قرأته فإذا هو أقوى وأشمل وأعلم مما كنت سأكتبه . ففرحت به غاية الفرح ، وتعلمت منه الكثير رغم ما أزعمه بأننى عليم بأسرار المثل الشعبى ، ولكنها سنة الحياة : ففوق كل ذى علم عليم إلى ما لا نهاية .

إن خير ما نقدمه للاحتفاء بهذا الكتاب العظيم هو أن نعيد إصداره فى طبعة شعبية فى هذه السلسلة . وإننا لواثقون بأنكم ستفرحون مثلنا بهذا الكتاب . شكرًا لكم ، وسلام عليكم ،

خيرى شلبى

يقول تورريانو Torriano ١٦٦٦م إننا نستطيع أن نكتشف بسهولة طبيعة الشعب وذكاءه عن طريق الأمثال فهذه الأمثال تمثل فلسفة الجماهير[1] . إن هذا المفهوم يستطيع أن يفسر أهمية الاتجاه نحو دراسة الأمثال التى تعد دراسة للقطاعات الشعبية صاحبة الجهد الحقيقى فى بناء الدول . والواقع أن دراسة القطاعات الشعبية من خلال إنتاجها الفكرى تعد خطوة جديدة فى مجال الدراسات الإنسانية تفرضها ضرورات إنسانية واجتماعية وعلمية . .

لقد آن الأوان لكى يلتفت العلماء والباحثون إلى الطبقات الشعبية باعتبارها العامل الحقيقى فى توجيه دفة التاريخ ، حقًا لقد انحبس التاريخ منذ بداية الحضارة على سير الحكام والطبقات العليا من الكيان الاجتماعى ، ولم يكن هناك بصيص من المعرفة بتاريخ الشعوب .

---

(١) The Oxford Dictionary of English Proverbs

فلقد تحدث التاريخ وأفاض فى الحديث عن عناصر ضئيلة الحجم والكثافة قد تحدث بحكم مواقعها بعض التحولات فى تاريخ الحركة البشرية ولكن جهاز الإنتاج الحضارى من البشر وعامة الجماهير على اختلاف مواقعها لم يلتفت إليه العلماء والمفكرون إلا أخيرًا وبعد أن تبينوا أثره فى عملية الإنتاج الحضارى ودوره فى أحداث التراكمات الحضارية على اختلاف فروعها على مدى التاريخ .

ومن ناحية أخرى فلم تكن هناك دراسات متكاملة تدور حول الإنتاج الشعبى فى مصر سواء من ناحية الجمع أم التصنيف أم الدراسة . إن ما قدم من دراسات حتى الآن يمكن أن نطلق عليها اسم خطوات على الطريق ، أكثر ما يميزها أنها خطوات فردية تعتمد على الاجتهاد ، والواقع أن هذه الدراسات تحتاج إلى جهود جماعية واعتمادات كبيرة حتى يمكن تغطية مناطق البلاد كافة ابتداء من الإسكندرية شمالا حتى النوبة جنوبًا ، ومن البحر شرقًا حتى الصحراء الغربية . . .

إن هذا الاتجاه يمكن الباحثين من الوقوف بدقة على عناصر المادة الشعبية أو المثلية الخاصة بموضوعنا . ولئن كنت قد استطعت بإمكانياتى الضئيلة وظروفى التى تحول دون التفرغ لهذا العمل وفى مدة وجيزة نسبيًا أن أجمع هذه المجموعة فكيف

يكون الحال لو تفرغ لهذا العمل مجموعة من الباحثين مدعمين بتوجيهات وإرشادات رواد الأدب الشعبى أمثال الدكتور عبد الحميد يونس ، والدكتور عبد العزيز الأهوانى ، والدكتورة سهير القلماوى والأستاذ أحمد رشدى صالح ؟ إننا بلا شك سوف نجد مادة صالحة للدراسات الأدبية الشعبية . .

والبحث فى المثل العامى إنما هو بحث فى حياة فئات العامة من الناس على اختلاف نشاطهم وسلوكهم فى تعاملهم وأخلاقهم وعاداتهم ، وكيف تولدت هذه العلاقات ومداها ودورها فى تكوين أخلاقيات الناس . إن المثل من خلال الجزئيات الصغيرة التى يعرضها فى تواضع وهدوء يناقش هذه المواضيع ويفسرها ويعطى صورة حية لطبيعتها ، وهى صورة صادقة كل الصدق ؛ لأنه يصدر عن فطرة نقية وطبيعة غير خادعة . . .

فالمثل العامى يعطى صورة حية ناطقة لطبيعة الشعب بما فيها من تيارات ظاهرة وخفية على حد سواء . وهو بذلك يكون اللون الأدبى الذى يتمثل فيه الصدق ولا يعتمد على المواربة ، ورغم ذلك فإن هذا اللون من الأدب ظل بعيدًا عن سيطرة الحاكم وسطوته بل إنه يحس به ولا يستطيع أن يفعل معه شيئًا أو يحد من سطوته ، وقد يستطيع الحاكم أن يحد من شعبية أغنية

ولكنه يعجز عن مواجهة المثل ؛ لأنه يتمدد وينتشر فى المجتمع كانتشار النار فى الهشيم . فهو إذًا الفن الوحيد الذى يكشف عن مختلف التيارات الاجتماعية على المستوى الشعبى . وهذا يفسر أهمية هذا اللون فى مجال الدراسات الاجتماعية باعتباره وثيقة اجتماعية ، وأيضًا فى مجال الدراسات الأدبية باعتباره من ألوان الفن الأدبى لدى الشعب . . .

ولما كان المثل إحدى وسائل التعبير التى يستخدمها المجتمع الشعبى فقد حاولت - بقدر المستطاع - أن أبتعد عن التفسير الفلسفى للمثل أو تحميل الجملة أكثر مما تحتمل ، وبمعنى آخر حاولت ألا يعطيها من التفسيرات أكثر مما يتصورها الرجل العامى لإيمانى بأن التفكير الشعبى بسيط لا ينزل إلى الأعماق كما لا يحلق فى الخيال ، ويمكن أن يقال إنه تفكير واقعى يعتمد على التجربة اليومية ويعالج المشاكل الحياتية فى صورتها الأولى غالبًا . ومن ثم فإن تحميل المثل أكثر مما يعبر يعد تحاملاً أو خروجًا عن المفهوم الشعبى الحقيقى أو بعدًا عن الواقع الاجتماعى للبيئات الأمية ، فقد يكون التعمق من شأن الحكمة أو القول المأثور وقد لا يكون كذلك بالنسبة للمثل الشعبى الذى ينتج عن مجتمع شبه منعزل أو محدود التفكير أو لم يحصل على قدر كاف من الثقافة والعلم ، ولقد حاولت أن

أشير إلى ما تراه الأمثال مستخدمًا فى ذلك طريقة التصنيف التى ساعدت على تكوين رأى عام للأمثال فى العلاقات الاجتماعية . .

والباحث فى الأمثال يحتاج إلى التغلب على مشكلتين مهمتين :

إحداهما : عملية جمع المادة المثلية وهذه تحتاج إلى وقت كبير وتمويل كاف ومثابرة ومرونة عند التعامل مع الناس . ونحب أن نشير إلى ما عانيناه فى سبيل جمع هذه المادة من سفر إلى مختلف الأماكن فى الوجه البحرى وخاصة حول فرع دمياط فى مناطق المنصورة وبعض مراكزها كدكرنس وأجا والسنبلاوين وميت غمر ومناطق الغربية كطنطا والمحلة الكبرى وسمنود وزفتى ، وقد تركز اهتمامى على منطقة زفتى باعتبارها مسقط رأسى ، وعشت فيها حياتى حتى الجامعة ، ولم تنقطع صلتى بها حتى الآن .

- وهذه المنطقة تعد من أغزر المناطق المصرية كثافة فى السكان ؛ لخصوبة أرضها ، ولأنها تتوسط أغلب محافظات الوجه البحرى وأهم مدنه فتقع فى منتصف المسافة بين طنطا غربًا والزقازيق شرقًا وبين المحلة الكبرى شمالاً وبنها جنوبًا ، ولا تزيد المسافة بينها وبين أى من هذه البلاد عن ٣٥ كم كما أن

المسافة بينها وبين شبين الكوم لا تزيد عن ٢٧ كم فضلاً عن أنها تقع في المنطقة التى تتوسط الوجه البحرى كله - ولقد أتاح انتمائى لهذه البيئة واقترابى منها فرصة الحصول على مجموعة لا بأس بها من الأمثال ولكن الصعوبة التى تظهر فى ذلك أن الأوساط الشعبية لا تدرك أهميته ؛ لأن المثل يصدر عفويًا وتلقائيًا ، ولا يعرفون أهميته ؛ فى مجال الدراسات الأدبية والاجتماعية .

ومما يزيد هذا الأمر صعوبة أن الأمثال تستخدم بين الناس بدرجات متفاوتة فالملاحظ أن هناك أعدادًا قليلة هى التى تجيد استخدام المثل ، ويؤدى المثل لها دورًا مهمًا فى الحديث ؛ لأنه يساعدها على تدعيم رأيها ، فكيف يمكن العثور على هؤلاء الناس؟ وكيف يمكن اختلاق المواقف لإيراد المثل ؟ إنها ولا شك مشاكل تحتاج إلى دربة وروية وأخلاق اجتماعية من نوع خاص . . .

والصعوبة الأخرى التى تظهر فى هذا المجال هى أن اللسان العامى يختلف عن اللسان الفصيح ، واللغة العامية لكونها لغة منطوقة فإنها دائمًا تتخلص من قواعد الإعراب والضبط وتميل إلى دمج الكلمات بالطريقة التى تتوافق مع إمكانية اللسان وظروفه الاجتماعية وطبيعة الموضوع والعمل وغير ذلك . ولا شك فى أن هناك هوة واضحة فى هذا المجال كان علينا أن

نواجهها وذلك بمحاولة التوفيق بين النطق العامى البحت وإمكانية الكتابة والقراءة . . .

الثانية : التناقض الذى يبدو فى الأمثال بشكل واضح وهذا التناقض نتيجة طبيعية لدور المثل ووظيفته ، فالمثل عبارة عن عملة يومية تعبر عن موقف فى زمن محدد قد يتغير بعد فترة وهذا لا يمنع من القول بأن الأمثال فى مجموعها تعبر عن طبيعة العلاقات ذات الطبيعة السالبة أو الموجبة .

ويمكن اعتبار أن تلك الخطب التى كانت تلقى على المنابر وفى المناسبات الدينية طوال الأسبوع كانت من المصادر المهمة للمثل الشعبى . فالواضح أن الخطيب الذى كان يلقى خطبة الجمعة من ورقة أو كتاب به مجموعة من الخطب المطبوعة التى ألفها رجال الدين فى العصور المتأخرة كان يحشوها بكثير من الحكم الدينية أو أقوال العلماء المأثورة ، وكان لهذا تأثير واضح على لغة الشعب وبالتالى أمثاله . .

وكانت هذه الخطب تعتمد على السجع والتحلية اللفظية كطريقة من طرق التأثير كما كانت تعتمد على الحكم والأقوال المأثورة وبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، كل ذلك كان يلقى على رجل الشارع فيتلقاها بصدر مفتوح فتعلق بذاكرته بعض من هذه الحكم والأقوال المأثورة وغيرها ، وعندما تأتى

مناسبة مشابهة تعود هذه الحكم والأقوال فتطفو من جديد خلال حديثه محورة حسب لسانه وعلى قدر إمكانيته على التذكر فيتلقاها آخرون وينقلونها إلى غيرهم مع بعض التغييرات ، وهكذا حتى يستوى المثل على صورته بين الناس ، وقد يختفى الأصل لسبب أو لآخر ، وقد يظل الأصل كما هو مع بعض التغييرات المناسبة . وفى اعتقادنا أن هذا المصدر من أهم المصادر للأمثال ذات الصبغة الدينية . .

وفى الختام يجب أن نشير إلى أن المصادر المدونة كانت بالنسبة لهذا البحث من العوامل المساعدة ، ولم تكن أساسية فى تكوينه ذلك لأنه اعتمد فى أغلب مادته على الأمثال المأخوذة عن الشعب مباشرة باعتباره صاحب هذا العمل . ولقد كان الاعتماد عليها واضحًا فى الباب الأول ؛ حيث حاولنا أن نستخدمها فى توضيح بعض لغات المثل وضورته ، أما فى الباب الثانى فلم تكن إلا تأكيدًا للعلاقات الاجتماعية التى أبرزها المثل . . .

وبالله التوفيق

إبراهيم شعلان

الباب الأول

الدراسة الأدبية فى المثل العامى

تعريف المثل

لقد نظر القدماء إلى المثل من خلال ثقافاتهم وعصورهم المختلفة ، ورغم محاولتهم جميعًا تأكيد تعريف معين إلا أن استعراض مجموعة الآراء المختلفة تبين أنه يوجد نوع من التكامل اللغوى والأدبى بين هذه التعريفات ، لقد وضع القدماء أيديهم على ركنين أساسيين هما : الإيجاز ، والشيوع ، فقد سلموا بأن المثل جملة موجزة شائعة بين الناس وحاول كل منهم أن يضيف إليها ما يزيدها وضوحًا ويميزها عن غيرها من سائر الفنون القولية .

لقد غلب القدماء الجانب اللغوى والأدبى على الجانب الموضوعى ولم يحاولوا النظرة الاجتماعية باعتبار أن هذه الأقوال وليدة الطبقة الخاصة وهى طبقة المثقفين كما أنها لم تكن تستخدم - فى الغالب الأعم - إلا فى التحلية

الأسلوبية . حقيقة لقد اشترط بعضهم الشيوع والذيوع بين الناس كابن عبد ربه الذى قال : «لم يسر شىء مسيرها ولا عم عمومها حتى قيل أسير من مثل» والمرزوقى بقوله : «تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول ، والفارابى بقوله المثل «ما تراضاه العامة والخاصة» ولكن الذيوع عندهم لا يعنى سوى الذيوع بين طبقة معينة .

أما عند المحدثين فقد أخذت النظرة إلى المثل صورة أشمل وأعم ، فقد حاولوا أن يربطوا بينها وبين أخلاق الشعوب وعاداتهم وأن يمزجوا بين الجانب الأدبى والجانب الاجتماعى فى محاولة للوصول إلى تعريف يدل على حقيقة المثل . . . لقد بدأ الاهتمام بالأمثال العامية فى مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر عندما عثر أحد المستشرقين على مجموعة من الأمثال العامية لشرف الدين بن أسد ، ومنذ ذلك الحين أخذت المحاولات الجادة تعمل على جمع المثل وتعريفه ، ورغم ذلك فلم تبدأ المحاولات بصورة جدية إلا منذ نهاية القرن التاسع عشر عندما حاول محمود عمر الباجورى أن يجمع من الأمثال العامية ما يزيد على الثلاثة آلاف ، وتلاه نعوم شقير الذى ظهر حول هذا التاريخ ، ومنذ ذلك الحين أخذت المحاولات تكثر كما أخذت مجموعات الأمثال تتوالى ولكن بدون محاولة واحدة لدراستها أو بحث مادتها حتى الآن . . .

* * *

يقول أحمد أمين «الأمثال نوع من أنواع الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكناية ولا تكاد تخلو منها أمة من الأمم . ومزية الأمثال أنها تنبع من كل طبقات الشعب وليست فى ذلك كالشعر والنثر الفنى فإنهما لا ينبعان إلا من الطبقة الأرستقراطية فى الأدب . وأمثال كل أمة مصدر مهم جدًا للمؤرخ الأخلاقى والاجتماعى يستطيع كل منهما أن يعرف كثيرًا من أخلاق الأمة وعاداتها وعقليتها ونظرتها إلى الحياة ؛ لأن الأمثال عادة وليدة البيئة التى نشأت عنها[1] . .

لقد حاول التعريف أن يرتكز على ركنين أساسيين أحدهما الجانب الأدبى أو ما يسمى بجانب الشكل والثانى الجانب الاجتماعى أو ما يسمى بالجانب الموضوعى ، ومن خلال هاتين الركيزتين يحاول أن يوضح مفهوم المثل . فهو فى سبيل توضيح الجانب الأدبى يتعرض لعدة حقائق لابد من توافرها فى المثل فى أنه ينبغى أن يمتاز بالإيجاز ، أما حسن المعنى فذلك من ناحية دلالته على الموضوع كما اشترط أن يكون المثل لطيف التشبيه جيد الكناية ، وهى شروط تتعلق بالجانب البلاغى ، ولم يخرج هذا التعريف عما نادى به القدماء من وجوب التزام الجانب

---

(١) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية - أحمد أمين - ص ٦١ ط لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٣ .

البلاغى ، فقد أشار إلى ذلك النظام وإلا بشيهى وغيرهما ، بل إن هذا الجزء من التعريف مستعار من نص تعريف النظام للمثل . . .

أما الجانب الموضوعى فيتمثل فى الإشارة إلى أن هذه الأمثال لكونها تنبع من طبقات الشعب كلها بدون تفرقة فإنها تعد من المصادر المهمة لدراسة المناخ الأخلاقى والاجتماعى للأمة ، ولكونها لا تنبع من بيئة محدودة أو خاصة فإنها قد اكتسبت بذلك أهمية كبيرة لدلالتها المباشرة على حقيقة عادات الأمة وعقليتها ونظرتها إلى الحياة فهى خامة طبيعية مستمدة من البيئة .

كما حاول التعريف أن يبرز الجانب الاجتماعى فى المثل على أنه وليد البيئة ونتاج صريح لكل الطبقات الشعبية ، وقد عزله بذلك عن الفنون الأدبية الأخرى كالشعر والنثر الفنى باعتبار أنهما لطبقة الخاصة وهى طبقة المثقفين أو كما يسميها «طبقة الأرستقراطية» فى الأدب أنه بذلك قد أبرز وظيفة المثل فى المجتمع الشعبى ووظيفة المثل عند المؤرخ الذى يبحث فى أخلاق الأمم وعاداتها وظروفها ونظرتها للحياة ، فالمثل لون إيجابى يؤدى وظيفة اجتماعية تمس الأخلاق والعلاقات ويستطيع الباحث أن يلاحظ أن التعريف قد فطن إلى الجانب الشعبى وعلاقته بالمثل فقد حاول التعريف أن يربط بين المثل

وطبقات الشعب بقوله «رمزية الأمثال أنها تنبع من كل طبقات الشعب» بمعنى أن الشعب بكل طبقاته هو الذى صاغ هذا التعبير وخلقه ، فالمثل وليد الشعب ووليد تجربته واحتياجاته وخبرته وحياته فلم يتكون إذن نتيجة طبقة خاصة لها ثقافة معينة أو بيئة خاصة أو غير ذلك ولكن الأمثال «وليدة البيئة التى نشأت عنها» . .

* * *

ويقول رشدى صالح معرفًا المثل : «إن المثل هو هذا الأسلوب البلاغى القصير الذائع بالرواية الشفاهية المبين لقاعدة الذوق أو السلوك أو الرأى الشعبى ولا ضرورة لأن تكون عباراته تامة التركيب بحيث يمكن أن نطوى فى رحابه التشبيهات والاستعارات والكنايات التقليدية[1] . . .

ويلاحظ أن هذا التعريف قد اشترط عدة شروط ضرورية لكى يتكون منها عناصر الجملة المثلية وتتمثل فى :

- الجملة المثلية تتصف بالإيجاز والبلاغة وصدق الدلالة .

- تشتهر بالذيوع بين طبقات الشعب المختلفة وفى كل مكان عن طريق الرواية الشفهية .

---

(١) فنون الأدب الشعبى - أحمد رشدى صالح جـ ٢ ص ٦ .

- يعين المثل قاعدة الذوق والسلوك أو الرأى الشعبى طبقًا لما أجمع عليه الناس على اختلافهم وهى قواعد مستمدة من التجربة الشعبية عبر التاريخ .

- الجملة المثلية قد لا تحتوى بالضرورة على ألوان من فنون البلاغة كالتشبيهات والاستعارات والكنايات أى أن المحسنات اللفظية ليست رئيسة فى تكوين أسلوب المثل وطريقة تعبيره .

والحق أن التعريف قد أضاف عنصرًا مهمًا فى تكوين المثل لم يشر إليه أحد من السابقين فقد أدخل فى تكوين المثل الرواية الشفهية أى لا بد من أن يعيش المثل فى الحياة العامة بين طبقات الشعب وفئاته فهو وليد الرواية ، وبذلك أخرج المثل العامى من دائرة الأدب المكتوب كالشعر وخلافه ، وخلص بذلك المثل العامى من اختلاطه بالمثل العربى الفصيح ، وعلى هذا فإن المثل العامى هو ما يردده العامة عن طريق الرواية الشفوية . .

وهناك جانب آخر يعد جديدًا فى هذا التعريف لم يفطن إليه من سبقوه . ذلك الجانب الذى أشار إليه التعريف وهو تخليص المثل من ضرورة ارتباطه بالعناصر البلاغية ، ولكنه بهذا لم ينف عنه وجود هذه العناصر والذى نادى به هو ضرورة تخليص المثل من معنى الالتزام بأسلوب معين إلا بالرواية الشفوية .

وفى ناحية أخرى من جوانب التعريف فإنه يؤكد الأصول

الذوقية فى مجال التعامل بين الناس فهو يرسم الأسلوب المتعارف عليه ، ويشير إلى ما ينبغى وما لا ينبغى ، وهو ينادى بذلك دونما فرض إلا لسلطان التقاليد والعادات وأنماط السلوك الشائعة . . .

والحق أن هذا التعريف قد حرر المثل من كثير من شوائبه وقد أجاب على كثير من التساؤلات كما خلص مفهوم المثل العامى باعتباره الحصيلة الشفاهية لخبرة الشعب اليومية وتجربته السلوكية فى الحياة . .

إن المصدر الحقيقى للأمثال فى كل العصور وفى كل مكان هو الشعب ، فالشعب هو الذى يصوغ هذه الحكمة وهو الذى يعطيها القوة الدافعة للانتشار كما يعطيها صكًا بالبقاء أو الفناء ، لذلك نجد أن التعريفات مهما اختلف زمانها ومكانها فإنها تتفق - إلى حد ما - ولو فى بعض العناصر ذلك ؛ لأن الأصل واحد والتربة تكاد تتشابه فمصدرها الشعب وتربتها الشعب . . .

فالمثل جملة استوعبت حكمة الشعب ونظرته لطبيعة العلاقات الإنسانية ، ولقد اتفق القدماء والمحدثون - إلى حد ما - على ذلك ولكنهم مع ذلك اختلفوا لاختلاف زوايا الرؤية ، ولئن حاول العرب القدماء أن يعطوا الجانب اللغوى والأدبى للجملة المثلية أهمية أكثر فإن المحدثين من الشرقيين لاحظوا

التوازن بين الجانب اللغوى والجانب الاجتماعى ، أما الغربيون فقد حاولوا أن يغلبوا الجانب الاجتماعى وبعضهم أسقط الجانب الأدبى كله وقليل منهم أعطى للتعريف الشكل الأدبى فقط . .

* * *

والمتتبع للنظرة الغربية للجملة المثلية يجد أنها لم تحفل كثيرًا بالجانب الأدبى باعتبار أنه لا يشكل ضرورة خاصة عند شعوبهم ولكنها حفلت بالجانب الاجتماعى والأخلاقى فقد زاد الاهتمام بالجانب الموضوعى فى تعريف المثل واتفقت بعض دوائر المعارف الغربية على تعريف مختصر لكلمة «مثل» فتقول دائرة المعارف البريطانية «المثل جملة قصيرة موجزة مصيبة المعنى شائعة الاستعمال»[1] . وتعرف دائرة المعارف الأمريكية المثل بقولها «المثل جملة قصيرة مصيبة المعنى تستحضر بدقة الحقيقة الشائعة ، وتتولد أساسًا فى المجتمعات الأولى بأسلوب عامى غير أدبى ، وتكون شكلاً فولكلوريًا شائعًا فى كل الأجيال[2] » . وتقول دائرة المعارف الفرنسية «الأمثال أصداء للتجربة والمثل هو اختصار معبر فى كلمات قليلة أصبح شعبيًا[2] » . أما اللورد راسل Lord Russell فيقول : المثل

---

(١) Encyclopedia Bitannica . Volume I8. p . 687 , 1966.

(٢) Larousse Du Xxe siecle .

حكمة الجماعة وذكاء الفرد » . ويعرفه ساوث South فيقول : « المثل جملة مركزة تحتوى حكمة مختلف العصور[(١)] » .

والواضح أن دوائر المعارف الغربية لم تختلف فى النظرة العامة لتعريف الجملة المثلية ، فقد اشترطت لكى يتكون الشكل المثلى عدة شروط تتمثل فى أن المثل لابد من أن يكون جملة قصيرة موجزة يتركز فيها المعنى المطلوب بدقة ولابد من اشتراط الشيوع فى الاستعمال ، وقد أضافت دائرة المعارف الأمريكية عنصرًا مهمًا لابد من توفره فى الجملة المثلية وهو أن تكون عامية الأسلوب ، وهى فى الواقع حقيقة تصل إلى درجة البديهيات ولكن الإشارة إليها عزلت - إلى حد كبير - التعريف المثلى عن الجملة الحكمية . . .

على أنه ينبغى ملاحظة أن الدائرة الفرنسية قد أبرزت أهمية التجربة وأثرها فى خلق الجملة المثلية باعتبار أن الحكمة الشعبية لم تتولد من العدم فلابد من أن تسبقها إرهاصات وتجارب تتولد عنها الجملة المثلية ، وهذه التجارب ليست مثل التجارب المعملية بمعنى أن تكون تجارب مقصودة ولكنها تجارب صدرت عفوية وسجلها فرد ذكى كما يقول لورد راسل Lord Russell وانفعلت بها الجماعة ثم استوت الجملة على مر الأجيال

---

(١) The Encyclopedia Americana . Vol . 22 . p . 705 , 1956 .

حتى ظهرت بصورتها الأخيرة ، وبذلك أصبحت « حكمة الجماعة » كما يقول راسل Russell وفى « مختلف العصور » كما يقول ساوث South .

والملاحظ أن هذه المجموعة من التعريفات لا تختلف فيما بينها ، بل إنها تتفق فى النظرة العامة . والواضح أن هذه التعريفات تتكامل فيما بينها لتضع التعريف الدقيق للجملة المثلية ونحن نقصد بالتعريف الدقيق ذلك التعريف الذى يتفق مع النظرة الغربية التى تعتبر المثل مضمونًا اجتماعيًا قبل أن تنظر إليه على اعتبار أنه مضمون أدبى أيضًا . .

* * *

ولنترك دوائر المعارف التى تمثل وجهات النظر الشاملة لنتتبع بعض الآراء الأخرى التى لا يمكن إغفال دورها فى تقنين المثل وتوضيح مفهومه . . .

يقول براوننج D.C. Browning « الأمثال تمثل مختارات جديدة كل الجدة تعنى بالكيف دون الكم» (١) . فالمثل كما يعبر عنه براوننج جمل يتحكم فيها الاختيار الشعبى ، كما أنها متطورة تتميز بأنها جديدة وتعنى بالموضوع بدون الشكل أو الصورة ،

---

(١) Everyman's Dictionary of Quotations and Proverbs.

Ltroduction D . C . Browning .

تهتم بالمضمون أكثر من اهتمامها بالوعاء الذى يحمل هذا المضمون ، فالمثل عند براونج ملتزم بهدف أيّا كان هذا الهدف ، ولكنه غير ملتزم بما يعبر عن هذا الهدف . والواضح أن هذه الدعوة لم يختلف فيها عن النظرة الموسوعية السابقة ، وتضيف ليش Leach : (المثل أسلوب تعليمى أو تهذيبى سديد محكم السبك شائع الاستعمال ضمن العرف والتقاليد فهو كقول القائل «حكمة الجماعة وإنتاج فرد ذكى») كما أنه يرسم طريق السلوك أو العمل وطريق الحكم على الموقف[1] ، فالمثل أسلوب توجيه وتربية يرسم طريق السلوك فى العلاقات الاجتماعية وطريقة التفاهم فى وسط المجتمع الذى يفرزه كما أنه لشدة ارتباطه بالمجتمع الذى أفرزه ولشدة حاجة الجماعة إليه فقد اكتسب صفة أخرى هى صفة الذيوع والانتشار ، كما أن التعريف لم يسقط حق الفرد فى عملية الخلق ، فهو يرى أن المثل إنتاج فردى اكتسب صفة الذيوع والانتشار نتيجة لحاجة الجماعة إليه فى عملية التوجيه والإرشاد ، ومن هنا فقد ارتبط بالجماعة وأصبح يعبر عنه «بحكمة الجماعة» على أنه ينبغى ملاحظة أن ليش Leach لم تسقط أهمية الجانب الأدبى فى تكوين المثل فتقول إن أسلوب المثل سديد محكم السبك» وتعنى بذلك

(١) The Standard Dictionary of Folklore Mythology and Legend

أنه جملة مركزة موجزة تؤدى ما يؤديه موضوع كبير فى مجال التوجيه الاجتماعى . .

وأيضًا فقد جمع الأستاذ رشدى صالح مجموعة من آراء الغربيين فى تعريف المثل لا بأس بأن نوردها لكى نقف على وجهات نظرهم . .

« يقول آرشر تايلور Archer Tylor المثل أسلوب تعليمى ذائع بالطريقة التقليدية ، يوصى - فى غالب الأحيان - بعمل أو يصدر حكمًا على وضع من الأوضاع [1] ، فقد اتفق Tylor مع سابقيه على أنه أسلوب تربوى تعليمى ، وأنه قول شائع ، كما اتفق مع ليش Leach على أنه - المثل - يرسم طريق العمل كما يقوم بدور الناقد لوضع من الأوضاع ، فهو بذلك يرسم السلوك ، ويدعو إلى التخلص من الأوضاع التى يراها فهو إذن يقوم بدور نفعى .

ويقول دهل Dahl أسلوب المثل أسلوب الجملة القصيرة نسبيًا المنغمة فى الغالب المجازية دائمًا [2] ، كما عرفه سوكولوف بأنه «جملة قصيرة صورها شائعة تجرى سهلة فى لغة

---

(١) فنون الأدب الشعبى : أحمد رشدى صالح ج ٢ - انظر فصل « فنون النثر » .

(٢) فنون الأدب الشعبى : أحمد رشدى صالح ج ٣ - انظر فصل « فنون النثر » .

كل يوم ، أسلوبها مجازى ، وتسود مقاطعها الموسيقى اللفظية»[1] . والواقع أن هذين التعريفين - على خلاف كل التعريفات الغربية - يتحدثان عن الجانب اللغوى فى المثل بدون سواه ؛ فلقد جمعا فى هذين التعريفين الأركان التى يحتوى عليها الأسلوب المثلى ، فالجملة المثلية - عندهما - تتميز بالإيجاز كما يشيع فيها الأوزان المنغمة فهى تحوى فى ظلالها مقاطع موسيقية . ولقد أضاف سوكولوف شرطًا للجملة المثلية ذات الأسلوب البلاغى هو أنها «تجرى سهلة فى لغة كل يوم» . هذا بالإضافة إلى أنها - الجملة المثلية - تستخدم الأسلوب المجازى لوجود القرينة بين مضرب المثل ومورده .

وينادى كراب بأن المثل « يعبر فى شكله الأساسى عن حقيقة مألوفة صيغت فى أسلوب مختصر حتى يتداوله جمهور واسع من الناس[2] » وحاول أن يفسر ما يعنيه بالحقيقة وكيفية ذلك فأضاف : « وقد يعبر المثل عن الحقيقة بطريقة حرفية فيكتفى بترديد هذه الحقيقة كما هى الحال بالنسبة لأمثال المواعظ ، وقد يعبر المثل عن هذه الحقيقة بأسلوب التهويل والمبالغة - أى عن

---

(١) علم الفولكلور - الكزاندر هجرتى كراب - ترجمة رشدى صالح - ط دار الكاتب العربى ١٩٦٧ / ٢٣٥ .

(٢) علم الفولكلور - الكزاندر هجرتى كراب - ترجمة رشدى صالح - ط دار الكاتب العربى ١٩٦٧ / ٢٣٦ .

طريق إبراز التناقض أو هو يعبر بالمجاز عن هذه الحقيقة ، وقد يلجأ المثل إلى استخدام الاستعارة[1] . لقد ركز كراب على ركنين مهمين فى تكوين الصورة المثلية وهما :

١ - الحقيقة المألوفة بين عامة الناس .

٢ - نزوع المثل إلى الاختصار والإيجاز والسهولة .

ولما رأى أن المثل يلجأ إلى استخدام عدة أساليب فى سبيل التعبير عن الحقيقة حاول أن يشرح ذلك بقوله : قد يكتفى المثل بترديد الحقيقة فى بعض المواقف ، وقد يتخذ أسلوب المبالغة والتهويل فى بعضها الآخر وقد يلجأ إلى استخدام مجموعة من المحسنات اللفظية . فالحقيقة التى يحاول المثل أن يعبر عنها تحتاج إلى استخدام كافة الوسائل الممكنة لإبرازها وتوصيلها إلى درجة الألفة بين الجمهور الواسع من الناس ، ونعنى بذلك الجماهير الشعبية . وفى مجال التعريف المثلى عند كراب حاول أن يزيد من إيضاحه فقد نادى بوجود خاصيتين أساسيتين فى المثل هما : «الطابع التعليمى من حيث الموضوع ، والاختصار والتركيز من حيث الأسلوب وهذا التركيز تزيده عوامل مساعدة كالجناس اللفظى والتقفية ، ولقد تكون هذه العوامل المساعدة

---

(١) علم الفولكلور - الكزاندر هجرتى كراب - ترجمة رشدى صالح - ط دار الكاتب العربى ١٩٦٧ / ٢٣٦ .

ذات فائدة لكنها ليست أمرًا لازمًا لا غناء عنه »[1] وأضاف إلى الطابع التعليمى قوله « وأما طابعه التعليمى الذى يكون مباشرًا فى أغلب الأحيان فيدل على أن المثل ابتكار تصنعه العبقرية الشعبية ، وأنه يثبت أكثر مما تثبت الأنواع الأدبية الأخرى »[1] . .

فالمثل عند كراب احتوى على الركنين الأساسيين هما : الجانب الشكلى والجانب الموضوعى ، فالجانب الموضوعى عنده يشمل الطابع التعليمى ، أما الجانب الشكلى وهو الخاص بالتركيب اللغوى فيتمثل فى « الاختصار والتركيز » ، ولقد اعتبر أن المحسنات اللفظية لا تمثل إلا عوامل مساعدة . وأما هذان الركنان فهما يعبران « فى شكلهما الأساسى عن الحقيقة المألوفة » التى يتداولها جمهور واسع من الناس . .

أما عند زايلر فقد عرف المثل الشعبى بأنه «القول الجارى على ألسنة الشعب الذى يتيمز بطابع تعليمى وشكل أدبى مكتمل يسمو على أشكال التعبير المألوفة »[2] ، وأضاف أنه « لابد من أن يحتوى على فلسفة ليست بالعميقة مصوغة فى أسلوب شعبى بحيث يدركها الشعب بأسره ويرددها » . .

لقد اتفق زايلر مع سابقه - كراب - على أن المثل يحتوى

---

(١) علم الفولكلور - الكزاندر هجرتى كراب - ترجمة رشدى صالح - ط دار الكاتب العربى ١٩٦٧ / ٢٣٦ .

(٢) أشكال التعبير فى الأدب الشعبى - د . نبيلة إبراهيم - ١٤٠ .

على ركنين أساسيين هما : الجانب الموضوعى ، ويعنى عنده أيضًا الطابع التعليمى ، والجانب الشكلى ، وهو الخاص بالتركيب اللغوى ، ولكنه اختلف مع سابقه فى تعريف مفهوم التركيب اللغوى فالشكل اللغوى الذى يرتضيه زايلر هو «شكل أدبى مكتمل يسمو على أشكال التعبير المألوفة» . فهو يتحدث عن الشكل الأدبى بدون تحديد لخصائص هذا الشكل ، وبذلك وسع دائرة المفهوم الأدبى لتشمل «كل ما يسمو على أشكال التعبير المألوفة» حقيقة إن الجملة المثلية تسمو على أشكال التعبير المألوفة لدى العامة ، والذى رفعها بدرجة على غيرها من أشكال التعبير الشعبى هو ما اعتراها من عوامل التعرية الطبيعية وما شملها من تغيير وتبديل على مر العصور ، وقد كان زايلر أكثر دقة وشمولاً عندما نادى «بالشكل الأدبى المكتمل» ، وهو يعنى بذلك الشكل الأدبى الذى استوى عليه المثل وأصبح مصيبًا فى معناه ومبناه ، وحاويًا لكل العناصر التى تؤدى المعنى بدقة . كما أنه من ناحية أخرى قد أكد على ضرورة احتوائه على حكمة الشعب أو كما يقول : «فلسفة ليست عميقة» وذلك لكى تكون فى متناول مدارك الشعب ، ويعيش بينه فى تجاربه اليومية .

تخليص المثل

بين المثل والحكمة

لقد اكتسبت كلمة « حكمة » على مر العصور عدة مدلولات تبعًا لنواحى استخدامها وشيوعها ، فقد قيل « الحكيم ذو الحكمة » .

والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها : « حكيم »[(١)] فكلمة حكمة هنا تعنى محاولة الوصول إلى جوهر الأشياء باستخدام أشرف العلوم وهو الفكر بمعنى أنه ينبغى لكى تكون حكيمًا أن تحيط بالمعرفة التى هى ألزم للوصول إلى جوهر الأشياء . .

كما استخدمت بمعنى العلم فقد نادى الجوهرى بأن «الحكمة من العلم والحكيم هو العالم»[(١)] وعلى ذلك فإننا نجد أن الحكمة ضد الجهل . « وفى الحديث « إن من الشعر لحكمة »

(١) اللسان مادة « حكم » .

أى إن فى الشعر كلامًا نافعًا يمنع من الجهل والسفه وينهى عنهما ، قيل أراد بها المواعظ والأمثال التى ينتفع بها الناس» [1] ، وتعنى كلمة حكمة فى هذا المفهوم الكلام النافع الذى يبعد الإنسان عن الجهل والانزلاق إلى السفه كما أنها تحمل فى تضاعيفها معنى الموعظة . والواضح من هذا أن الكلمة «حكمة» قامت بدور دينى معروف يحث على الخير أو ما ينفع الناس وتنهى عن الشر والجهل ، فهى تمثل فلسفة الخير فى مواجهة مفهوم الشر فلذلك نجد أنها قد أطلقت فى بعض الفترات على التعاليم التى دفعها الرسول إلى الناس ، وكذلك فإنها صيغت فى بعض استعمالاتها لكى تدل على القرآن الكريم [1] .

وتقودنا هذه الحقيقة إلى محاولة البحث فى مفهوم المثل العامى أو كما يقول عنه دكتور يونس «حكمة الشعب» أو «ثقافة الشعب»[2] حتى نستطيع أن نصل إلى الصورة الواضحة التى تقف بين المثل العامى وبين الحكمة .

يبرز فى هذا المجال سؤال نستطيع أن نتبين منه القاعدة التى يرتكز عليها المثل العامى ، والسؤال الذى يفرض نفسه هو أين

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثامن ماد « حكم ، حكمة » .

(٢) نشرة مركز الفنون الشعبية أغسطس سنة ١٩٦٠ مقالة بقلم د . عبد الحميد يونس .

ينتشر المثل ؟ إن الإجابة على هذا السؤال تحدد - إلى حد كبير - الجمهور الذى يتعامل بالمثل . يقول دكتور عبد العزيز الأهوانى «الأمثال أكثر انتشارًا بين الأميين منها بين المثقفين الذين يتقنون الكتابة والقراءة ، والبيئات التى تعتمد على الثقافة الشفوية تتداول الأمثال ، وتحرص على حفظها والاستشهاد بها أكثر من البيئات ذات الثقافة المكتوبة . لذلك كان سلطان الأمثال فى البوادى والقرى أقوى منه فى المدن والحواضر» . وتساءل ما تفسير ذلك ؟ وأجاب على هذا السؤال بقوله « تفسير هذه الظاهرة من الناحية النفسية والاجتماعية يتمثل فى أن ارتباط شخصية الفرد فى البيئات الساذجة بالشخصية الجماعية أشد وأمتن ، واحترامه للقيم الجماعية وكراهيته للشذوذ عن الجماعة يجعله ذهنيًا يتداول العملة التى صدرت أو ضربت فى دار الجماعة وهى المثل السائر الذى صبت فيه حكمة الأجيال السابقة ، والذى جُعل حكمًا أو كالحكم فى المنازعات ومنظمًا للسلوك ، وقائمًا مقام الدستور أو القانون فى المعاملات والتصرفات فيستخدم الأمثال للتعبير عن نفسه ولإقناع سامعيه وللتأثير على معارضيه . إذ يذكرهم بالدستور الجماعى ويردهم إلى حكمه » .

أما المجتمعات الحضرية المثقفة فقد نمت فيها الشخصية الفردية ووجد فيها الثائرون على قيم المجتمع المعتزون بتفكيرهم

الشخصى الواثقون بنفوسهم الذين يعتقدون أنهم بأقوالهم وأساليبهم البيانية يملكون الأداة التى تصدق فى التعبير عن أنفسهم بغير ما حاجة إلى استشهاد بأمثال ؛ لأن الأمثال فى ذاتها تحمل الحجة التى تدينهم ، وفضلاً عن ذلك فإن ثقافة المدنى وتنوعها جعلت رأس ماله من هذا الأدب الجماعى ضيئلاً [١] . .

ونستطيع أن نرى فى ذلك أن الأمثال تعيش بين الأميين أكثر منها بين المثقفين يدلنا على ذلك أن الأمى أكثر ارتباطًا بالشخصية الجماعية وأن احترامه للقيم والمعتقدات السائدة أشد وأقوى ، فالمثل عنده يمكن أن يحل محل الدستور أو القانون الذى يحكم المعاملات . .

ويقودنا ذلك بالضرورة إلى محاولة التساؤل عن هؤلاء العامة أو الناس العاديين فى كل مكان [٢] الذين تدور على ألسنتهم هذه الأمثال كما يقول الدكتور يونس .

لقد أراد بعض العلماء أن يحدد خصائص ما يسمى بالمجتمع الشعبى فقال «إنه مجتمع صغير منعزل أمى متجانس يؤلف بينه إحساس قوى بالتضامن الجماعى» [٣] ، ويقول

---

(١) فى ذكرى طه حسين ، بإشراف د . عبد الرحمن بدوى ، مقالة للدكتور عبد العزيز الأهوانى بعنوان « أمثال العامة فى الأندلس » - ٢٣٥ .

(٢) نشرة مركز الفنون الشعبية ، أغسطس سنة ١٩٦٠ ، مقالة د . عبد الحميد يونس .

(٣) الفولكلور ماهو ؟ - فوزى العنتيل . دار المعارف سنة ١٩٦٥ ص ٦٥، ٦٦ .

آخرون « الناس الذين ينسب إليهم التراث الشعبى هم العامة من الناس : القرويون أو سكان الريف - بصفة عامة - وأيضًا الطبقات الشعبية فى المدن» [١] ويضيف بعضهم « إن العامة من الناس The folk هم العنصر المتخلف فى مجتمع أكثر تحضرًا » [٢] . .

ويتضح من ذلك أن هناك إجماعًا على أن هذه الأمثال وليدة بيئات أمية دعتها الضرورة إلى ذلك ، وأن هذه البيئات تمثل الغالبية العظمى من الناس ، وأن هؤلاء هم سكان القرى والبوادى والأرياف ويدخل معهم أيضًا الطبقات الشعبية فى المدن . .

وتبرز من خلال ذلك الحقيقة التى تقول إن أرضية المثل تخالف تمامًا تلك التى تسودها الحكمة ، فبيئات المثل بيئات شعبية تعيش حياتها يومًا بيوم وساعة بساعة ، وليس لديها الوقت الذى تستهلكه فى البحث عن الحقيقة ، فالمثل الذى يقول «اطبخى يا جارية كلف يا سيدى» أو المثل الذى يقول «قومى لها جرية واقعدى لها ست» أو المثل «إن سرقت اسرق جمل وإن عشقت اعشق قمر» هذه الأمثال وغيرها لا يمكن أن تعبر إلا عن حياة يومية بكل ما فيها من جزئيات أو مواد خام ، لذلك فالحقيقة الشعبية

---

(١) السابق .

(٢) السابق .

عندهم سهلة وبسيطة ، ومن ثم فإن الأمثال التى تصدر عن هذه البيئات تصدر عن الفطرة الطبيعية بلا تكلف ، وتجمعها هذه السمة الأكثر طواعية لأغراض الناس ومواقفهم فى الحياة اليومية [١] .

فالرجل العامى له منحاه الخاص فى التفكير والتعبير وطبيعة تنفر من اللف والدوران أو الإبهام والغموض . لذلك «امتاز أدبه فى الغالب بأنه ساذج فطرى بسيط ذلك ؛ لأن العاطفة العامية بدائية بسيطة غير معقدة» [٢] كما أنها لا تستطيع أن تتعامل إلا مع الفكرة الواضحة ، حقيقة إن هذه الفكرة القريبة قد تكون فى مستوى الفكر السائر أو أسلوب الحوار ، وقد تختلف عن الأسلوب العادى فى أنها ربما تسمو عليه فكرًا ولغة ، ولكنها على أى حال لا ترقى إلى أسلوب الفلاسفة والحكماء ، فالرجل العامى لا يستطيع أن يستوعب الفكرة العميقة التى نستخلصها من الحكمة القائلة : «من زرع الأحن حصد المحن» أو «من طال عدوانه زال سلطانه» ، «من قل وجله قصر عمله» [٣] أو «رب فطنة تسوقك إلى فتنة ورب ذكى أحرقه نار ذكائه» [٤] . .

---

(١) نشرة مركز الفنون الشعبية – أغسطس سنة ١٩٦٠ – مقالة د . عبد الحميد يونس .

(٢) مباحث فى الأدب الشعبى – عامر رشيد السامرائى – بغداد ١٩٦٤ .

(٣) كتاب الأمثال (المسمى بالفرائد والقلائد) أبى منصور النيسابورى ٤٢٩ .

(٤) أطباق الذهب – شرف الدين الأصفهانى ط ١٩٣٢م القاهرة .

وقد يمر العامى بالتجربة المماثلة ويعيها وينفعل بها وقد تزيد درجة انفعاله بها عن غيره ولكنه لا يستطيع أن يعبر عنها بمثل هذه الجمل العميقة وربما حاول التعبير عنها أو ترجمة إحساسه بها فى أسلوب يسمو أيضًا عن سائر أنواع الكلام الشعبى ، ولكنه قطعًا لا يرقى إلى مستوى هذا الأسلوب . فمثل هذه الجمل يصوغها الحكيم الذى هو العالم[1] كما يقول الجوهرى . . .

ولننظر إلى قول بعض الحكماء عن الدنيا «الدنيا سم محلى» فقد وصفها بأن ظاهرها الحلاوة ولكنها حلاوة معجونة بالسم والشر ، وكذا (علم بلا عمل كحمل على جمل» فقد صاغ فلسفته فى كلمات قليلة وبطريقة أسلوبية لا يستطيع الرجل العامى أن يقوم بتركيبها بينما يعبر عن ذلك الرجل العامى بطريقته الخاصة وبأسلوبه وصوره المنتزعة من البيئة التى يعيشها ويتحرك فى داخلها كل يوم بل كل ساعة ، إنه يعبر عن هذه التجربة التى مر بها العالم أو الحكيم بقوله «الدنيا زى الغازية» فأصل التجربة واحد ولكن طريقة التعبير والنظرة تختلف تبعًا للثقافة والبيئة فالدنيا عند الرجل العامى لا تدوم ، فهى كالغازية التى ترقص لك فتجذبك إليها ثم تتركك إلى غيرك لتؤدى نفس الدور كالحلاوة المعجونة بالسم ترغبها ولكنها لا تؤمن . .

---

(١) اللسان مادة حكم .

نستطيع إذن أن نتصور أن بيئة المثل تختلف عن بيئة الحكمة ؛ لأن الأخيرة محددة لا يمكن أن تعيش فى جو الموضوعات اليومية كالطبخ وغيرها ، ولكنها تعيش فى جو مغلق هو جو العلم والعلماء والحكماء والفلاسفة أى : بيئة الثقافة الخاصة ، أما بيئة المثل فهى بيئة الثقافة العامة بيئة الشعب بكل ما فيه وبكل طبقاته وتفكيره .

ولقد فطن إلى ذلك بعض القدماء ومنهم أبو هلال العسكرى الذى قال : «قد يأتى القائل بما يحسن من الكلام أن يتمثل به إلا أنه لا يتفق أن يسير فلا يكون مثلاً ، وضرب المثل جعله يسير فى البلاد من قولك ضرب فى الأرض إذا سار فيها »[(١)] حقيقة إن هناك اتفاقًا بين الحكمة والمثل ولكن موطن الاختلاف يتمثل فى الشعبية التى يكتسبها المثل كما ينادى القدماء وفى الطبقة التى ينتمى إليها المثل كما يشير المحدثون ، وبهذا المعيار أيضًا حاول القدماء أن يفرقوا بين المثل والنادرة ، فقال الفارابى فى ديوان الأدب : « النادرة حكمة صحيحة تؤدى ما يؤدى عنه المثل إلا أنها لم تشع فى الجمهور ولم تجر إلا بين الخواص وليس بينها وبين المثل إلا الشيوع وحده[(٢)] . .

---

(١) جمهرة الأمثال - أبى هلال العسكرى ت ٣٩٥ هـ - بهامش مجمع الأمثال للميدانى ط المطبعة الخيرية بالقاهرة سنة ١٣١٠هـ .

(٢) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها - جلال الدين السيوطى تحقيق محمد =

إن الحديث عن بيئة المثل والحكمة تؤدى بالضرورة إلى البحث عن عملية الخلق لكليهما ، لقد نادى زايلر وأيده فى ذلك كراب [1] «بأن الشعب لا يستطيع - بوصفه كلاً - أن يخلق شكلاً أدبيًا مكتملاً بأية حال من الأحوال ، وإنما يعتمد كل خلق وكل ابتكار واكتشاف على شخصية مفردة ، ولابد من أن كل مثل قد نطق به فرد فى زمان معين ومكان معين . فإذا مس حس المستمعين له فهو حينئذ ينتشر بينهم وكأنه عبارة ذات أجنحة ، وعندئذ يتعرض المثل للتحوير والتهذيب حتى يوضع فى قالبه القانونى بوصفه مثلاً شعبيًا» [2] ، لقد كان زايلر على حق فى هذا التصور فلا يمكن منطقيًا أن يجلس مجموعة من الناس ليتفقوا على صيغة معينة يرتضونها لكى يطلقوا عليها لفظ «مثل» ، فلا شك أن المثل جهد فردى لم ينضج بعد ، ثم قامت الجماعة فى أزمنة مختلفة وفى أمكنة مختلفة أيضًا بعملية إنضاج هذا الجهد حتى وصل إلينا بصورته الموجودة أمامنا . .

ومما لا شك فيه أيضًا أن الجملة الحكمية ليست من خلق مجموعة ولكنها إنتاج فردى وتنسب فى كثير من الأحيان إلى قائلها . فهى جملة - غالبًا - معروفة الزمان والمكان . .

= أحمد جاد المولى وآخرين - ط القاهرة - دار إحياء الكتاب العربى سنة ١٩٥٨ جـ ٤٨٦/١ ، ٤٨٧ .

(١) علم الفولكلور - كراب .

(٢) أشكال التعبير - ١٤١ .

والواضح أن الجملة المثلية لا يمكن أن تندرج ضمن الأمثال إلا بعد أن تمر بعدة تعبيرات تقتضيها طبيعة الزمان والمكان بل إنها تتجدد باستمرار ، ومن هنا لا يصح أن نقول إلا أنها نتاج جمعى باعتبار أن الجماعة هى صاحبة هذه العبارة وهى العامل الأول فى نشرها وذيوعها[1] ومن هنا يمكن القول تجوزًا إنها نتاج جماعى ؛ لأنها صدرت وضربت «فى دار الجماعة» .

وعند ذلك قد نستطيع أن نقول بأن كليهما خلق فردى وهذا حق لا إنكار فيه ، ولكن طبيعة كل منهما تختلف عن الأخرى وكذلك ظروف سيره ، فالخلق الجماعى للجملة المثلية جعل الجهد الفردى فيها مجهولاً ومن ثم كانت الصعوبة فى العثور على زمانها ومكانها ، أما الجملة الحكمية فهى تخالف ذلك فهى مجهود فردى عرف زمانه ومكانه . .

« ثم إن الأمثال لكونها نسبت إلى الجماعة أصبحت تمثل طبيعة الجماعة بكل ما فيها من متناقضات ومن هنا ظهرت الأمثال فى بعض الأحيان بصورة متناقضة ومتفقة فى أحيان أخرى ذلك لأن التجربة الجماعية غير مستقرة ، ومن ثم لا يمكن أن تخضع لأحكام عامة ثابتة ؛ لأن التجارب فى الحياة قد تتفق

---

(١) فى ذكرى طه حسين ص ٢٣٥ .

فى نتائجها وقد يتناقض بعض هذه النتائج مع بعضها الآخر تمامًا ، وقد تعبر هذه التجارب عن النظام الكامل فى الحياة ، وقد تعبر عن أحوال العالم الذى تسير فيه الأمور على غير هدى فمثل «ابن الوز عوام» يعبر عن مدرك من مدركات الحياة يصح أن يصبح قاعدة ولكن يظهر مثل آخر يناقضه تمامًا وهو «باب النجار مخلع» فإذا بالمثلين يقف كل منهما على حدة ليعبر عن تجربة مقررة»[1] وهذا يدل على أن العالم الذى يحتوى الجماعة التى أصدرت المثل عالم يعيش فى التجربة اليومية وهى تجربة الفرد الذى تتمثله الجماعة . .

ولكن الجملة الحكمية تجربة فردية لا تمثل الجماعة بقدر ما تمثل قائلها فالحكمة تظل هكذا فى كل زمان ومكان . إننا نستطيع أن نقول «إن ابن سينا قال كذا وقد وافقه الفارابى فقال كذا أو خالفه الفارابى فقال كذا فتظل هذه الأقوال منسوبة لأصحابها سواء أاتفقت أم تناقضت ؛ ذلك لأنها جهد فردى وستظل هكذا بعكس الجملة المثلية التى تذكر الرأى ونقيضه رغم انتسابها إلى مصدر واحد هو دار الجماعة . .

إن الجملة المثلية لا يمكن أن تختلف مع الحكمة دائمًا

---

(١) أشكال التعبير – د . نبيلة إبراهيم ١٤٢ .

فرغم ما أشرنا إليه سابقًا من وجود بعض الاختلافات الواضحة إلا أن ذلك لا ينفى وجود بعض عناصر الالتقاء والتشابه ، فمن الملاحظ أن الجملة سواء أكانت مثلاً أم حكمة تعتمد على الإيجاز الذى يوحى بفلسفة خاصة تولدت عن خبرة وتجربة ، ومن ثم فإن «المثل والحكمة يكادان أن يكونا شيئًا واحدًا هدفهما تعليمى Didactic وهو الوعظ وتقرير أصول قضايا السلوك وقواعد المعرفة والمعتقدات والتشريع الشعبى والمبادئ الفنية والذوق إلى آخر هذه المناحى المختلفة من النشاط الإنسانى»(١) فالمثل والحكمة رغم اختلافهما فى درجة الشيوع ونوعية المتلقى إلا أنهما يصدران عن رغبة واحدة ويهدفان إلى غرض واحد وهو الغرض التعليمى وهذا الغرض - غالبًا ما يكون أخلاقيًا . . .

ومن ناحية أخرى فيلاحظ أن المثل والحكم المأثورة خلاصة تجارب فردية تتركز فى جمل موجزة لذلك فإن هذه الأقوال تنفصل عما يمكن أن يكون معها من عمل فنى لتعيش بمفردها وتؤدى دورها لا من خلال النص الأدبى الكبير ولكن تقوم بالدور الاجتماعى أو الأخلاقى بنفسها وتظل تؤدى هذا الدور بمفردها أحقابًا طويلة ، حقيقة قد يعترى المثل قليل من

---

(١) فنون الأدب الشعبى : أحمد رشدى صالح ج ٢ - انظر فصل « فنون النثر » . .

التغييرات الطفيفة ولكنه يظل يؤدى دوره كاملاً كنتيجة للتجربة وكذلك الحكمة التى تحتفظ بكيانها فى المدى الطويل . على أنه ينبغى ألا يفوتنا أن هذين القولين - الأمثال والحكم - لا يمكن أن يكونا ناقصين فكل منهما يكون جملة تامة تؤدى معنى كاملاً كما أنها لا تحتاج - لغويًا - إلى مكملات . لذلك عاشت هذه الجمل - كما أشرنا - أحقابًا طويلة تؤدى دورًا فى البناء الأخلاقى والاجتماعى . . .

وظيفة المثل

إن الدور الذى يقوم به المثل أكبر من أن تحده شروح أو تفصيلات ذلك لأن وظيفة المثل تتعلق بالإنسان فى أبسط حالاته وأعقدها ؛ إذ يلتصق بحياة الناس وطرائق سلوكهم فى محيط المجتمع أو البيئة كما يلتصق بالإنسانية جمعاء فى كل زمان ومكان ؛ لأنه يتحدث عن مشاكل الإنسان وتناقضات الحياة التى تنعكس على أفعاله خيرها وشرها . على أن المثل وهو يتحدث عن ذلك يقوم بعملية الرصد والتسجيل والنقد والتعرية وغير ذلك من مهام شديدة الالتصاق بالحياة اليومية للشخص «لأننا نعيش جزءًا من مصائرنا فى عالم الأمثال ولعل هذا يفسر لنا استعمالنا الدائم للأمثال ، على عكس الأنواع الشعبية الأخرى . فالأمثال بالنسبة لنا عالم هادئ نركن إليه حينما نود أن نتجنب التفكير الطويل فى نتائج تجربتنا ونحن نذكرها

بحرفيتها إذا كانت تتفق مع حالتنا النفسية بل إننا نشعر بارتياح لسماعها وإن لم نعش التجربة التى يلخصها المثل»[1] .

على أنه ينبغى أن يوضع فى الاعتبار أن المثل لم يرتبط بهذه الحقائق إلا بعد أن مر بعدة مراحل استوى فيها الأسلوب المثلى والفكرة وأصبح صالحًا للانتشار بين الناس ، هذه المراحل التى أجمع كثير من العلماء على ضرورة وجودها والتى تنادى بأن المثل قد بدأ صياغة فردية ولابد من أن كل مثل قد نطق به فرد فى زمان معين ومكان معين ، فإذا مس المثل حس المستمعين له فهو حينئذ بينهم وكأنه عبارة ذات أجنحة ، وعندئذ يتعرض المثل للتحوير والتهذيب حتى يوضع فى قالبه القانونى بوصفه مثلاً شعبيًا[2] ، ولا يجب اعتباره إنتاجًا جماعيًا بل لقد صيغ كل مثل ذات مرة وفى مكان واحد وزمن محدد وصاغه عقل فرد مجبول على صياغة الحكم والأمثال ثم صادف رواجًا عند سائر الجماعة البشرية[3] .

وفى المرحلة التالية تأخذ الصياغة دورًا آخر حيث تخضع لتأثير الجماهير والعامة «فإذا كانت العقول الفرادى هى التى صاغت الأمثال فإن جمهرة الشعب هم الذين أذاعوها وروجوها

---

(١) أشكال التعبير / ١٤٧ .

(٢) أشكال التعبير / ١٤٠ .

(٣) علم الفولكلور - كراب - ص ٢٣٦ .

ولهذا السبب ظهر التحرير والتصرف فى أساليب الأمثال ، على حين لم تكن هذه التحويرات متعمدة فيما يختص بالحكايات الشعبية بل كانت للنسيان أو قصور الذاكرة فإن الأمثال تعرضت للتحويرات المقصودة والتصرف المتعمد »[١] ويقول ستيفنسن Stevenson « إن التعبير يصبح مثلاً عندما يكون عبارة مجنحة باكتساب موافقة شعبية ، وعندما يشيع عند العامة والخاصة فى أنحاء العالم »[٢] .

من ذلك نستطيع أن نصل إلى الحقائق التالية :

١- هناك تسليم بالجهد الفردى فى عملية خلق المثل بصورة أو بأخرى مبدئيًا .

٢ - فى المرحلة التالية تتدخل الجماعة لتساهم فى خلق المثل .

٣ - لا ينتشر المثل ويصبح تعبيرًا مجنحًا إلا بعد أن يتعرض لعدة تحويرات مقصودة تؤدى إلى اكتسابه موافقة شعبية .

وإذا كنا قد وضعنا يدنا على هذه الحقائق السابقة ، وإذا كنا قد اتفقنا على ضرورتها فإنه يتأكد لنا من خلال ذلك الدور الذى يمكن أن يؤديه المثل . . .

---

(١) المصدر السابق - ٢٤١ .

(٢) Stevenson's Book of Proverbs, Maxims and Familiar Phrases Burton Stevenson, London 1949, Introduction .

على أننا إذا عرفنا الظروف التى تتدخل فى إيراد المثل لا خلقه فإن ذلك سوف يتيح لنا وضوحًا أكثر ورؤية أعمق لدور المثل ووظيفته . والواضح أن المثل وهو يصدر عفوًا لا يأتى أو يقال بدون ضرورة داعية لذلك «فللأمثال حالات خاصة ومقامات مشهورة تظهر بها فإذا عرضت الحالة وناسب المقام أخرجها أهل النظر والخبرة بما راع من اللفظ وبدر من المعنى فتبرز فى الكلام ممتازة عنه فيتناولها الجمهور ويتداولها فى حالاتها ثم تنتشر وتدوم بالاستعمال»(١) والمثل يأتى عند ذلك فى ختام الحالة ليؤكدها أو ينفيها أو يبدى رأيًا أو يحل مشكلة أو غير ذلك سلبًا وإيجابًا . ويقول الباجورى «لما كنت ممن نشأ فى البلاد المصرية وتربى بها تربية أدبية وخالط الشعب فى جملة من بقاع الوطن ما بين سكان القرى والمدن ورأيتهم رأى العين يتحاورون وسمعتهم فى مجالسهم يتحادثون فلم أر أحدًا منهم إلا وهو يختم كلامه أو يثبته بضرب الأمثال الفصيحة التى هى عندهم كالآيات البينة والأحاديث الصحيحة»(٢) ويمكن أن نستخلص من خلال ذلك الحقيقتين التاليتين :

---

(١) أمثال العوام - نعوم شقير - ط المعارف سنة ١٨٩٤ - المقدمة .

(٢) أمثال المتكلمين من عوام المصريين - محمود الباجورى - ط المطبعة الشرقية ١٨٩٤ .

١- يظهر المثل لدواعى الحاجة إليه أو بمعنى آخر لا يظهر بدون سبب ولا يقال اعتباطًا .

٢- يظهر المثل فى ختام الموقف الداعى إليه ، وليس ضروريًا أن يكون فى ختام الكلام .

والواضح أن هذا الموقف الذى أثار القريحة الشعبية فأسرعت بإخراج الحكمة الشعبية الدالة عليه . هذا الموقف غالبًا ما يكون تجربة الإنسان الذاتية ويأتى المثل فى ختامها ليعبر عن نتيجتها بطريقته الخاصة ونحن نتفق - إلى حد كبير - مع ما وصلت إليه الدكتورة نبيلة عندما قالت «ولما كانت تجارب الإنسان تشغله إلى حد كبير - فإن الإنسان لا يعيش فى عالمه الكبير بقدر ما يعيش فى عوالمه الصغيرة أى فى تجاربه ، وكلما عاش الإنسان فى هذه التجارب وأحس بوقعها على نفسه كان أشد ميلاً للتعبير عنها وعن نتائجها ، فقد يحدث أن يفشل فى أمر ما كان يتوقع نجاحه فيه ، فإذا شاء هذا الشخص أن يصف سوء مصيره وعجزه لشخص آخر يدرك موقفه تمامًا فإنه يعبر عن ذلك بكلمة «حظ» فإذا حدث أن وصل شخص إلى نتيجة موفقة فى مسألة ما ، لم تخطر له على بال فإنه يعبر عن ذلك كذلك . وإن يكن بنغمة أخرى «حظ» . .

وهنا نلاحظ أن الشخص لم يحكم حكمًا نقديًا على موقفه

بحيث يقول على سبيل المثال : لو أننى تصرفت تصرفًا آخر لحدث كذا أو كذا ولكنه يبتعد عن جوهر تجربته كما يبتعد عن مسلكه إزاء هذه التجربة ولا يعبر إلا عن نتيجتها ووقعها على نفسه ، وربما قربنا هذا المثال من الموقف الذى يعيشه الإنسان حينما ينطلق لسانه بالمثل . ومن المحتمل أن يحل مثل شعبى محل كلمة حظ وحينئذ يكون التعبير عن نتيجة التجربة أكثر وضوحًا»[1] .

ولكن لا ينبغى أن يؤخذ كقضية أو قانون ينطبق على المثل عامة فالواضح أن الأمثل - بصورة غالبة - تأتى فى ختام التجربة ولكنها ليست دائمًا . فما القول فى أمثال التحذير ؟ فهل تأتى هذه الأمثال فى نهاية التجربة تعبر عن ندم أو تشير إلى فشل فى أمر ما ؟ أغلب الظن أنها ليست كذلك ، بل الصحيح أنها تأتى فى بداية التجربة فالمثل «اللى يزرع دره فى الناروز يبقى قولحه من غير كوز» إن هذا المثل قد يأتى للتحذير من الإقدام على تجربة ونحن لا نعنى بداية خلقه فربما تدخلت التجربة فى ظروف خلقه كأن يكون أحد الفلاحين قد زرع ذرة فى غير مواعيده فلم يجن شيئًا فاستخدم المثل لذلك ونحن لا نعنى هذا الظرف الذى ساعد على خلقه ، ولكننا نعنى باستخداماته

---

(١) أشكال التعبير ص ١٤٢ ، ٤٣

الجديدة المتكررة على مدى التاريخ فقد تحول المثل فى الأحوال الجديدة من خاتمة التجربة إلى التحذير من الإقدام عليها . وكذلك أمثال السخرية «قله وعامل قناطه» والأمثال التى تقال فى خلال الكلام «اللى أوله شرط آخره نور» فهذا المثل لا يأتى فى ختام موقف ولكنه يقال فى خلال الحوار عند الاتفاق على عمل أو غير ذلك ، والمثل «قمح ولا شعير» والمثل «كبير القوم خادمهم» . .

ومما لا شك فيه أيضًا أن أسلوب المثل وطريقة صياغته يلعبان دورًا كبيرًا فى رسم الدور الذى يؤديه المثل فى المجتمع فنحن لا نجد فى أسلوب الأمر إلا النصيحة كيفما كانت فالمثل «قل من الندر وأوفى» يلعب دور الناصح الذى يؤدى وظيفة اجتماعية ، «شيل ده من ده يرتاح ده عن ده» ، «خد من الزرايب ولا تاخد من القرايب» ، «شاور كبيرك وصغيرك وارجع لعقلك» كل ذلك يوضح الدور المباشر لوظيفة المثل ولقد يكون فى هذا الأسلوب ما يوصى بالإقدام على الشر كما يقول المثل «اتبع البوم يوديك الخراب» ولكن ذلك يخالف الحقيقة التى يمكن أن ستخلصها من طريقة الأسلوب وصياغته والتى تستخدم أسلوب التحذير والنهى بل والتهديد والتهكم «دبقى يا خايبة للغايبة» . .

ونحن لا نجد فى أسلوب التناقض فى التعبيرات المثلية إلا

انعكاسًا لما فى الحياة من تناقضات وكأن المثل - رصد هذا الموقف واستجلاء هذه الصورة - إنما يكشف نفسية الناس من خلال العلاقات الاجتماعية أو كأنه يستخدم أسلوب التعرية والكشف لما يدور من تيارات تتجمع لتكون القسمات التى تتسم بها العلاقات الاجتماعية . ويقول الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى تفسير التناقض «وإنما جاء التناقض آن النفس الإنسانية ذاتها تحمل فى طياتها هذا التناقض وتتجاذبها العوامل النفسية باختلاف الظروف وفضلاً عن ذلك فإن المجتمع - بطبيعة انقسامه إلى طبقات وطوائف واختلاف فى المهن وفى المستويات العقلية والمعيشية جعلت - وإن التقت نفسيات أهله فى نواح من وجهات النظر تختلف فى نواح أخرى»[(١)] .

ونحن لا نجد فى أسلوب المحسنات الذى يشيع فى المثل إلا نوعًا من الترويح والتخفيف من أثقال الإنسان وأعبائه الحياتية ، كما أن الأمثال المصرية بوجه خاص تعتبر دليلاً حقيقيًا على الطبيعة المصرية التى تشتهر بخفة الروح ولطف الحس ولعل ذلك ما دعا ليتمان إلى أن يقول : «كل شخص عنده معرفة بالشرق القريب يعرف مدى عشق سكانه بالأقوال المثلية وكيف يستعملون ذلك غالبًا فى محادثاتهم اليومية العادية وكيف تقوم

---

(١) فى ذكرى طه حسين ص ٢٤٩ وما بعدها .

المعارك فى كثير من الأوقات بسبب مثل قيل فى الوقت المناسب At the right time وكيف أن هؤلاء الذين كانوا محزونين منذ برهة يضحكون ويبتسمون بعد سماعهم مثلًا» (١) ودعا كذلك السيدة فايقة حسين إلى القول بأن الأمثال المصرية أصبحت فاكهة الأمم الشرقية لصوابها حينًا ولفكاهتها حينًا آخر فهام بها الشرق العربى وتقبل هذا الأدب المصرى المحلى باللذة والتشوق» (٢) وقولها «وقد راقتنى هذه الأمثال كما نفست عنى كثيرًا من هم النفس وبلواها (٢) . ويقول آخر «يولع العامة بأمثالهم وكثيرًا ما تراهم يتناظرون بها فى المثل السائر فى اصطلاحهم ليروا من يحفظ منهم أكثر من غيره وقد جعلوها قاعدة السلوك وقاموس الأدب فقلما تراهم يقصون حديثًا أو يعرضون أمرًا إلا أيدوه بمثل هو زبدة الحديث وجوهر الأمر» (٣) ويقول الدكتور الأهوانى «كثير جدًا من الأمثال لا يشتمل على سلوك أو توجيه أو حكمة وإنما يضطلع بوظيفة أدبية أو بلاغية تقصد إلى عرض صور فنية تمتع الحس وترضى النفس بما

---

(١) أمثال العوام من مصر والسودان والشام جمع بولين سنجر Mrs. A. P. Singer والمقدمة بقلم الدكتور أنوليتمان Enno Litmann - طبع القاهرة ١٩١٣ .

(٢) حدائق الأمثال - فايقة حسين جـ ٢ طبع سنة ١٩٤٣ .

(٣) أمثال العوام - نعوم شقير .

تشتمل عليه من تشبيه دقيق أو مفارقة مضحكة أو فن من القول طريف . ومن هنا تقوم هذه الأمثال بما تقوم به بعض الفنون من التقاط صور طريفة من الحياة لا تهدف من ورائها إلى غير الإمتاع الفنى[1] .

وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن أسلوب المثل وصياغته يؤديان دورًا فى رسم الخط الفكرى والموضوعى الذى يسير عليه المثل «وأحيانًا يكون للكلام كالبرهان للقضية فتدل عليه بالدلالة المطابقية وتارة يكون بالنسبة للكلام كنسبة الملح للطعام[2] . .

وإذا كنا قد أشرنا إلى الدور الذى يقوم به المثل فى الجانب الأدبى فإنه لا يجب أن تفوتنا الإشارة إلى الدور الاجتماعى أو بمعنى آخر الوظيفة التى يؤديها المثل للبيئة التى يعايشها وتتكون عناصره منها . والواقع أن الدور الاجتماعى للمثل يكاد يكون أبرز الأدوار التى يلعبها المثل فى حياة الناس ذلك لأنه يدخل الحياة اليومية للناس من أوسع أبوابها بل إنه يعيش مع الشخص مرات عديدة فى يومه ويتسرب إلى دقائق حياته ويتخلل جزئياتها ، ولعل المثل الروسى كان صادقًا حينما قال «الأمثال

---

(١) فى ذكرى طه حسين ص ٢٤٩ وما بعدها .

(٢) أمثال المتكلمين من عوام المصريين - محمود عمر الباجورى .

عملة الناس» والسويسرى حينما قال «بالمثل تشترى بأذنيك أحسن درس بأرخص ثمن» والبوسنى وهو يقول «الأمثال فى الكلام تضىء فى الظلام»[1] أو كما يقول كراب «الأمثال تردد خلاصة التجربة اليومية التى صارت ملكًا لمجموعة اجتماعية معينة والتى صارت كذلك جزءًا لا ينفصل من سلوكها فى حياتها اليومية الجارية»[2] أو أنها تصلح لأن تدرس دراسة اجتماعية لما احتوته من التقاليد الشعبية والقيم المحلية فضلاً عما جاء فى تضاعيفها من الإشارة إلى مختلف الصناعات والمهن والأحوال المعاشية»[3] . .

ومن ناحية أخرى فإن المثل سلاح قوى يشهره العامة فى مواجهة الشذوذ والانحرافات الاجتماعية أيًا كانت أو إنه سياج من القيم يضربه المجتمع من حوله لكى يحمى نفسه وعاداته وتقاليده ويحفظها من الشطط أو المروق ، ويحضرنا بهذه المناسبة ما أشار إليه الشيخ محمد الدسوقى فى قوله : «ولقلة اللغة الفصحى وعدم شيوعها فى القطر المصرى ترى أصحابها مضطهدين فى لغتهم من العامة مرذولين بينهم تضرب بهم

---

(١) أمثال الأمم الأوربية - سلوين جرثى شامبيون وترجمة محمد رضا - ط ١٩٤٧ .

(٢) علم الفولكلور ص ٢٤٣ .

(٣) الأمثال البغدادية - جلال الحنفى جـ ١ ص ١٣ - ط بغداد ١٩٦٢ .

الأمثال فى التقعر ، وللعامة فيهم أمثال تمثل بلاهتهم . من ذلك قصة الفقيه والحراث التى يلمزون بها الفقهاء الذين ينطقون بالقاف ومن أمثالهم التى ينبذونهم بما قولهم «كسر الجمل ولا كسر النحوى» فلهذا كله تغلبت العامة على الخاصة وألجئوهم إلى متابعتهم على النطق بالقاف همزة أو جيمًا خوفًا من هؤلاء الأوباش أن يستلقوهم بألسنتهم ويضربوا بهم الأمثال[1] ولقد لخص هاجرتى هذا الدور فى قوله «والفكرة الغالبة هى بالطبع فكرة التحذير من الشطط والفكرة الغالبة عليها هى أن «خير الأمور الوسطْ» أى أنها تحذر من التطرف والشطط[2] .

ومن هذا الاتجاه يأخذ المثل دورًا آخر يظهر فيه أثر التشريع الاجتماعى . ولئن أخذ المثل دور الناصح الذى يقول ما ينبغى أن يسود ويشير إلى ما ينبغى أن يزول فإنه قد فرض - تبعًا لذلك - الشروط واستن اللوائح والقوانين التى تنظم العلاقة بين الناس بعضهم ببعض من ناحية وبين الناس وولى أمرهم من ناحية ثانية وبين العبد والرب من ناحية ثالثة ، ولئن كانت التشريعات

---

(١) تهذيب الألفاظ العامية - محمد على الدسوقى - ط القاهرة ١٩١٣ ص٤٦ ، ٤٧ .

(٢) علم الفولكلور - ص ٢٤٣ .

القانونية قد اتخذت مصدرًا رسميًا لتنظيم العلاقات الإنسانية فإن الأمثال بدورها قد اتخذت مصدرًا لتشريع العادات الشعبية وتشكيلها حسب الاحتياجات الأخلاقية والاجتماعية ، وليس بعيدًا عنا الأمثال التى لا تخرج عن كونها نصوصًا لقوانين العلاقات الإنسانية ومن ذلك «اللى أوله شرط آخره نور» ، «اللى بدك ترهنه بيعه» ، «حرامى بلا بينه سلطان» ، «الحرامى وعملته» ، «الشهادة عقبة» ولعل ذلك ما دعا كراب إلى أن يقول «وثمة نوع مهم للغاية من أنواع الأمثال جدير بأن نذكره وذلك هو الصيغ القانونية التى تؤلف جسم القانون المتوارث فى كل مجتمع أمى»[1] وجعل براون يقول عن الأمثال أنها «مستودع لاختبارات أهل القرون الخالية محفوظة فى قالب يدوم بعد انقضاء تلك الاختبارات ويستدل به الحكيم فى كل عصر على سر الحكمة المودع فيها[2] .

والحقيقة التى لا ينبغى أن تغيب عن الأذهان أن الأمثال يمكن أن تنهض كدليل صادق للتيارات الاجتماعية كما أنها من المصادر المهمة للتاريخ الاجتماعى ؛ ذلك لأنها حصيلة البيئة

---

(١) علم الفولكلور - ص ٢٤٩.

(٢) مجموعة أمثال عامية مصرية ليوسف خانكى ط البيان ١٨٩٧ والمقدمة بقلم هنبرى براون .

التى أنشأتها «فطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم العصور إلى التفكير ولتأمل والأمثال العامية التى يصطنعها المصرى الآن والتى نقلت إلينا معربة عن قدماء المصريين ورقة إحساسهم وهم يتأملون طبيعة مصر ويتحدثون عنها وآثار قدماء المصريين ملئت بالحديث عن السماء والأرض واختلاف الجو وغير ذلك من آيات تفكيرهم فى الطبيعة» [1] . وإذا عرفنا حديثًا أن المصالح الأهلية فى مصر كانت فى أيدى الشركات الأجنبية أو التى يديرها أجانب وعرفنا أن المصرى الذى كان يشتغل فى هذا المجال كان يهدد دائمًا بالطرد وأنه فقد لهذا السبب عنصر الأمن اللازم للحياة ، إذا عرفنا هذه الحقائق فإننا لا ندهش عندما يفضل الموظف العمل الحكومى ؛ حيث الاطمئنان للمستقبل وحيث لا يجد أسرته فى وقت ما معرضة للفناء والتشرد ولا ندهش عندما نجد المثل الذى يقول «إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه» يشيع ويصبح أملاً يسعى إليه المصرى ولا يجد فى غيره الأمن والهدوء . .

ولئن احتوى المضمون الفكرى للمثل على جميع مبادئ الأخلاق كالعفة والفضيلة والصدق والكرم وحسن الجوار

---

(١) فى أدب الفاطمية - د . محمد كامل حسين ص ٢٨٦ ط دار الفكر ١٩٥٠ .

والحزم والصبر والشجاعة وغيرها مما يمكن أن تحمل فى أطوائها مثلاً عليًا سامية يسعى إليها الإنسان ويرى فيها عناصر تحقيق إنسانيته فى مواجهة ظروف الزمن ، فإنه قد احتوى أيضًا على مجموعة من الرذائل كالشذوذ والتحلل والانحراف . ووسيلته فى هذا كشف الشر وتعريته والحث على الخير والدعوة إليه ولننظر إلى هذا وذاك فى المثل لكى تتضح أمامنا الصورة المثلية وما تحمله فى أطوائها .

فالأمثال «خلص تارك من جارك» ، «فرغ السلام بقى تفتيش الأكمام» ، «جينا نساعده فى دفن أبوه فات لنا الفاس ومشى» ، «إن دخلت بلد تعبد العجل حش وارمى له» ، «إن درى جوزك بغيبتك كملى يومك وليلتك» ، «اللى يعفر عفار يجى على دماغه» ، «راحت الناس وفضل النسناس» ، «زى السمك يأكل بعضه» ، «شخوا على كلكم يا للى الزمان خلانى لكم» . . . إلخ . إن هذه الأمثال وهى تذكر بعض العيوب الاجتماعية وتضعها أمام الناس مكشوفة إنما تتوسل بذلك إلى محارتبها والتخلص منها وكما يقول دكتور يونس «تضعها أمام الأفراد على المشرحة» تحللها وتدعو بطريقة غير مباشرة وغير وعظية إلى محاربتها والتخلص منها كما جسم رذائل التحلل والانحراف فى سخره وتهكمه لكى ينفر منها ويعمل على تخليص أفراده من

الوقوع فيها[1] أو كما يقال وكثيرًا ما يشعرنا المثل بنقص فى عالم الأخلاق وليس هذا سوى انعكاس لما يسود عالمنا التجريبى من عيوب أخلاقية[2] . .

وفى مقابل ذلك نجد الأمثال التى تدعو إلى مبادئ عليا سامية منها : «ابطى ولا تخطى» «أبو خوخه وأبو فله فى القبر بيتدلى» ، «أجود من الدهب اللى يجود بالدهب» ، «أخلص النيه وبات فى البرية» ، «مال الناس كناس» ، «البانى طالع والفاحت نازل» ، «الخير يخير والشر يغير» ، «العلم فى كل زمن له قيمة وتمن» . . إلخ . .

وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن المثل انعكاس طبيعى لحياة الإنسان بخيرها وشرها وحلوها ومرها ، والمثل وهو يعكس هذه الحياة لا يرددها كالببغاء دونما هدف واضح أو سياسة مقصودة ولكنه يهدف أولاً من استعراض الخير والشر إلى دفع الإنسان للاتجاه إلى الخير ويحذره من الالتجاء إلى الشر مستخدمًا عدة وسائل منها التهكم والسخرية والكشف والتعرية والدهشة والاستنكار ، كما أنه وهو يدفع إلى الخير يتوسل

---

(١) مجتمعنا - د . عبد الحميد يونس ص ٦١ .

(٢) أشكال التعبير - د . نبيلة إبراهيم - ١٤٤ .

بالنصيحة المباشرة وغير المباشرة ويعرض النماذج التى تمثل مبادئ سامية كنموذج للتقليد والمحاكاة . وعلى ذلك يمكننا القول بأن المثل أسلوب شعبى للنقد والتقويم كما أنه مرآة تعكس آمال الشعب وأفكاره وتجاربه . .

على أنه ينبغى أن ينظر إلى المثل من الزاوية العلمية باعتبارها إحدى الجوانب التى تكشف التفكير الشعبى وتوضح نظرته الموضوعية إلى حقائق الظواهر . والواضح أن المثل وهو يرصد الظواهر الطبيعية لا يستخدم إلا ما يتيسر له من المشاهدة ذلك لأنه لا يعرف التجارب المعملية التى تضع يده على مختلف الحقائق العلمية ، فالمشكلة العلمية قد تحتاج إلى مجموعة من التجارب حتى يمكن الوصول إلى حقيقتها ، ولكن المثل وهو تعبير شعبى عابر يعتمد على المشاهدة العابرة قد يتعرض للخطأ والصواب لأنه يفتقد الوسيلة العلمية الصحيحة وهذا ما دعا إلى القول بأنه «فى القرون الوسطى أوحت فكرة تحويل المعادن إلى ذهب التى ابتدعها الكيماويون والفلاسفة العرب إلى بعض المفكرين أساسًا قويًا لنظرية «التولد الذاتى» التى عرفت فيما بعد بنظرية النشوء الأولى ومؤداها أن الحياة نشأت من مادة عضوية تحت ظروف طبيعية خاصة . . .

والواضح أن هذه النظرية القديمة إلى طبائع الأشياء لا يزال

لها أنصار عند كثير من العامة حتى فى وقتنا الحاضر دون أن يرتبط فى أذهانهم أية نظرية عن نشأة الحياة نفسها فكثير من العامة يعتقدون مثلاً بأن «دود المش منه فيه» ذلك لأن الفلاح يضع اللبن والجبن فى «بلاص» ويحكم غطاءه فلا يلبث أن يجد فيه دودًا بعد مدة وهو لا يدرى شيئًا عن الأطوار الكامنة للحشرات بطبيعة الحال ولا عن نظرية «التعقيم» لقتل الميكروبات ومثل هذا الدود الذى ظهر إنما كان نتيجة لتلوث الإناء أو محتويات ببويضات الحشرات قبل أن يحكم غطاؤه»[1] . .

والواقع أن اهتمامات المثل ليس بالجانب العملى ولكنها تهتم بالعلم التطبيقى أو الحرفة اليديوية ، فهو يحفل بهذه الناحية ويضع التجارب التى حصلها السابقون أمام الأجيال اللاحقة لكى تسير عليها ، فالمثل «اللى تقطه أحسن من اللى تمطه» ، «ستين مقاس ولا قطعية منشار» نبع هذان المثلان من بيئة النجارين وهما يختصان بالحرفة ذاتها ولا يمكن لأى فرد خارج المهنة أن يستوعب فكرتهما لأنهما من خصائص الحرفة ، فالمثل الأول يشير إلى أن قطعة الخشب إذا كان بها وفر وتقطع منها كما تحب

---

(١) قصة الحياة ونشأتها على الأرض – د . أنور عبد العليم ص ١١ ، ١٢ المكتبة الثقافية ١٩٦٤ .

حتى تصل إلى مطلوبك أحسن من قطعة الخشب القصيرة التى تحتاج إلى أن تزيدها ، أما الثانى فيؤكد الخبرة الحرفية فيقول أنه من الأوفق أن تقيس الصنعة وتدقق فى القياس وتكرر فيه ستين مرة أن ذلك يعد أفضل من أن تسرع فى القطع بالمنشار ثم تجد أنها لا تصلح للصنعة . والمثل «كف لحم ولا كف فحم» من بيئة الحدادين وهو يشير إلى أهمية العنصر الإنسانى فى الصنعة . وكذا تأتى أمثال الفلاحين والمراكبية وسائر الحرف مشيرة إلى طبيعة الدور الذى تلعبه بخصوص الحرف اليدوية ولتعبر عن شدة التصاقها بالطبقات الدنيا . .

ولقد تساءلت دكتورة نبيلة فقالت : «هل يمكن أن يكون المثل ذا طابع تعليمى ونحن ننطق به فى خاتمة تجاربنا ؟ وإذا كان المثل ذا طابع تعليمى فمعنى هذا أنه يكون بداية لتجاربنا ويكون له أثر فى صقلها ولكن الذى يحدث غير ذلك فالتجربة تتم كما يحلو لها وفى نهايتها ينطلق لساننا يلخص نتيجتها[(١)] . وانتهت إلى القول بأنه «لعل الطابع غير التعليمى فى المثل يرتفع به إلى مستوى أدبى فنى لم يكن ليصل إليه لو أنه كان يهدف إلى غرض تعليمى صريح . فالتعبير عن خاتمة التجربة معناه رجوع بها إلى الوراء حتى بدايتها ، أى إننا نعيشها مرة أخرى»[(١)]

---

(١) أشكال التعبير فى الأدب الشعبى - د . نبيلة إبراهيم - ١٤٣ .

وربما كان ذلك صحيحًا بالنسبة للتجربة الإنسانية الأولى ولكنها قد لا تكون كذلك بعد أن تستوى وتذاع وتنتشر لأنه ربما كان صبى النجار قد هم بالقطع أى أنه فى بداية التجربة وعندئذ يلحقه «الأسطى» بالمثل «ستين مقاس . . .» كوسيلة للتحذير أو النصيحة بالتأنى ، أو هم صبى الحداد بأن يضع كفًا من الفحم فى الكير لتقوية النار حتى يلين الحديد فيلحقه الأسطى بهذا التحذير أنه بذلك قد وضع حدًا للتجربة قبل الدخول فيها . . .

ولقد نتفق فى ذلك مع زايلر الذى ينادى بأن المثل الشعبى هو «القول الجارى على ألسنة الشعب الذى يتميز بطابع تعليمى وشكل أدبى مكتمل يسمو على أشكال التعبير المألوفة» والذى يعنينا فى هذا التعريف هو أن المثل «ذو طابع تعليمى» إننا لا نستطيع أن نرفض هذا التعريف كلية كما أننا لا نستطيع أن نقبله كاملاً ذلك ؛ لأن الحرفة اليدوية تعتمد أول ما تعتمد على التعليم ، والمثل الذى يعبر عن بعض حقائق الحرفة لا يمكن إلا أن يكون أسلوبًا للتعليم كما أن المثل «إيش جمع الشامى على المغربى» لا يمكن أن ندرجه فى أساليب التعليم . . .

الباب الثانى
الدراسة الاجتماعية للمثل العامى

الشعب المصرى والحكّام

إن العلاقة بين المصرى والحكام ليست وليدة عصر معين أو فترة من فترات التاريخ وليست نتيجة للعلاقات الحاضرة بين الحاكم والشعب . والمصرى الذى عاش أكبر فترة حضارية فى تاريخ البشرية وتكونت عناصر حضارته وعاداته على مدى التاريخ لا يمكن أن يخضع لقاعدة التغير والتبدل تبعًا لمقتضيات الحال ، وإن هذه الجزئيات الصغيرة التى ترى فى العلاقات الإنسانية لا يمكن أن تكون «بنت ساعتها» كما يقول العامة ولكنها تمثل عصورًا من الذل والهوان كما تمثل عصورًا من القوة والعظمة ، والعلاقات بين الحاكم والمحكومين لم يقتصر أثرها على طرفى الموضوع ولكنها تمتد لتشمل كل العلاقات بين المحكومين بعضهم مع بعض ومن هذا نستطيع أن نقول أن العلاقات بين الناس والعادات التى تتحكم فى

هذه العلاقات ليست وليدة العلاقات الوقتية كما قد يتراءى للبعض ، ولكنها فى الواقع وليدة الحكم والإدارة اللذين قاما على مدى التاريخ - بالدور الرئيس فى تكوين العادات والتقاليد بصورة مباشرة وغير مباشرة . .

ولقد كانت العلاقة بين المصرى وحاكمه على مدى التاريخ علاقة يتحكم فيها أسلوب الشك وعدم الثقة المتبادلة فلم يجد المصرى فى حاكمه إلا القوة الغاشمة التى انقضت عليه لتسلبه حقه فى المعيشة الحرة والحياة الكريمة هذه القوة التى لا قبل لها بها ولا يستطيع بوسائله المحدودة أن يواجهها ، والتاريخ يسجل كثيرًا من الانتفاضات التى كانت تنتهى دائمًا بالفشل وازدياد سطوة الحاكم وعنفه ، إن هذه الصورة طوال التاريخ دفعت بالمصرى إلى تقديس حياته الخاصة فى أسرته وجعلته يفنى فى سبيل الإبقاء على ترابطها وتكاملها . . يقول العقاد عن ذلك : «المصرى اجتماعى من ناحية الأسرة وعراقة المعيشة الحضرية ، أو اجتماعى من ناحية انتظام العادات والعلاقات منذ أجيال مديدة على نظام الأسر والبيوت ، وهذا هو أقوى ما يربطه بالمجتمع أو يربطه بالأمة والحياة القومية ، وهو ارتباط أقوى فى نفسه أكثر من ارتباط النظام السياسى والمراسم الحكومية ، فلم تكن الحكومة فى تلك الأزمان الطويلة لتمتزج بنفسه قط امتزاج الألفة والطواعية والمعاملة المشكورة . بل ربما صدوده عن الحكومة

مما ضاعفت اعتماده على الأسرة وحصر عواطفه الإنسانية فى علاقاته البيتية ؛ لأنها ملجأ خفيض ومهرب أمين من القسوة والمظالم ، وغاية ما يخامره من أمر الحكومة أنها شيء يدارى ما استطاع له المداراة ويستفاد من سطوته وجاهه ما تيسرت الفائدة ولا بأس بإرضائها فى غير حفيظة ولا استكراه ولا عجب فى هذا الشعور المبهم فى زمن كان الناس فيه يعبدون آلهة الشر ويتزلفون إليها بالصلوات والقرابين . فعلاقته بالحكومة على الأغلب الأعم هى علاقة عداوة مريبة أو مهادنة محتملة لم تبلغ أن تكون علاقة ود يحرص عليه أو ضمان يحميه إلا فى الندوة التى لا يقاس عليها ، ومن ثم كان محافظًا ومتحفزًا للتغيير فى وقت واحد أو كان محافظًا فى مسلكه الذى يدور على أصول الأسرة وعلاقات الرحم متمردًا فى مسلكه من ناحية الشئون السياسية يظفر منه بالترحيب والموافقة إلا ساعة يمتزج بنظام البيت والأسرة ويتسرب إلى حياته من باب عواطف الأرحام ومناظرات المنازل وإلا فلا أمل لإصلاح فى توفيق»[1] . ولقد ذكرت كتب التاريخ كثيرًا من المظالم التى دفعت بالشعب إلى العزلة عن الحاكم وأدخلته قوقعته الصغيرة وهى الأسرة والتاريخ القديم والحديث يفيض بالحديث عن ذلك ، ويحضرنا فى ذلك

---

(١) سعد زغلول - عباس العقاد - القاهرة ١٩٣٦ ص ٢٦ .

ما ذكره الجبرتى عن حوادث سنة تسع وتسعين ومائة وألف وذكر منها صورة نابضة بالظلم قال «وقعت فتنة بين عربان البحيرة وحضر منهم جماعة إلى إبراهيم بك وطلبوا منه الإعانة على أخصامهم فكلم مراد بك فى ذلك فركب مراد بك وأخذهم بصحبته ونزل إلى البحيرة ، فتواطأ معه الأخصام وأرشوه سرًا فركب ليلاً وهجم على المستعينين به وهم فى غفلة مطمئنين فقتل منهم جماعة كثيرة ونهب مواشيهم وإبلهم وأغنامهم ثم رجع إلى مصر بالغنائم» [١] إن هذه الصورة تبين نوعًا غريبًا من الحكام المتسلطين طبعه الجشع وانعدام القيم والخيانة . ولقد وصف إدوارد لين صورة من صور الظلم فى عهد محمد على فقال «كان محمد على يتمتع بسلطة لا حد لها فهو يستطيع أن يقضى على أى فرد من رعاياه بالموت دون محاكمة أو تعيين سبب وكفاه أن يحرك يده حركة أفقية بسيطة ليتضمن ذلك حكم الإعدام وقد دفعه طموحه المطلق إلى جميع الأعمال فكان يجلب لنفسه المدح تارة أو الملامة تارة أخرى» [٢] . وإذا عرفنا هذه الحقائق فقد لا ندهش عندما نتصفح الأمثال التى أفرزتها العامة لتشير إلى طبيعة علاقتهم بالحاكم ولونها وأشكالها ، هذه

---

(١) تاريخ الجبرتى جـ ٢/ ٩٩ .

(٢) (المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم - إدوارد لين - عدلى نور - ص ٥٩ .

السلطة التى لم يكن يقف أمامها قانون أو إنسان يحد من تسلطها دفعت العامة إلى أن تعبر عن إحساسها أمام هذه الأعمال بالأغنية والموال والمثل الذى يعبر عن حكمة الشعب وفلسفته فى الحياة فقال إنه ينبغى الابتعاد عن السلطان ، والإنسان إذا عاش بعيدًا عن مراكز السلطة عاش فى أمان وسلم من الظلم والتشريد فقال «السلطان اللى ما يعرفش السلطان» ، ذلك لأن معرفة السلطان قد تجر البلاء وقد تكلف الإنسان حياته كما كان يحدث ، والمصرى واقع فى حياته تحت سيطرة الحاكم مثله فى ذلك مثل الموت ولا يستطيع الفرار منهما وقد عبر المثل عن هذه الصور المؤلمة فقال : «اللى ما يخدوش الحاكم ياخده الموت» . .

لقد أفرغ الشعب كثيرًا من مشاعره وأحاسيّسه فى أمثاله بحيث يستطيع الباحث أن يرى صورة حقيقية لمدى ما تتركه الحكومة من آثار على حياته ، والمصرى يكره الحاكم فى كل صورة حتى أدناها . إنه يكره الإدارة والقوة التى تسلبه حريته وقوته وكرامته وحياته . لقد أعطى الجبرتى صورة سيئة للجنود وما يفعلونه مع العامة فقال فى حوادث سنة سبع عشرة ومائتين وألف «تسلط العسكر على خطف الناس ولبهم وقتلهم وخصوصًا فى أواخر هذه السنة حتى امتنعت الناس من المرور فى جهات سكنهم إلا أن يكونوا فى عزة أو منعة وقوة ولا تكاد ترى شخصًا يمر فى الأسواق السلطانية من بعد المغرب وقبيل

العشاء ، وإذا اضطر الإنسان إلى المرور فى تلك الأوقات فلا يمر إلا كالمجاذف على نفسه وكأنما على رأسه الطير . فيقال : إن فعلهم هذه الفعائل من عوائدهم الخبيثة إذا تأخرت نفقاتهم فعلوا ذلك مع العامة على حد قول القائل «خلص تارك من جارك»[1] هذه الفضائح لم يكن يستطيع الشعب لها دفعًا وقد عبر عن ذلك فى المثل «ما حدش يقول يا جندى غطى دقنك» أو يقول «اكمن أبوك جندى داير تهز وسطك» . . .

إن العلاقة بين الحاكم والشعب كانت تتمثل فى الخوف والشك وقد عبر المثل عن ذلك بصدق ودقة ، فالشعب قبل أن يتحدث عن السياسة أو الحاكم وظلمه يتردد كثيرًا ؛ لأن عيون الحاكم كثيرة ومنتشرة ولا يفطن إليها الناس فيقول المثل «الحيطة لها ودان»[2] ، «اتكلم بإحسان أحسن الحيطة لها ودان» لقد أصبح الناس يخافون حتى من أقرب الناس إليهم أو يقول المثل «حاكمك غريمك وإن ما طعته يضيمك» . لقد صوره المثل فى صورة العدو الذى لا يؤمن جانبه لسطوته ، وسيفه طويل على عامة الشعب «سيف السلطة طويل» إن المصرى يعرف الوسائل

(١) الجبرتى ج ٣/ ٢٥١ .

(٢) يقول تيمور من أمثال فصحاء المولدين «إن للحيطان آذانًا» أورده الميدانى فى مجمع الأمثال وقال الثعالبى فى ثمار القلوب ومن أمثالهم للحيطان آذان «أى خلفها من يسمع» - الأمثال العامية - أحمد تيمور - حرف الحاء .

التى يستخدمها الحاكم لمعاقبة الناس إنه يستخدم الكرابيج فهو ما يعاملهم كالحيوانات ، فالحاكم قد لا يعرف الحقيقة كلها وليس أمامه عندما يحكم بين الناس إلا الظاهر وقد عبر عن ذلك المثل «زى الحاكم مالوش إلا اللى قدامه» ولقد كان الشعب يسخر من كرابيج الحاكم . إن الكرباج الذى لا يصل إلى المذنب يعفيه من الألم وقد صور هذه الصورة بأسلوب كاريكاتورى فقال «زى كرابيج الحاكم اللى يفوتك أحسن من اللى يحصلك» أو يقول : «اللى ياكل مرقة السلطان تنحرق شفته» . الذى يعرف هذه الحقيقة عليه أن يفر من السلطان ومن كل من يقترب منه وقد قيل «فر من السلطان فرارك من الأجرب» . .

والمصرى يعرف السلطان أو الحاكم جيدًا ويعرف أنه - أى المصرى - أحد الأسباب التى دفعت السلطان إلى الظلم والافتراء فيقول فى المثل «يا فرعون ايش فرعنك قال مش لاقى حد يردنى» . إن البعد عن الحاكم والخوف من مواجهته بأخطائه والجبن عن المطالبة بالحقوق والحريات من العوامل التى تساعد الحاكم على سطوته وتولد عنده العنف والجبروت . والمصرى يعرف أيضًا أن الحاكم لص كبير لا يتورع عن اتخاذ كل الطرق للسلب والنهب فيقول فى المثل : «حاميها حراميها» . والحاكم

إنسان قبل كل شيء ، حقيقة أن أعماله بين الناس ومساوءه قد تضفى عليه مسحة من الامتياز بين الناس حتى ليمكن أن يقال أنه من معدن آخر ولكن المثل يبدد هذه الصورة ولا يتركها تشيع بين الناس فهو يقاومها ويلقى «دشًا من الماء البارد» على هذه الهالة التى تحيط بالحاكم وتضفى عليه لونًا خاصًا أو مسحة من الامتيأز فيقول «افتكرنا الباشا باشا أتاريه راجل» أنه لا يزيد عن إنسان فرد من آلاف وملايين غيره ولا ينبغى أن نعطيه أكثر من ذلك . والمصرى يعرف أيضًا أن هناك عوامل تدفع الإنسان إلى الحكم غير القوة وقد عبر عن ذلك فى المثل «إذا كانت الشطارة بالقوة كان التور ياخد باشا» .

إن العلاقة السيئة بين الحاكم والمصرى قد ولدت عنده الغيظ والنفور وقد دفعه ذلك إلى الرغبة فى التشفى فكان المصرى يتحين الفرص للتعبير عن ذلك ، ولم يكن يترك فرصة يستطيع فيها أن ينتقم من الحاكم إلا ويستغلها حتى ولو كان ذلك على حساب أخلاقه وقيمه فيقول فى أحد الأمثال « . . . الحكومة ولا توريهاش . . . » ويقول فى أمثاله «المخوزق يشتم السلطان» إن الصورة التى كونها المصرى عن الحاكم قد جعلته يتمنى ذهابه بأية وسيلة بالعزل أو الموت أو غير ذلك ومع كل هذا فإن المثل يحذر من مغبة الاندفاع وراء الأمانى حتى لا يصدم الناس بالواقع ، فيقول «ما تفرحوش فى اللى انعزل إلا لما تشوفوا اللى

نزل» أو يقول «ما تفرحوش فى اللى انعزل اللى لما تشوفوا اللى نزل» أو يقول لهم ساخرًا «افرحوا واتهنوا بقدومه جاكم بشومه» أو يقول «اللى تقول عليه موسى تلاقيه فرعون» أو «اللى ما يضى بحكم موسى يرضى بحكم فرعون» لذلك يتوسل الناس للحاكم الجديد فيقولون فى أمثالهم «اتوصوا علينا ياللى حكمتوا جديد إحنا عبيدكم وإنتم علينا سيد» . .

هذه الثقة المعدومة بين الحاكم والشعب قد ولدت الانعزالية والخوف حتى إنهم لا يستطيعون أن يواجهوه علنًا فعليهم أن يتهامسوا بمشاعرهم فيقول المثل «الملك من هيبته بينشتم فى غيبته» .

إنهم يعرفون سطوته وظلمه وليس أمامهم إلا التعاون معه واحتمال إيذائه فيقولون فى الأمثال «إن كان لك عند الكلب حاجة قول له يا سيد» أو استخدام الرشوة فيقول المثل «ارشوا تشفوا» ، «البرطيل شيخ كبير» . وقد يقولون بعض الأمثال التى يواسون بها أنفسهم عما يصيبها من أذى وظلم ، وربما تحمل هذه الأمثال روح الخضوع والذلة والمسكنة وإراقة ماء الوجه وما إلى ذلك من ألوان الاستسلام والركوع للحاكم ، ولكنها فى حقيقتها لا تؤدى إلا إلى التذرع بالصبر أو التسلية والأمل فى المستقبل ومن ذلك المثل الذى يقول «ضرب الحاكم شرف»

ولكنه وهو يقول ذلك يسخر من هذا الفعل ويمقته . إن هذه الصورة السيئة من العلاقة القائمة بين الحاكم والمحكوم دفعت المصرى إلى اعتبار الحاكم صنف آخر من الناس يختلف عنه وجعلته من ناحية أخرى لا يحافظ على مال الدولة ؛ لأنه فى الحقيقة هو مال السلطان وهنا يأتى دور الانتقام ؛ لذلك نظر إلى المال العام نظرته إلى السلطان كلاهما شر ، فإذا حانت الفرصة للانتقام استغلها لذلك نراه يطلق على المال العام «المال السايب» .

وإذا كانت هذه طبيعة الحاكم مع الشعب فإن الشعب فى كل وقت يرى فى زوال الحاكم إشباعًا لرغباته الدفينة ومن ثم يرى الموت أحد الحلول الحسنة للتخلص منه ، فالموت قد يكون أحد الأسلحة التى تعمل لصالح الشعب يقول المثل «الأسد الميت ينتفوا له شنبه» ولئن كانت هذه حيلة الضعيف فإن التجربة قد أكدت هذا لمن ضاقت أمامه السبل .

والمصرى يعرف أن الحاكم لا يمكن أن يصل إلى هذه القوة إلا عن طريق السلطة والإدارة . فالحاكم هو الذى يدير شئون البلاد . فى يده السلطة التى تمكن له من فرض إرادته على كل الناس وفى كل الظروف . إن إحساس المصرى بذلك وتجربته جعلته يعتقد فى هذه الوسائل التى تتيح له أن يمارس السلطة

لذلك تراه يفضل العمل الحكومى لأنه يمنح صاحبه القوة والمنعة ويضفى عليه العزة والسطوة وفى ذلك يقول فى أمثاله «المنصب روح ولو كان فى المسكة» أو يقول : «إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه»[1] يؤكد ذلك ما يقوله دكتور جمال حمدان من أهمية وجود جيش من الموظفين تفرضه طبيعة الحياة المصرية «وتصبح الحكومة أكبر صاحب عمل فى البلد ويكاد يتحول المجتمع إلى مجتمع حكومى ، ولما كان الجهاز يمثل السلطة والقوة من ناحية وكان نصيب البروليتارية المنسحقة هو الكبت والاستبداد من ناحية أخرى فإنه يكتسب جاذبية نادرة ويصبح «للميرى» قداسة وبريق تجعلانه جنة التصعيد الاجتماعى[2] .

على أنه ينبغى ملاحظة أنه لم تكن هناك عزلة تامة بين الحاكم أو الحكام وباقى الناس . إن هذه العزلة يمكن أن تكون موجودة بين الحكام والطبقات الدنيا التى تتحمل فى كل الأوقات

---

(١) يقال أن الأعمال الأخرى فى الشركات أو القطاع الفردى كانت مملوكة للمستعمرين وتابعيهم من طبقة المستغلين الأجانب ولم تكن الوظائف فى هذه الشركات تخضع لقانون يحمى الموظف ؛ لذلك كان عرضة للطرد والتشرد فى أى وقت ففضل الناس العمل الحكومى ؛ لأنه مورد مأمون رغم قلته .

(٢) شخصية مصر دراسة فى عبقرية المكان - د . جمال الدين حمدان ص ٧٩ - كتاب الهلال يوليو سنة ١٩٦٧ .

وتحت كل الظروف ألوان الضغوط المباشرة وغير المباشرة التى تقع على مستوى الوطن . .

فالحاكم الذى لم يكن يترك الشعب لكى يعبر عن حريته «ويتدرب لكى يعرف حقوقه ويمارس معرفتها ويستوعب شروطها وواجباتها والذى لم يكن يحس بمشاعر الشعب وأحاسيسه ولا يعرف إلا ممارسة الظلم والتفنن فى استخدامه ولم يكن يثير اهتمامه كيف يعيش الشعب ومشاكله والذى تولى حكم مصر ولم يكن من أهلها طوال عصور التاريخ منذ آلاف السنين . هذا الحاكم قد دفع الناس إلى محاولة إرضائه بكل الوسائل لدرء بطشه وظلمه فمالوا إلى التعبير عن ذلك فى أمثالهم فهم فى بعض الظروف يرون أن التودد إلى الحاكم يعفيهم من ظلمه فيقولون «الحيا سنه ومسح الجوخ فرض» ويقولون فى المثل «اسجد لقرد السوء فى زمانه وداريه ما دام فى سلطانه» أو «إذا دخلت بلد تعبد عجل حش وارمى له» أو «إذا دخلت بلد احلف بإلاها» إن مثل هذه الأمثال تعكس النظرة الشعبية للحاكم كما تعكس الظروف التى تتحكم فى طبيعة الشعب وتسيطر على تفكيره . .

ومما لا شك فيه أن هذه الأقوال قد ولدت المناخ الذى يناسب الحاكم لكى يحكم قبضته ويزيد من سطوته على اعتبار ما

يراه من نفوس ضعيفة تدفعه إلى أن يكون «فرعون» ؛ لأنه لم يجد «حد يرده» ولننظر إلى مجموعة أخرى لنرى وسيلة الناس إلى الحاكم وطبيعة مواقفهم . فالمصرى لا يحب أن يتحمل المسئولية بمفرده إنه يرى فى ذلك كثيرًا من الأخطار الذى تتهدد حياته وبالتالى تمزق أسرته فهو لا يريد أن ينفرد برأى كما لا يريد أن يطلق العنان لحريته وكفاءته لأنه يرى فى ذلك كارثة محققة يقول فى أمثاله «حط راسك فى وسط الروس وادعى عليها بالقطع» أو يقول «اربط الحمار مطرح ما يقول لك صاحبه» أو يقول «أنا أول المنطاعين وآخر العاصين»[١] فهو كالعسكرى يتعين عليه أن يطيع الأمر ومن هنا تشكل الناس على نمط سلبى لا يقول ولا يرى ولا يسمع ومن هنا يقول فى أمثاله «يقول المستخدم لا أرى ولا أسمع ولا أتكلم» . . .

ولكن لم يكن الوضع كذلك مع فئة محدودة من الناس كانت تعيش على هامش الحياة الحكومية وتسير فى ركاب الحكام إن مثل هذه الفئات وهى قلة قليلة لها أمثالها التى تعكس طبيعة حياتها التسلقية أو معيشتها الطفيلية . لقد كانت تعيش على

---

(١) يقصد بالمطاع هنا المطيع فهو يريد أن يقول : إننى أول الذين يطيعون الأوامر وآخر الذين يخالفونها فليس لى رأى ، ولو كان ذلك فليس لدى الرغبة فى أن أخالف الأمر .

موائد الحكام وتحيا من فتاتهم ؛ لذلك ظهرت الأمثال التى تعبر عن ذلك الوضع فقال المثل «اللى ياكل عيش الأمير يضرب بسيفه» أو يقول «اللى يتحامى فى غزيه تحميه» أو يقول «أكل الملوك شرف ما هواش علف» إن مثل هذه الطفيليات الاجتماعية ترى أن حياتها مستمدة من حياة الملوك والحكام وهم لا يعيشون عيشة كريمة أساسها العمل والشرف ولكنهم يعيشون عيشة وصولية فهم يقولون فى أمثالهم «اللى تجيله المصايب يدق الأبواب العالية» أو «إذا ابتليت بالشحات عليك بالباب العالى» أو يقولون فى آداب السلوك فى بيوت الحكام والأمراء «اللى يخش بيت الأمارة يخيط بقه بدبارة» . .

وهناك من ناحية أخرى بعض الأمثال التى تعبر عن ظروف الحكام ونظرتهم إلى الرعية وهى تعكس أيضًا بدقة طبيعة الحاكم ومكوناته الفكرية ، فالحاكم يظلم ويضطهد ويسىء ذلك لأنه إذا مال إلى العدل فقدَ سيطرته على الرعية . إن الحاكم يحس بمثل هذا الإحساس ويعبر عنه المثل فيقول «إذا عدل الحاكم جارت الرعية» أى أنه إذا مال إلى الحرية والمساواة والعدل جارت الرعية وأساءت استخدامها أو يقول «اضرب البرىء حتى يعترف المتهوم» . .

إن مثل هذه المفاهيم تعكس بطبيعة الحال روح الشك

المتبادلة بين الحاكم والمحكوم وتشير إلى أن العلاقات لم تكن حسنة أو علاقة احترام ؛ لذا كان الحاكم يعتقد أن هذه السلطة لا يمكن أن تدوم له طويلاً فمال إلى النهب والظلم وكانت حياته تنتهى فى الأغلب بالقتل أو بالطرد أو بالنفى وغير ذلك ، لذلك قال فى أمثاله «ابن الحاكم يتيم» فهو لا يأمن غدرات الزمان وسرعة تقلبه . .

حقيقة إن هناك بعض الأمثال التى كانت تضع أمام الحاكم الأصول التى ينبغى أن يسير عليها وهى مبادئ سهلة وواضحة ولا تحتاج إلى فلسفة ولكن الحاكم كان فى واد آخر تحوطه مجموعة من المنتفعين تعزله عما يحس به الناس والمجتمع ومن هذه الأمثال «إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع» ، «إصلاح الرعية أنفع من كثرة الجنود» ، «حكم البلد على تلها»[١] إن مثل هذه الأمثال تضع أمام الحاكم صورة لما ينبغى أن تكون عليه الأداة الحاكمة حتى تستطيع أن تدير شئون الحكم بدقة وكفاءة . .

---

(١) أى لا يضبط أمور القرية إلا شيخها أى حاكم يكون من أهلها ؛ لأنه أعرف بصالحهم ومصالحهم وأخبر بأمورهم بخلاف الحاكم الغريب فإنه لجهله بهم لا يستطيع ضبط أمورها استطاعة الأول وعبروا بالتل ؛ لأنه عادة موضع جلوس مشايخ القوى لارتفاعه - الأمثال العامية - أحمد تيمور - حرف الحاء .

الطبقات والفوارق الاجتماعية

إن الباحث عن تكوين الشعب المصرى يجد أنه ينقسم إلى طبقتين إحداهما الطبقة الحاكمة والأخرى الطبقة المحكومة وبين هاتين الطبقتين لا توجد طبقات بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان . قد تتواجد عناصر ووحدات صغيرة ولكنها لم تكن ذات ثقل فى الحياة المصرية وفى تكوين الطبيعة المصرية ، والواقع أن هذا التكوين لم يكن وليدًا حديثًا ولكنه ما زال منذ عصر القدماء المصريين ؛ حيث تميز المجتمع إلى طبقتين إحداهما الطبقة الحاكمة ممثلة فى الملك وأتباعه وباقى الشعب الذى يمثل الأيدى العاملة أو القوة المنتجة فى المجتمع ، ولقد كانت الطبقة الأولى تتمتع بكل شيء وكانت الثانية لا تتمتع بشىء يقول أدولف ارمان : «الأرض الزراعية ، كان جزء منها فى يد الدولة والجزء الآخر فى يد الكهنة وكان يشتغل فيها فلاحون أرقاء أما الطبقات الدنيا فقد كانت تتألف على الأخص من العبيد والرقيق والطبقات العليا من الموظفين الذين يعملون فى خدمة الدولة أو المعابد وبين هاتين الطبقتين لابد من أنه كانت توجد طبقة متوسطة تتكون من العمال والتجار ولكن لم يكن لهم شأن كبير ، على أن هناك حقيقة تظهر واضحة جلية لنا حتى الآن وهى أن

الإدارة السيئة التى كانت تتميز بها مصر واستمرت حتى قبيل وقتنا الحاضر ، ثم إسراف الطبقات العالية والفقر المدقع فى الطبقات الدنيا كل ذلك يرجع تاريخه إلى القدم فإن الملك رمسيس الثالث الذى كان يعطى لأتباعه فى معابد طيبة بمفردهم عشرة آلاف كيس من الغلال فى كل عام هو نفسه الذى لم يكن يستطيع فى معظم الأحيان أن يرسل خمسين كيسًا فى الشهر لعماله فى الجبانة أولئك الذين كانوا يتضورون جوعًا . فعبارات النصوص الطنانة عن قوة الملك وثرائه تطرز حواشيها بذلك الشرح المحزن الذى يتحدث عن أنهم يجوعون ولا يعطى لهم ما يأكلون» [١] .

هذه الصورة تعبر عن حقيقة المعيشة التى كان يحياها الشعب المصرى وتكون على أساسها البنيان الاجتماعى والفكرى . لقد كان هناك طبقتان بينهما ما يشبه العزلة المتولدة عن الشك وعدم الثقة والتسلط من إحداهما على الأخرى ويؤكد هذه الحقيقة العقاد فيقول «ومما لا شك فيه أن الحضارة المصرية كانت ، منذ عهد عهيد حضارتين متجاورتين إحداهما لأصحاب السيادة والأخرى للمسودين الخاضعين وقد

(١) مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة - أدولف ارمان ، هرمان رانكة - ترجمة د . عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال - ١٢٨ ، ١٢٩ .

زعم بعض المؤرخين أن السادة والمسودين كانا جنسين مختلفين وعنصرين مستقلين وحديثًا رأينا أن ذوى السيادة من المصريين كانوا من بلاد شتى وأجناس عديدة بعضهم ترك وبعضهم عرب وبعضهم غرباء من صنائع الفريقين وبعضهم مصريون من أصحاب النباهة واليسار ويجب أن يحسب لذلك حسابه فى اختلاف المشارب والأخلاق وتباين الميول والملكات[(١)] . .

على أنه ينبغى ملاحظة أن الطبقة الأولى بمرور الوقت واختلاف العصور كانت تأخذ فى الامتزاج بالطبقات الشعبية حتى تتلاشى وعندئذ تتولد طبقة أخرى من الحكام وافدة وغريبة عن هذا المجتمع فتقوم بممارسة الدور السابق على مسرح الحياة المصرية وهكذا ، والواقع أن هذه الدورة التى لا تنتهى والتى ظلت تعيش فى الحياة المصرية آلاف السنين قد رسبت مجموعة من القيم التى أصبحت من مكونات العادات المصرية ، وهذه المفاهيم الطبقية ما زالت موجودة حتى أيامنا هذه ، وهذا ما دفع الرئيس عبد الناصر إلى أن يقول فى إحدى خطبه «القيم اللى كانت موجودة لا زالت موجودة ما اتغيرتش والقيم لم تستقر بعد وده طبيعى . العلاقات القديمة اللى موجودة لا زالت رواسب العلاقات القديمة الإقطاعية والرأسمالية موجودة طبعًا الأمثلة

---

(١) سعد زغلول - عباس العقاد - ٢٧ .

القديمة اللى أخذناها وسمعناها وبنقول تذويب الفوارق بين الطبقات ، بيقول لك إزاى «ده العين ما تعلاش على الحاجب» طيب إيه دخل ده . ما في علاقة بين الموضوعين أبدًا دى حاجات إحنا وارثينها عن الماضى وآلاف السنين ومئات السنين بيتناقلها ابن عن أبوه[(١)] . .

إنه لمن المدهش حقًا أن توجد كثير من الأمثال التى تمثل الحواجز الطبقية وهى أمثال تتسم باليأس والسخرية والقنوط منها «اللى يبص لفوق يتعب» أو «اللى يبص لفوق توجعه رقبته»[(٢)] ، «رايح فين يا زعلوك بين الملوك»[(٣)] ، «أبو معيكه عاوز يبقى زى الأمارة»[(٤)] ، «اللى أمه الطين وأبوه اللياسة منين تجى له الكواسة» ، «إيش جاب التين للتنتين وإيش جاب الترعة للبحر الكبير وإيش جاب العبد لسيده قال لده طلعه ولده طلعه» ، «إيش

---

(١) من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى مجلس الأمة فى ١٢/١/١٩٦٤ .

(٢) من نظر إلى من هو أعلى منه مقامًا وأحسن منه حالاً لا يجنى إلا تألم نفسه - الأمثال العامية - أحمد تيمور - حرف الألف .

(٣) الزعلوك محرف عن الصعلوك والمراد به الفقير الرث الثياب . أى أين تذهب يا من هذه صفته بين الملوك - الأمثال العامية .

(٤) لهذا المثل قصة مشهور فى كتاب هز القحوف ص ١٨ - ٢٠ ورد فيها أن فلاحًا عند أمير من الأمراء رأى سيده يغازل زوجه بالزهر فأراد أن يحاكيه محاكاة عمياء فرجم زوجه بحجر فأدماها - حدائق الأمثال العامية - ١/ ٦٠ .

عرف الحمير بأكل الجنزبيل» ، ومن الواضح أن هذه الأمثال تعبر عن طبقة الخاصة الذين يسوءهم أن يتساوى معهم من هم فى الطبقات الدنيا لذلك فقد صاغوا أفكارهم فى أمثال تعبر بالضرورة عن تفكيرهم وهو تفكير يتسم بالذكاء والاستعلاء ويستخدم فى ذلك ألوانًا من السخرية والإيحاء باليأس يدلنا على ذلك طريقة صياغتها وأسلوب المثل فى الصياغة ، فهو مصوغ غالبًا بأسلوب الاستفهام الإنكارى فهذه الطبقة تنكر على غيرها أن تقاربها أو أن تتشبه بأساليبها وعاداتها وهو أسلوب من أساليب الصراع الطبقى يستخدمه أصحاب الطبقة الخاصة لمقاومة غيرهم . .

والمجتمع يتحدث كثيرًا عن الأصول وهو حينما يتحدث عن ذلك يشير إلى أهميتها فى المفهوم الشعبى فالأصول هى التى تحدد السلوك الذى يتخذه الإنسان فى مجتمعه كما تحدد الموقف الذى يتخذه المجتمع من الشخص ، وإذا عرفنا أهمية هذا التفكير فى السلوك الاجتماعى لا ندهش إذا وجدنا مجموعة كبيرة من الأمثال الشعبية التى تصوغ مختلف المفاهيم والنظرات ، فالمجتمع يهتم بأصل الإنسان فهو يمجد سليل الأصول الحسنة ؛ ذلك لأنه يمثل السلوك الحسن فى مجتمعه ويمقت الخسيس سليل الأصول الرديئة ؛ لأنه يمثل الانحطاط

والسوء . فالإنسان إذا تربى تربية حسنة وفى بيت معروف انعكس هذا على سلوكه الاجتماعى أما الذى عاش فى بيئات هابطة وتربى فى أصول رديئة انعكس هذا أيضًا على سلوكه وتأثر به المجتمع «الأصيل يحلف ويصدق والخسيس يحلف ويتكدب» ؛ ذلك لأن المجتمع يراقب هذا وذاك وهو يجزع إذا انعكس الوضع فيعبر عن ذلك فى المثل «الأصول ضاعت» . فالمعروف أن الإنسان وليد التربية فإذا كانت بيئته رديئة ظهر ذلك عليه ويعبر عن ذلك المثل «الأصل الردى يردى على صاحبه» فبيئة الإنسان الأولى وتربيته الأولى وهى ما يعبر عنها المثل بالكلمة «أصل» تكون الأساس فى السلوك «الأصل يرد على صاحبه» أو «إذا غاب عليك أصله فتش على فعله» أو «أصله ينبى عنه» أو «الأصيل قلبك معاه متريح» أو «الأصيل ما يعبش» أو «الأصيل يتنخى والندل لا» أو «الأصيل يجود» أو «العشرة ما تهونش إلا على قليل الأصل» . . .

هذه النماذج تشير إلى أهمية البيئة الأولى ، فهى الأساس فى العلاقات الاجتماعية ؛ ذلك لأن الإنسان بعد أن يكون قد امتزجت حياته بالتربية الأولى يكون من العسير - إن لم يكن من المستحيل - أن يتغير ، لذلك وجدنا الأمثال تهتم بهذا «الأصل» وتتحدث عنه كثيرًا وتهتم بالمقارنة بين الأصيل وبين غيره كما

تحفل بامتداح أولاد الأصول وتهجوا أولاد النذالة الذين تربوا فى البيئات الهابطة . على أن المرء ربما تربى فى بيئات سيئة ولكنه فاضل فى حياته الاجتماعية . إن الذى يهتم به المجتمع هو السلوك الاجتماعى الحسن سواء كان هذا السلوك نتيجة التربية الحسنة أو تولد فى بيئة سيئة يعبر عن ذلك المثل بقوله «فخر المرء بفضله أولى من فخره بأصله» . .

والحديث عن الأصول يرتبط إلى حد كبير بالحديث عن الطبقات فربما كان الإيحاء العام بالحديث عن الأصول مرتبطًا بالطبقة العليا من المجتمع يشير إلى ذلك المثل «أكل فوله ورجع لأصوله»[1] وربما كان المصدر الأول والأساسى لهذه الأمثال هى الطبقة العليا ؛ ذلك لما يشيع فيها من تقاليد وقيم فى آداب السلوك والتعامل تسمو بها عن طبقة الغوغاء أو الطبقة العامية من الشعب هذه القيم تتمثل فى الملبس والمأكل والسلوك الاجتماعى يؤيد ذلك ما يوحى به المثل السابق ، ربما كان ذلك صحيحًا إلى حد كبير بل وقد يدل على نوع من الاستعلاء الطبقى وهو أن الأدب والأخلاق لا تكون إلا عند أولاد الذوات

---

(١) الفول : الباقلاء ، أى لما أكل ما كان تعوده فى حاله الأولى رجع لما كان عليه وبدا ما كان يستره الجاه من خسة أصله - الأمثال العامية - أحمد تيمور - حرف الألف .

أو أولاد «الأصل» .كما أن الملبس الجيد والمسكن الحسن لا يصلح إلا للشرفاء أو أولاد «الأصل» .

والواقع أن الطبقة العليا لم تكن تخلو من العنجهية فى التفكير وفى النظرة إلى الشعب وأن كثيرًا من أمثالها تفيض بروح الكبر والاستعلاء وكأن الصفات الحسنى والسلوك الحسن لم يوجد إلا لديها . يقول المثل «اكرم ابن .الأمارة وابن الهيفة لأ»[1] ويقول «ابن فلان على سن ورمح» ويقول «الناس مقامات» ويقول «لما أنا كبير وأنت كبير ومن يسوق الحمير» ويقول «اللى ياكله الكلب وينجسه يأكله السبع ويطهره» ويقول «اللى له ظهر ما ينضربش على بطنه» ثم هم يوهمون الناس بهذا المنطق ويكررون ذلك فى أمثالهم فيقولون «إذا عرفت اعرف الخيار تبقى من الناس الكبار» أو يقولون «اللى يسمع كلام كباره ياما يجرى له» أو يقولون «الميه تجرى فى الواطى» أو يقولون «عادى أمير ولا تعادى غفير» ؛ ذلك لأن الأمير سيعاديك بشرف أما الخفير وهو يمثل الطبقة الدنيا فإنه سيعاديك بخسة وخداع ومكر . إن الأمير فى عداوته يتخلق بأخلاق العزة أما الخفير فإنه سوف يستخدم كل وسائل الخيانة والتهور . والواضح أن هذه

---

(١) يضرب فى إكرام أبناء السراة والسادة لعزهم ومكانتهم وجدوى ذلك بهم وإغفال أبناء الدون من الناس لمهانتهم وذهاب إكرامهم عبثًا - حدائق الأمثال العامية - فايقة حسين راغب .

الطبقة تصوغ أمثالاً تعبر عن حياتها وتدل على واقعها الاجتماعى وتعكس تفكيرها الذى يسيطر عليه العظمة والاستعلاء . هذه الصورة لم تكن لتخفى على العامة من الناس فمنهم من لا يعترف بذلك ويقول «اللى يقول أبويا وجدى يورينا فعله» ومنهم من يحذر من إقامة علاقات مع هذه الطبقة فيقول «ماشى ندك وامشى على قدمك» ومنهم من كان يقاومهم ولا يعترف بكيانهم فيقول «مش كل من لبس الحرير بقى سيد» ولكن الزمن لا يدوم لأحد فربما انقلب بهم الحال فعندئذ يصوغون أمثالاً تعبر عن الأسى فمن «آخر الزمان تظهر أولاد الندولة وتزرع الأرض المجهولة»[1] أو يقولون «الغلب ما هواش عيب لما القضا اتحكم خليت للندل كلام وجبت اللى وراء قدام وخليت السيد خدام» ، ويقولون «النخالة قامت والعلامة نامت»[2] .

أو يقولون «القوالب نامت والأنصاص قامت» . ولا شك أن هذه الصور كانت تعكس آلام هذه الطبقة عندما تفر منها الدنيا أو عندما تهب عليها رياح الفقر .

---

(١) يضرب لسوء تقلب الزمن وأشراط الساعة - حدائق الأمثال العامية .

(٢) يروى « العلامة انكبت والنخالة قبت » والعلامة : الدقيق الحوارى والنخالة القشور الخارجة من الدقيق بعد نخله ويضرب فى إهمال الأصيل المستحق والعناية بالدون الخسيس أى ارتفع السافل وانحط العالى - الأمثال العامية - أحمد تيمور .

الفقير والغنى

إن نظام الحكم فى مصر منذ القديم اعتمد على طبقتين إحداهما الطبقة الحاكمة وأشياعها والأخرى طبقة الشعب ، وخلق بالضرورة لونين من الحياة الاجتماعية فى مصر أحدهما حياة الترف والعز والآخر حياة الفقر والذل ، وبمعنى آخر فقد تولد عن هذه الحياة الغنى المترف الذى أكسبه ما له قيمة اجتماعية ، والفقير الذى أكسبه حاله ذلاً اجتماعيًا . والحق أن استئثار الحكام بالثروات دون عامة الشعب كان يستتبعه فى بعض الفترات رد فعل كان يتمثل فى بعض الانتفاضات الشعبية وهى ثورات فردية سريعًا ما تخبو وتعود الحياة إلى طبيعتها الأولى . لقد وصف الجبرتى إحدى ثورات الجياع فى تاريخه فقال : «فى منتصف المحرم سنة سبع ومائة وألف اجتمع الفقراء والشحاذون رجالاً ونساء وصبيانًا وطلعوا إلى القلعة ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع فلم يجبهم أحد فرجموا بالأحجار فركب الوالى وطردهم فنزلوا إلى الرميلة ونهبوا حواصل الغلة التى بها ووكالة القمح وحاصل كتخدا الباشا وكان ملآنًا بالشعير والفول وكانت هذه الحادثة ابتداء الغلاء وحصل شدة عظيمة بمصر وأقاليمها وحضرت أهالى القرى والأرياف حتى امتلأت بهم

الأزقة واشتد الكرب حتى أكل الناس الجيف ومات الكثير من الجوع وخلت القرى من أهاليها وخطف الفقراء الخبز من الأسواق ومن الأفران ومن على رءوس الخبازين ويذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصى حتى يخبزون بالفرن ثم يعودون[(١)] «هذه الصورة كانت تتكرر كثيرًا ولم يكن هناك قانون يحمى المحكوم أو ينظم العلاقة بين الغنى والفقير وعلى أساس من العدل . ومن هنا فاضت الأمثال الشعبية برصد صور وأحوال الفقراء فالمثل يقول «الأرض فرشه والسما غطاه» ويقول «الجوع ما بيخليش مرابط» ويقول «المفلس غلب السلطان» ويقول «المفلس فى أمان الله» ويقول «الكسبه عند الفقرا حلاوة»[(٢)] أو «الكرشة عند المقلين زفر» ولا شك فى أن هذه الأمثال تشير إلى مدى ما كان يعيشه الفقراء فى حياة تشبه حياة فقراء الهنود ، وحتى المطالب الأولى عند الإنسان وهى القوت لم يكن من السهل الحصول عليه . إن هذا

---

(١) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - الجبرتى - ط المطبعة العامرية الشرقية ١٣٢٢هـ ج ٢٧/١ .

(٢) الكسبة : ما يبقى من الثقل بعد عصر السمسم وإخراج زيته تباع للصبيان فيستطيبونها والمراد أنها عند الفقراء مما يتفكه به كما يتفكه غيرهم بالحلوى . يضرب فى أن التافه عند الناس عظيم عند غيرهم بحسب أحوالهم فى الغنى والفقر : الأمثال العامية - أحمد تيمور - حرف الكاف .

التكوين الاجتماعى قد حول الشعب إلى شعب من الجياع أو كما يقول الرئيس جمال عبد الناصر مجتمع النصف فى المائة . ولقد أشار لين إلى طبيعة هذا الفقر وأسبابه فقال : «لا تزال الطبيعة تجود بنعيمها على سكان وادى النيل كما كانت فى قديم الزمان ، غير أن المصريين لم يعودوا ينعمون لعدة أجيال بحكومة مستقرة ، فكان كل من الولاة المتعاقبين فى هذه المدة الطويلة يعمد إلى تنمية ثروته الخاصة لعدم توطد ولايته ، وهكذا هلك بالتدريج كثير من المصريين وقضى على الباقين أن يعيشوا فى عوز اليم ، وإذا كان عدد الذكور من السكان يكاد يزيد على القدر اللازم لزراعة الأراضى التى يغمرها الفيضان أو يسهل ريها بالوسائل الصناعية كان عدد الذين يحترفون الصناعة فى هذا البلد شديد القلة نسبيًا ولا تنم أعمال المصريين عن براعة كبيرة لقلة التنافس وعدم تشجيع الأغنياء[١] .

إن مثل هذه الأحوال كانت تترك صورًا سيئة لنفسيات الناس فقد كانت كالمعاول التى تهدم مشاعر الناس يغذى ذلك مجموعة كبيرة من الأمثال التى تصور الفقير فى أسوأ الأحوال وتسخر من وضعه الاجتماعى منها «خلقته لركبته وعشره فى خدمته» ، «فقراء ويمشوا مشى الأمرا» «الفقير ريحته وحشة» ، «الفقير

---

(١) المصريون المحدثون - إدوارد لين - عدلى نور - ٢٢٨ .

صيغة الغنى» ، «إذا لقيت عريان ما تسألوش على هدومه» ، «فقير ونقير» ، «بعد ما كان بينام على المصطبة نجدله لحاف ومرتبة» ، «بياكلوا بصار ويتقلدوا من الناس الكبار» ، « يربطوا حمارهم جنب حمار العمدة» ، «الفقير يقول قرش يجى له كرش» . .

على أن هناك مجموعة أخرى من الأمثال تعكس الوضع الاجتماعى للفقير . فالفقير فى مجتمعه لا يستطيع أن يفعل شيئًا «فقر المرء فى وطنه غربة» ، «الفقر خزام العتريس» والفقير يرتبط بالطبقات الدنيا فى سفح الكيان الاجتماعى فليس له أثر أو وزن «الفقير لا يتهادى ولا يتدادى ولا تقوم له فى الشرع شهادة»[1] ، «للى ياكل فول يمشى عرض وطول واللى ياكل كباب يبقى وراء الباب» . «اقتل الفقير ولا تمزع ثوبه» . .

ومثل هذه الأحوال قد دفعت الناس إلى أن تفاضل بين الغنى والفقير فالغنى يكتسب العزة والمنعة «والفقير ريحته وحشة» وقد دفع هذا الوضع بالفقير إلى أن يكون فى خدمة الغنى وتحت أمره «إذا رأيت الفقير بيجرى أعرف أنه بيقضى حاجة للغنى» والمجتمع لا يعترف بحق للفقير يقول «الفقير قال الفار قرض

---

(١) يدادى أى يداده ويتلطف معه ، والمراد بيان إهمال الناس لشأن الفقير - الأمثال العامية - أحمد تيمور - حرف الفاء .

الخشب قالوا له كداب والغنى قال الفار قرض الحديد قالوا له صادق» ، «الغنى شكته شوكة بقت البلد فى دوكه والفقير قرصه تعبان قالوا اسكت بلاش كلام» ، «غنى مات جروا الخبر فقير مات ما فيش خبر» ، «الغنى إذا أكل حية قالوا من حكمته وإذا أكلها الفقير قالوا من حمريته» ، «طلب الغنى شقفه كسر الفقير زيره» ، «الغنى غنوا له والفقير منين نروحوا له» ، «إذا مشيت على قبر الكبار اسرع عضم الكبير فى القبر يجرح» ، «السعيد كل الناس تخدمه» ، «السعد وعد» ، «خذوا من فقرهم وحطوا على غناكَم» . .

إن الذى كان يتحكم فى المجتمع هو موضوع المال وما يمكن أن يضفيه على صاحبه لقد صور المجتمع المال على أنه «عصا سليمان» يستطيع أن يذلل كل الصعوبات التى تعترض طريق الإنسان فالمال وطن آخر لصاحبه «غنى المرء فى الوطن غربة» كما أنه - أى المال - يبعث على الثقة «ادى مالك للى عنده مال وادى ولدك للى عنده ولاد» . .

السادة والعبيد

والحديث عن الطبقات يستتبعه بالضرورة الحديث عن مختلف الظواهر الطبقية التى تسوده وتتحكم فى حركته ، وقد أشرنا إلى أن المجتمع المصرى تبعًا لظروفه التاريخية قد انقسم إلى مجتمع مكون من جزأين واضحين اتخذا صورًا مختلفة لعملة واحدة . قد يكون الجزءان هما الحاكم والمحكوم وقد يكونان الغنى والفقير وقد يكونان السادة والعبيد . إن هذه الصورة فى الواقع لا تختلف ، وإن اتخذت مسميات مختلفة . فالحاكم هو السيد وهو الغنى والمحكوم هو الفقير وهو العبد وليس هناك فرق كبير بين هذه وتلك فكل منها تؤدى إلى الأخرى بالضرورة . .

على أنه ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار إننا لا نعنى فى كلامنا ظاهر اللفظ بحيث يقال أن كل الفقراء عبيد أو كل المحكومين عبيد ، ولكننا لسنا نعنى بالعبيد كما يقول ظاهر اللفظ وهم الذين كانوا يباعون ويشرون أو كانوا سود البشرة . إننا نعنى ذلك أن حياة الفقراء لم تكن تختلف عن حياة العبيد فى شيء ، كما أن الوضع الاجتماعى والنظرة الطبقية لم تكن تفرق بينهما كثيرًا . والناظر إلى الأمثال السابقة «الخاصة بالغنى والفقير» لا يمكن أن

يعزل الفقراء عن العبيد كما أن النظرة إليهم لم تكن تختلف كثيرًا فالمثل «الفقير لا يتهادى ولا يتدادى ولا تقوم له فى الشرع شهادة» وغيره يعكس الوضع الاجتماعى للفقير والذى لا يختلف كثيرًا عن الوضع الاجتماعى للعبد ، لقد كان الفقير محرومًا من كثير من العزة الاجتماعية تمامًا كما يحدث مع العبيد . ومن هنا كان الحديث عن الفقير والغنى يحتاج إلى نظرة أخرى من زاوية السادة والعبيد لنرى كيف ينظر المجتمع إلى هذه الفئة التى كانت تمثل وضعًا اجتماعيًا ظاهرًا . . .

لقد عبر المثل عن هذه الطبقة بمختلف الصور بحيث يستطيع الباحث فى الأمثال أن يرى صورة حقيقية لوضع هذه الفئة اجتماعيًا . والحقيقة أن الأمثال كانت تقوم بدور المسجل الأمين للعلاقات الاجتماعية فى كل صورها . فالمثل يحدثنا عن أن العبد ليس له فى حياته إلا سيده ولا يمكن أن يفترق عنه إلا بالموت أو العتق «يا يموت العبد يا يعتقه سيده» فحياة العبد لها طريقان ليس لهما ثالث الموت أو العتق . .

على أن هناك مجموعة كبيرة من الأمثال تبرز حقيقة الوضع الاجتماعى للعبيد ومدى ما يحيط بهم من ذل اجتماعى واستعلاء كان يمارسه السادة ، من ذلك «العب مع العبد يوريك شقه» أى إنك إذا تنازلت وتواضعت مع العبد فإنه سوف يريك مايسوءك

ذلك لأن السوء ملازم له والشر فى ركابه وكأنه من طينة أخرى غير طينة السادة . ومن ذلك «ابعت الخدام للسوق والحقه» ، «ما التقاش العيش ينتشه جاب له عبد يلطشه» ، «زى العبد تناه على ظهر إيده» ، «اعملنى عبد واشترينى» ، «شرا العبد ولا تربيته» ، ولقد صور أحد الأمثال طبيعة الوضع الخاص بالعبيد فقال «طنبورة العبد تسليه على حاله» إن المجتمع يعرف معيشة العبد وكلها بؤس وضنك لذا فهو يلجأ إلى الطنبور يفرغ فيه همومه .

والسادة يعتقدون أن الخدمة وقف على العبيد والخدم وهذه لازمة من لوازمهم ، وإذا حاول أحدهم أن يتخلص منها استنكروا هذا الوضع واعتبروه من الأوضاع الشاذة التى يجب السخرية منها والتندر بها فطبقة العبيد لم تخلق إلا للخدمة ويعنون بذلك خدمة الأسياد والمثل يشير إلى هذا الوضع الساخر فيقول «جارية تخدم جارية قال دى داهية عاليه» إن مثل هذا الوضع لم يكن ينظر إليه على أنه وضع يمكن أن يكون طبيعيًا ولكن لم يكن يطيق السادة ذلك وكانوا يعتبرونه «داهية عالية» سوف تطبق عليهم وربما تضعف من سيطرتهم . . .

ومن ناحية أخرى فقد أشارت الأمثال إلى العلاقة التى بين السيد والعبد وهى علاقة قائمة على عدم العدالة فى المعاملة كما

أنها تشير إلى وجود افتقاد الثقة المتبادلة بين كليهما ومن ذلك «أعمل حاجتى بإيدى ولا أقول للعبد يا سيدى» ، «اطبخى يا جارية كلف يا سيد» ، «إذا كترت الخدامين كترت الشيياطين» ، «حسنه يا سيدى قال سيدك بياكله بقشره» ، «قالوا للعبد سيدك راح يبيعك قال يعرف خلاصه قالوا تهربش قال اعرف خلاصى» . .

إن الصورة التى رسمتها الأمثال لهذه العلاقة تؤكد أنها لم تكن علاقة عمل بحيث تدخل فيها الإرادة الحرة والرغبة المتبادلة بين الطرفين ، ولكنها كانت علاقة مبنية على العبودية باعتبار أن العبد كالحيوان أو كالآلة الصماء فهو إذن عديم الإحساس عديم المشاعر من طينة أخرى تختلف عن طينة الأسياد . هذه الصورة قد دعمتها مجموعة من الأمثال الصادرة بلا شك عن هذه الطبقة نفسها لكى تؤكد سيطرتها وسطوتها على فئة العبيد والمستخدمين ، ولا شك أن هذه الطبقة من الأسياد اندفعت إلى ذلك بتأييد اجتماعى كبير على المستوى الحاكم وغيره مما ساعد على إحكام سيطرتها وتأكيد سيادتها على مثل هذه الفئات المستضعفة قد خلق نوعًا من السمو الطبقى والاستعلاء الاجتماعى سيطر على التفكير طوال عصور التاريخ ولم يكن المجتمع المصرى فى ذلك يختلف عن غيره من المجتمعات ولكن ذلك كان من سمات الأوضاع القديمة . .

على أن هناك من كان يعتقد أن العبودية مرتبطة بالعمل والملكية فإذا انتفى هذان الشرطان أصبح الإنسان حرّا ولا سيطرة لأحد عليه فالعبودية ترتبط بالعمل والملكية ؛ لذلك يقول المثل «عبد ما هو لك حر مثلك» فقد احتفظ العبد بإنسانيته وآدميته فهى ملكه ولا سلطان لأحد عليه . . .

القضاء

ليس القضاء إلا إحدى وسائل الحكم المهمة لتنظيم العلاقة بين الناس من جهة وبين الناس والحاكم من جهة أخرى ، والمفروض فى القضاء أن يكون معبرًا عن الشريعة التى تحكم الناس على أساسٍ من العدالة والمساواة ، والمفروض فى القاضى الذى يمثل العدالة فى أسمى معانيها أن يكون محايدًا فى أحكامه لا يخضع إلا لحكم القانون والشريعة . هذه الحقيقة التى أقرها الدين وأقرتها العلاقات الإنسانية على مدى التاريخ البشرى لا تحتاج إلى فلسفة كبيرة . ولقد كان القاضى - وهو أحد الأدوات العامة التى كان الحاكم يسيطر بها على مقدرات الشعب - يمثل الحاكم أصدق تمثيل ، ولقد كان الوجه الآخر للعملة التى كان يتعامل بها الحاكم مع الشعب . وإذا كان الشعب قد فقد الثقة فى حاكمه لما كان يراه من مختلف ألوان الظلم والقسوة فقد كان هناك أيضًا القاضى الذى يقدم مختلف الأسانيد التى تسند الحاكم فى علاقته بالشعب . ولقد عبر «لين» عن انهيار العدالة فى عهد محمد على فقال «وكثيرًا ما تؤثر مكانة المتقاضين أو الرشوة فى حكم القاضى ويرتشى النائب والمفتى على العموم ثم يتناول القاضى نصيبه من النائب وقد يحكم فى القضية لصالح

الطرف الذى يدفع أكثر من الآخر وعلى الأخص عندما تطول ، فصرامة العدل لا تتحقق دائمًا ؛ لاستخدام المتقاضين الرشوة وشهادة الزور وقد يصعب الوثوق بالمدى الهائل الذى وصلت إليه عادة الرشوة وشراء شهود الزور فى المحاكم الإسلامية وقد يقتضى ذلك أدلة قوية تستند إلى سلطة لا ريب فيها»[1] . . .

هذا الوضع قد دفع الشعب إلى أن يحدد نظرته للحاكم وإدانة «القاضى» ، ولقد عبر الشعب عن علاقته بالقاضى بمجموعة من الأمثال التى توضح مكانة القانون فى نفوس الشعب فقال فى أحد الأمثال «كل شيء وله قانون» كما توضح موقف الشك وفقدان الثقة فى القضاء والتقاضى فقد عبر عن ذلك بقوله «يفتى على الإبرة ويبلع الميبر»[2] أو : «يفتى ع الإبرة ويبلع المدرة»[3] ويقول فى آخر «القاضى إن مد إيده كترت شهود الزور» لقد كان هناك دائمًا المال الذى تشترى به الذمم حتى فى القضاء ولقد كان هناك أيضًا شهود الزور الذين

---

(١) المصريون المحدثون - إدوارد لين - ترجمة عدلى نور ط ١٩٥٠ ص٦٣ ومن الواضح أن هذا الرأى منصب على محاكم الحظ وما أشبهها أما الأحكام الإسلامية فتخضع للقانون السمائى ولم يكن هناك شك فى عدالتها .

(٢) الميبر : الإبرة الكبيرة وتسمى المسلة .

(٣) المدرة : من أدوات الفلاح وتستخدم فى تذرية القمح لفصل التبن عن الحب .

يشترون ؛ ليقولوا ما يملى عليهم لتخريب الصورة الإنسانية للعدالة ، والقاضى كما يصوره الناس فى أمثالهم رجل لا يهمه إلا مصلحته الشخصية فهو شخص أنانى يسخر العدالة لتحقيق أغراضه وإن كان ذلك على حساب المصلحة العامة فيقولون «قالوا للقاضى يا سيدنا الحيطة شخ عليها كلب قال تنهدم سبع وتبنى سبع وقالوا دى اللى بينا وبينك قال أقل من الماء يطهرها» . لقد كان على استعداد دائم لأن يدوس على القانون ويستخدمه لصالحه ، ولقد تساءل الناس كثيرًا عن موقف القاضى من خصومه ماذا يقول فيهم ؟ وكيف يمكن أن يخدم العدالة إذا كان فى موضع الاتهام ؟ وكيف يكون متهمًا وقاضيًا فى وقت واحد . لقد صاغ الشعب هذه الصورة فى المثل فى صيغة الاستفهام الذى يحتاج إلى إجابة فقال «اللى القاضى غريمه لميت يشتكى؟» كما صاغ الشعب تعبيرات تشير إلى ضحايا المحاكم والقضاء فقال فى أحد الأمثال فى أسى «ياما فى الحبس مظاليم»[1] وقالوا لو كان القاضى ينصف الشاكى ما كان الشاكى رجع باكى» . . .

إن افتقاد الثقة فى القضاء لم تكن تدفع بالناس إلى اليأس والاستسلام للأحكام الجائرة أو ألوان الظلم ، ولكنهم فى كثير

---

(١) يقول تيمور فى تفسير ذلك « ما أكثر من يسجنون ظلمًا وهم أبرياء » - الأمثال العامية - حرف الياء

من الأحيان كانوا يقاومون ، خاصة إذا كان الحق فى جانبهم . إنهم يعترفون بأن «القادر عايب» ، «الدنيا لمن غلب» ولكنهم أيضًا يقاومون فى سبيل استخلاص حقوقهم فيعرفون أن «صاحب الحق نطاح» ويعرفون أيضًا المثل القائل «ما يموتش حق وراه مطالب» وينزعون إلى الحرية ويكرهون السجن فيقولون «يغور الحبس ولو فى بستان» كما يعرفون أن التفريط فى حقوقهم يؤدى بهم إلى المهانة فيقولون : «اللى يربط رقبته فى حبل ألف من يسحبه» . .

والناظر إلى هذه الأمثال يخرج بنتيجة ذات شقين تعبر فى وضوح عن روح المقاومة لدى هذا الشعب تلك الروح التى لم يكن يفقدها فى صراعاته مع المسئولين على كافة المستويات الشق الأول يشير إلى افتقاد الثقة فى القضاء الذى كان يعتبر الملجأ الأخير للناس فى نيل حقوقهم ، أما الشق الثانى فهو أن الشعب لم يكن يركن إلى التسليم أو التفريط فى حقه أو الاستسلام لما يجرى به القضاء بل كان يحاربهم بطريقة كشفهم فى مأثوراته والتحذير من ألاعيبهم والتنبيه الدائم لوسائلهم الخسيسة وفضح انحرافاتهم ، كما كان يقاوم ويناضل من أجل حقه وذلك عن طريق التصوير تارة والتحذير أخرى والسخرية ثالثة وغير ذلك . .

المقاومة

إن روح المقاومة لم يفقدها الشعب فى مواجهة الحاكم فنراه يدافع عن نفسه ضد الحكم فى كل صوره وهو يعتقد أنه سلطان نفسه فيقول «كل إنسان فى نفسه سلطان» ويقول «الضرب بالسيف ولا حكم العويل فى» فهو يفضل الموت بالسيف على أن يكون ذليلاً ويقول «القعدة ع الكوم ولا الحوجة للعدو يوم» كما يعرف أن الله قد ساواه بغيره من البشر ولم يفرق بين هذا وذاك وما هذه التفرقة إلا من صنع الإنسان فيقول «أبو جوخة أبو فله فى القبر يدلى» . ويقول «كلنا ولاد تسعة» ويقول «الأقرع حصل أبو تاج» ويقول «ربنا ما سوانا إلا بالموت» إن هذه تعكس بلا شك إحساس المصرى بعزة النفس وشعوره بذاته وإنسانيته التى يحاول الحاكم وأشياعه سلبه إياها . وإذا كانت ظروف الحياة قد فرضت - على غير إرادة الإنسان المصرى - مجموعات غريبة من الحكام والأشياع يفرضون الظلم ويمارسونه بكل الوسائل ، فإن المصرى الذى عرك هذه التجارب وجابه كل وسائل الظلم والاضطهاد ، هذا الإنسان يستطيع أن يجد ذاته ويدعمها ، وفى الوقت نفسه يستطيع بوسائله أن يجابه الظلم فيسخر منه تارة ويعريه أخرى ويقاومه ثالثة . فقد كان يستخدم

كل أساليب المقاومة ويتكيف تبعًا للظروف فهو يضع فى حكمته الشعبية الحقيقة القائلة فى المثل «العين ما تكرهش إلا الأحسن منها» فهو يرى أنه أحق ببلده ثم هو يفضل فى عزة وإباء أن يسكن العش على أن يعيش فى قصر يحكمه الذل فيقول «عش بيضحك أفضل من قصر بيبكى » ..

على أن المقاومة كانت تأخذ صورًا أكثر إيجابية وأشد عنفًا ، ورغم أن العنف لم يكن من الطباع المصرية إلا أن الأمثال لم تخل من نماذج تمثل الطبع المصرى على حقيقته ، إننا لا نستطيع أن نتفق مع بعض العلماء الذين يتهمون المصرى بالليونة وعدم الميل إلى الطعن والنزال ويعتقدون أن ذلك يخرج عن طبيعة المصرى الذى عاش عليها طوال عصور التاريخ ، يقول أدولف أرمان «يرى بعض المؤرخين أن المصرى فى عصور التاريخ الوسطى وفى الزمن الحديث لا يحفل كثيرًا بشئون الحرب كما يزعم هؤلاء المؤرخون بأنه إذا صادف نجاحًا مؤقتًا فى إحدى الثورات فإنه لا يلبث أن يمل الطعن والنزال إذا ما جد الجد ، ولذلك كانت الجيوش المحاربة تتألف فى أغلب الأحوال من جنود أجنبية مرتزقة . وقد لاحظ استرابون أن المصريين فى زمنه «وإن كانوا كثيرى العدد إلا أنهم كانوا لا يميلون إلى الحروب» ويعزى ذلك من جهة إلى اكتفاء البلاد

الغنية بمواردها ، ومن ناحية أخرى إلى عزلتها عن جيرانها الذين لم يتسموا هم كذلك بصفات حربية كبيرة . وإذا كان حكم استرابون إنما يتناول أحفاد ذلك الشعب الذى كان عظيمًا يومًا ما والذى قام بدوره التاريخى منذ أمد طويل إلا أن الروح الحربية لم تكن مع ذلك من طباع المصرى حتى فى أحسن عهود تاريخه . فالمصريون شعب من المزارعين وإذا كان المزارع ممن تعود العمل الشاق إلا أنه مع ذلك يؤثر الأحوال والظروف الهادئة التى تسمح له وحدها بأن يتمتع بثمرة عمله - أما السعى وراء مجد البطولة فليس من سجاياه»[1] ويقول فى مكان آخر من الكتاب «فتحت ضغط الضرورة استحال الفلاح المصرى المسالم بطبيعته إلى جندى يقوده أشهر الملوك الذين يمتازون بشخصياتهم وصفاتهم الحربية»[2] ، ويقول العقاد :

«الأمة المصرية ليست أمة بداوة تتوثب إلى الحرب ؛ لأنها باب الرزق وطريق السلامة من الجار المعتدى أو الجار الضعيف ، ولكنها أمة حضارة مستقرة ومعيشة منتظمة تلجأ إلى الحروب حين تلجأ إليها ؛ لأنها ضرورة لا محيص عنها ونكبة

---

(١) مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة - أدولف أرمان - د . عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال - ٥٩٨ .

(٢) مصر والحياة المصرية - أدولف أرمان - ٦٠٦ .

لا تستهين بها إلا اتقاء لنكبة أكبر منها وأصعب عاقبة من عاقبتها . وهى لا تطيع حكامها كما يطيع البدوى زعيمه أو كما يطيع العسكرى قائده : إلى الحرب يا رجال فإذا الرجال كلهم على أهبة القتال .

وإنما هى أمة توارثت العقائد والمأثورات جيلاً بعد جيل وأصبح لها من بعض تلك العقائد تراث تصونه فوق صيانة المصلحة وتغار عليه أشد من غيرها على المال والثروة ثم هى أمة ذات أرزاق مطردة ومعيشة مستقلة لا يعنيها صلاح الحاكم كما يعنيها صلاح الأرض والسماء والعوارض والأجواء فإذا دعاها الحاكم إلى حرب لا تعنيها فذلك شأنه وليس بشأنها وتلك خسارته وليست بخسارتها .

أما إذا أصيبت فى عقائدها وموروثاتها أو ظهر لها الجور على أرزاقها ومرافقها فهناك يستعصى قيادها كأشد ما يستعصى قياد أمة وهناك تصمد للحرب كما يصمد لها المقاتل المجبول عليها[١] .. ونستطيع أن نرى فى نص العقاد أن المصرى لا يذهب إلى الحرب إلا للضرورة التى لا محيص عنها ، فهو يذهب إليها للدفاع عن ذاته أو عقيدته أو وجد اعتداء مباشرًا على

---

(١) سعد زغلول - عباس العقاد - ١٩ ، ٢٠ - ط القاهرة ١٩٣٦م .

رزقه . والحقيقة أن الأمثال التى تعبر عن حقيقة التفكير الشعبى قد جاءت لتؤكد أن المصرى لم يكن يتقدم حقيقة نحو المنازلة إلا إذا أثير أو وجد اعتداء واضحًا وصريحًا عليه عند ذلك تأتى الأمثال لتعبر عن نفسياته فتقول : «اللى رشنا بالميه نرشه بالدم» أى أننا سوف نرد على الاعتداء بأشد منه أو «اللى يشخ عليك شخ عليه وأهى كلها نجاسة» أو يقول «افطر به قبل ما يتغدى بك» وذلك إذا رأيت أن ذلك فى صالح ظروفك وإمكانياتك . وعلى المصرى أن يستعد استعدادًا كاملًا لخوض المعركة وذلك بأن يستميت فى التدريب ، ويخلص فى التعليم عند ذلك يقول له المثل «العرق فى التدريب يوفر الدم فى المعركة»[1] وإذا كنت قد أكملت عدتك للمقاومة والحرب فالحرب هى التجربة العملية والميدان هو المكان الذى يوضح القيم الزائفة من القيم السامية . إن القيمة والمبدأ الذى يدافع عنهما الجندى ينبغى أن يكونا هما العامل المهم والحاسم فى المعركة ويقول فى ذلك المثل «عند الطعن يبان الفارس من الجبان» هذه الحقيقة يقولها المصرى فى أمثاله ويؤكد عليها ، فالشجاعة ثمنها كبير أما الجبن فنكبة ليست هينة .

---

(١) سمعت هذا المثل من أحد الجنود الذين عادوا من معركة يونيو ١٩٦٧ وهو جندى ريفى يقول أنهم فى الجيش يعلمون الجنود ذلك .

على أن هناك قيمة أخرى يؤكدها المثل ربما كانت هذه القيمة نتيجة عصور الفروسية التى تظهر فيها الأهمية العددية فى الحروب . إن القيمة العددية فى الحروب لا يمكن إغفالها حتى الآن فلها أهمية خاصة ولكنها كانت قديمًا تمثل الحقيقة الأولى فى الحرب يقول فى ذلك المثل «الكثرة تغلب الشجاعة» ، وليس معنى ذلك أن الشجاعة غير مطلوبة ولكنها تمثل أيضًا أهمية كبرى فى الحرب ، فالروح التى تتولد عن الشجاعة تستطيع أن تحول الهزيمة إلى نصر والمثل العامى ينادى بالثبات والشجاعة ويحذر من تسلل روح الضعف والانهزامية فيقول «الضرب بالطوب ولا الهروب»[1] .

---

(١) أحيانًا يبدأ المثل « بالزقل » وأحيانًا أخرى يبدأ « بالرجم » بدلاً من كلمة « الضرب » .

الغربة والاعتزاز بالوطن

من الصفات الواضحة فى الخلق المصرى حب الوطن والاعتزاز بالأرض والارتباط بها فى كل الظروف كما أنه لا يحب الغربة أو الارتحال ، ويرى أن الأرض التى خرج منها ورأى الحياة عليها ينبغى عليه أن يعيش فيها ويموت عليها ، وهذه الطبيعة مستمدة من البيئة الريفية المغلقة التى لم تخرج عن دائرة الأرض . يقول لين «ويعتبر حب المصريين لوطنهم وعلى الأخص مسكنهم صفة بارزة فى طباعهم ويخشى المصريون على العموم هجر مسقط رأسهم وقد سمعت الكثيرين يقررون السفر إلى الخارج بغية الكسب ولكن عزمهم يفتر عندما يقترب موعد السفر ، ولا شك أن هذا الشعور نشأ إلى درجة عظيمة من جهل الناس لحالة البلاد الأجنبية وسكانها»[(١)] ، ويبدو أن الطبيعة المصرية بما فيها من جو مشرق وأرض خصبة مع جهل شديد بطبيعة البلاد الأخرى كل ذلك قد ساعد على تقوية ارتباط المصرى بأرضه ، وقد عبر عن ذلك بقوله فى أحد أمثاله «بلدك تلك» أو قوله «عويل بلاده عويل بلاد الناس» . أو قوله «يا رايح

---

(١) المصريون المحدثون - إدوارد لين - ترجمة عدلى نور - ٢١٦ .

مصر على اسم باشا فيه ألف زيك» ، ولكن رغم ذلك فإن الصفة الغالبة على أمثالهم العامية الحث على السعى وراء العيش فى أى مكان والحث على الترحال لما فيه من فوائد تضيف إلى معلومات الإنسان خبرات كثيرة فيقول فى المثل «اللى يعيش يشوف كتير قال واللى يمشى يشوف أكتر» ويقول : «اترك بلادك تبلغ مرادك» ويقول «الغربة تعلم»[1] ، «بلاد الله لخلق الله» ، «البلاد بلاد الله والخلق عبيد الله» وقد يضع مختلف الخبرات أمام المغترب حتى يستطيع أن يعيش ويساير حياته الجديدة ويندمج فيها فيقول : «خد لك من كل بلد صاحب ولا تاخد من كل إقليم عدو» أو يقول «الغريب لازم يكون أديب»[2] ، «الغريب أعمى ولو كان بصير» ، وقد يسخر من الذى يغترب ولا يحسن استغلال غربته فيقول «غربة ودلاعة» أو يقول «ما نابه من غربته إلا عوجة ضبته» على أن المصرى الذى عاشر الغريب وعرف أنه لص كبير قد أتى ليسرق قوته وينهب خيراته لم يكن يحس نحوه إلا بالحذر المشوب بالحقد فيقول فى أحد أمثاله : «اقتل الغريب

---

(١) لأن الغريب لا أهل له ولا أصحاب يسترشد بهم فيضطر إلى الاعتماد على نفسه وتعلم ما يحتاج إليه فى أموره - الأمثال العامية لتيمور .

(٢) المراد بذلك أن يكون مؤدبًا حتى ينتفع بخلقه فى غربته ويحترمه الناس .

وعلى فؤاده لو كان فيه خير كان يبقى فى بلاده» إن المصرى يرى فى الغريب ذلك الأفاق الذى يجوب البلاد للسلب واللصوصية . . .

الأسرة فى المجتمع المصرى

الإقدام على الزواج عند المرأة

إن بناء الأسرة المصرية من أهم العوامل فى بناء المجتمع وتكامله . وقد «دلت البحوث التى قام بها علماء الاجتماع فى العصر الحديث على أن الأسرة هى أصغر وحدة اجتماعية . وقد كانت حاجة الإنسان الأول السياسية تنحصر فى شيئين : الحصول على الطعام ثم إشباع الغريزة الجنسية . لذلك كانت النظم الاجتماعية تهدف منذ القدم إلى تهيئة الموارد الاقتصادية والمحافظة على بقاء النوع[١] . ولقد اكتسبت الأسرة المصرية شأنًا عظيمًا واحتفى بها المجتمع احتفاء ضخمًا ؛ ذلك لأنها كانت الملجأ الأخير الذى يلوذ به الإنسان من

---

(١) عادات الزواج وشعائره - أحمد الشنتناوى ص ٦ - سلسلة اقرأ وتصدرها دار المعارف - العدد ١٦٩ .

اعتداءات الحاكم والغرباء ، فالمصرى الذى ظل طوال عصور التاريخ مضطهدًا ولم يحاول أن يحقق ذاته الوطنية لم يكن يجد أمامه ما يوجه إليه طاقاته ومشاعره الإنسانية غير الأسرة ، ومن ثم فقد تفانى فى سبيلها ، ولقد تمتعت الأسرة المصرية طوال عصور التاريخ بالاستقرار البيتى كما يقول العقاد : « نحن لا نستطيع أن نفهم كيف يكون المصرى محافظًا شديدًا فى المحافظة ثائرًا متأهبًا للتمرد - إلا إذا فهمنا حبه للأسرة وحبه من أجل ذلك للموروثات والتقاليد فهو محافظ كما تحافظ جميع الأسرات على تراثها ، وهو من أجل المحافظة على التراث مستعد للثورة أبدًا لصيانة موروثاته وتقاليده . إن المصرى لينسى كل شيء إلا وشائج الرحم وآداب الأسرة»[١] . .

فالأسرة المصرية فى الواقع هى محور العلاقات الاجتماعية ؛ لذلك فقد اكتسبت الأسرة مركزًا هامًا فى المجتمع واهتم بها وأصبحت محور التفكير اليومى ومدار الحوار فى كل مكان يقول دكتور يونس «المجتمع المصرى يقدس الأسرة ويكبر من شأن الزواج وهو على الرغم من الظروف الكثيرة التى مر بها فى تاريخه البعيد والقريب لا يزال يتشبث بهذا التقديس للأسرة والإكبار للزواج . . وهو من أكثر

---

(١) سعد زغلول - عباس العقاد - ط القاهرة سنة ١٩٣٦ .

شعوب الأرض نزوعًا إلى الاستقرار بصفة عامة والاستقرار العائلى بصفة خاصة والنموذج الذى أكده فى أساطيره القديمة وفى ملامحه وفى قصصه وأغانيه يقطع بأنه يؤثر سلامة الحياة الزوجية من كل تقلقل وكل اضطراب ويحرص على حمايتها من أى عنصر يفسدها أو يثيرها أو يعصف بها»[1] . .

وإذا كانت هذه هى صورة الأسرة فى المجتمع المصرى فإن بناءها لم يكن هينًا . فالأسرة تتكون فى صورتها الأولى من الرجل والمرأة ، وتكوينها يقتضى بالضرورة الدقة فى الاختيار من كلا الطرفين وهذه الدقة تأخذ صورًا مختلفة عندهما لاختلاف التكوين النفسى والاجتماعى والجنسى . .

فالاهتمامات التى تشغل بال المرأة تختلف عنها عند الرجل ، ولقد سجلت الأمثال جانبًا كبيرًا مما يدور فى تفكير المرأة ؛ ذلك لأن موضوع الإقدام على الزواج يرتبط بمستقبلها وحياتها القادمة ، فقد صورت الأمثال هذا التفكير فى جوانبه المتعددة ، كما أشارت إلى رأى المرأة فى ذلك ، وإن استعراض مجموعة من الأمثال يدل على البيئة التى تتحكم فى ظروف الفتاة . .

---

(١) مجتمعنا - د . عبد الحميد يونس - ص ٦١ ، ٦٦ - سلسلة اخترنا لك .

فالفتاة فى البيئة المصرية واقعة تحت عوامل يبدو فيها كثير من التناقض لذلك : نجد أمثالها تعبر عن هذا التناقض ففى بعض الأمثال يتركز الاهتمام الشعبى بالمهر فيقول المثل «أصيلة وعلى الحصيرة اخفوا دى السيرة ، مشورة ومن شعيرة اكتب بلا مشورة»[1] ، وفى أخرى لا يوجد اهتمام به فيقول المثل «المهر تقليه الرك على العيشة الهنية» وفى بعض الأمثال يكون التفضيل للشاب فيقول المثل «آخذ الغندور ولو سكنى وسط القبور»[2] يقول : «اللى تغوى الشاب الجميل لها ، تدفع كتابة الورقة من عندها» وفى بعضها الآخر يكون التفضيل للعجوز فيقول المثل «خدى شايب يدلعك ولا تخدى صبى يلوعك» ، ويقول «اختيار يدلل ولا شاب يذلل»[3] وفى بعض الأمثال تفضل العزوبة على الزواج الذى يعقبه مشاكل فتقول «العزوبية ولا الجوازة العار» ،

---

(١) مشورة لها جهاز ، شعيرة : موضع يقطنه أوباش الناس - حدائق الأمثال - فايقة حسين .

والمقصود أن العروسة التى تحضر معها جهازًا كبيرًا تفضل الأخرى التى ليس لها جهاز ولو كانت من ذوات الأصول .

(٢) للمثل صورة أخرى «آخذ الغندور وأنام جنب الكانون» - حدائق الأمثال العامية - فايقة حسين .

(٣) للمثل صورة أخرى «اختيار ينين ولا شاب يهين» والاختيار : هو الشيخ الهرم ، وينين الرجل المريض أو الشيخ المشرف على التلف الذى يئن من المرض وقسوة الشيب .

«قعاد الخزانة ولا الجوازة الندامة» وفى بعضها الآخر يظهر استهتارها بالزواج فتقول «البسى خف واقلعى خف لما ما يبقاش فى الدنيا ولا خف» ، «اللى ما بيجى وباله مشروح طريق السلامة من هنا ويروح» ، «اللى كتب كتابى يحله واللى يعرف أبوى يروح يقول له» . .

وفى بعضها الآخر تبدو متلهفة على ذلك ويغلف حياتها مسحة من اليأس والقنوط فتقول الأمثال «لا اتجوزت ولا خلى بالى ولا أنا فضلت على حالى» ، «من كتر خطابها بارت مسى عليها الليل واحتارت» ، «خطبوها اتعززت فاتوها اتندمت» ، «ساعة ما تنكتب فى السما بيجى للخطاب العمى» ، «يا كمون هاتوا مجنون، يا فلفل هاتوا يفتل» ، «عريس الغفلة والباب بلا قفلة» ، «اللى عاجبته شاريها ما حد مثليها» ، «اقرصينى فى ركبتى ، تحصلينى فى جمعتى» ، «يا رتنى بيضة ولى ضب والله البياض عند الرجال يتحب» . .

على أن الصور السابقة لا تشير إلى طبيعة الفتاة المصرية فالفتاة المصرية محافظة تظل فى منزلها فى انتظار العريس والمجتمع لا يسمح لها بأن تبحث عن العريس ، حقيقة أن الصورة الشعبية قد تغيرت إلى حد كبير ، ولكن الفتاة المصرية مازالت تعيش على أمل الزواج يقول المثل : «اقعدى فى عشك

لما يجى اللى ينشك» كما أنها تعيش بين عادات وتقاليد تحد من خطواتها لذلك يقول المثل : «الف كتاب ولا زلة» . .

ومن ناحية أخرى فالمجتمع ينادى بالتوفيق بين الزوجين حتى تنبنى الأسرة على أساس سليم فيقول المثل «جوزوها له مالها إلا له» لذلك فإنه يشجع على زواج الأقارب لما فى ذلك من تحقيق التوافق فيقول «آخذ ابن عمى واتنشر عليه بكمى وآخد ابن خالى واتنشر عليه بشالى» ، «احب ابن عمى ولو يسفك دمى» ، كما يحذر من الزواج غير المتكافئ فيقول «ولا تاخد ابن الأرملة ولا اللى معذب روحه سنة» . .

كما أنه ينبغى ملاحظة أن هذه الصور المتناقضة لا تشير إلى حقيقة المجتمع بقدر ما تشير إلى مجموعة من المواقف المتعارضة المتناقضة التى لم تكن تخلو منها الحياة فلا يمكن اعتبار المثل الذى يدعو إلى تفضيل الشيخ قاعدة للعادات والسلوك فى المجتمع المصرى أو المجتمع السوى ولكن هذه الصورة لا تخرج عن كونها موقفًا خاصًا يمثل وجهة النظر الفردية التى تنطوى على حالة قابلة للتغير ، وفى النهاية كان المجتمع يقوم بتقويم المعوج من السلوك ويصحح خطأ العادات والتقاليد عندما يعتريها الشطط أو الجموح ، وكما يقول دكتور يونس «رسومًا كاريكاتورية لم يكن هدفه - أى المجتمع - منها مجرد

الضحك والتندر ولكنه كان يضع بطريقة سليمة نموذجه الذى يعتمد على التكافؤ فى النظر إلى الحياة ويدعو بوسيلة غير مباشرة إلى حماية اللبنة الأولى من هذا الخلل الكبير فى النسبة والتناسب بين ركنيها الأساسيين»[1] .

وربما كانت إحدى الصور المترسبة عن فترات اليأس والانحلال والتأخر التى مرت على الشعب المصرى ؛ حيث سيطرت فيها طبقة الشيوخ على مراكز المال والقوة مما يستهوى عقول الغريرات الساعيات إلى الطموح والمتعة وانتقلت هذه الصورة إلى مختلف الطبقات ؛ حيث أصبحت فى وقت ما نموذجًا للسلوك . .

(١) مجتمعنا - د . عبد الحميد يونس - ٦٨ سلسلة اخترنا لك .

الإقدام على الزواج عند الرجل

إن أهمية الزواج لدى الرجل قد تكون أكثر منها عند المرأة ذلك لأن الرجل عندما يقدم على هذه الخطوة يفكر فيها عدة مرات ويضع أمامه المسئوليات التى تترتب على ذلك ، فهو يخوض تجربة جديدة فى حياته يقع عبؤها كله عليه وحده ، وإذا كانت المرأة تنظر إلى الزواج لذاته فإن الرجل ينظر إليه باعتباره مسئولية لا تحتمل التكرار والخطأ ، وإذا أضيف إلى ذلك ما يتحمله الرجل من أعباء مادية قبل الزواج وبعده ، وما يمكن أن يصاحب ذلك عادة من مشاكل ، كل ذلك يؤكد أن مسألة الزواج عند الرجل تشكل أهمية كبرى فى بناء مستقبله ووضعه الاجتماعى ومن ثم فقد قيل أن المرأة بالنسبة للرجل «كل شىء» . . .

ولقد لعبت الأمثال دورًا مهمًا فى تسجيل الظروف التى تصاحب الإقدام على الزواج فوضعت عدة شروط تدل بصدق على طبيعة العلاقات الاجتماعية المصرية بكل ما فيها من عوامل السلب والإيجاب ، فالأمثال فى مجموعها ترسم الطريق أمام الزواج الناجح ، وذلك على أساس موضوعى عقلانى ، والناظر إلى الأمثال الآتية يتبين الصورة التى يطلبها المجتمع فى الزواج

يقول المثل : «خد ندك على قدك» ، «اللى يتجوز بالدين يبيع أولاده بالفايظ»[1] ، «قرد موافق ولا غزال شارد» ، «إدينى الحرة النقية اللى تزودنى وقية» ، «خذوهم فقرا يغنيكم الله» ، «خد الأصيلة ولو كانت ع الحصيرة»[2] ، «أدب المرأة مذهبها لا ذهبها» ، «استعدل ولا تستعجل» ، «من عملهم تجارته يا خسارته»[3] ، «يا واخد القرد على كتر ماله بكره يروح المال ويفضل القرد على حاله» . .

فالمثل يحذر من الوقوع فى الخطأ ؛ لأنه محسوب على الرجل والخطأ أن يتزوج المرأة لمالها أو أن يطمع فى مركزها الاجتماعى أو أن يقدم على هذه التجربة دون استعداد مادى أو أن يتسرع فى دراسة هذا الموضوع ، وهو إذ يحذر من الخطأ يقدم النصيحة فلا ينبغى أن تتزوج المرأة لمالها كما لا يجب عليه أن يتعدى الوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه وعليه أن يأخذ الشريفة الطاهرة لأدبها وخلقها . .

---

(١) الفايظ : الربا .

(٢) للمثل صورة أخرى هى « خد بنت الأصول مع الزمان تدور » ومثله « خد بنت الأصول لـ الزمان يطول » ومثله « اتبع الطريق ولو دارت وخد الأصيلة ولو بارت » .

(٣) المراد النساء وكثرة التزوج بهن ، أى - اشتغل بهن وجعلهن تجارته فما أكثر خسرانه فيها - الأمثال العامية .

وكذا فقد وضعت الأمثال أمام المتزوج صورة من التجربة الاجتماعية فى موضوع الزواج فالمجتمع الشعبى لا يرى فى الزواج إلا ظاهرة اجتماعية ذات تكاليف مادية وعلى العريس أن يستعد لذلك يقول المثل : «إذا كنت عاوز تتجوز حط الحبأ والنبأ وشوشة أمك وأبوك فى الطبق» ، «العريس الهنى يبان من نفقته» ، «اللى ما يقدر ع الحمراء وعليقها يخلى من طريقها»[1] ، «بفلوسك بنت السلطان عروسك» ، «اللى بده الملاح يبيع السلاح» ، «اللى ما يقدر ع الجواز يصوم» . .

وأيضًا فإن المجتمع الشعبى يحذر من الزواج غير المتكافئ أو الذى لا ينبنى على تعقل أو اتزان فيقول المثل «اللى يتجوز أكبر منه يا كتر همه» ، «اللى ياخد الندامة مالوش ذكرى» «يا واخد المرة يا مسخرة»[2] ، «من همه اتجوز قد أمه» ، «خد رعنتهم ولا تاخدش ساهيتهم» ، «اللى يتجوز فى سوق الصير يكون طلاقه اتمسوا بالخير» ، «اللى ما ياخد من ملته يموت بعلة غير علته» ، «اللى يتجوز اتنين يا قادر يا فاجر» ، «إذا كان بدك غراب البين اتجوز اتنين» ، «اتجوز غازية ولا تتجوز غمراوية» ،

---

(١) المراد النساء وكثرة التزوج بهن ، أى - اشتغل بهن وجعلهن تجارته فما «اللى ما يقدر على الحمارة وعليقها يخلى من طريقها» .

(٢) يقصد بها التى سبق الزواج لها .

«اللى يتجوز رفيقته يـ . . . من ليلة»[1] ، «اشترى حمارة الفقى ولا تتجوزش مراته» . .

أما الجمال فإن المجتمع الشعبى يحفل بالجمال الحسى الذى يتحدث عن الأعضاء والناظر للأمثال يستطيع أن يحدد العناصر الجمالية التى يميل إليها الذوق الشعبى ، فالذوق الشعبى يهوى المرأة البيضاء الهيفاء رفيعة الوسط الممتلئة الساقين ، كما يعجب بالوجه الصبوح الدقيق الأعضاء وينفر مما عدا ذلك ، يقول المثل «إن كنت عايز تمص قصب مص من الوسط وإن كنت عايز تخطب خد رفيعة الوسط» ، «خد الجميل واقعد فى ظله» ، «خد الغندور ونام قدام الكانون» ، «خد المليح واستريح» ، «خد الحلو واقعد قباله وإن جعت شاهد جماله» ، «يا واخد البيض يا مقضى الزمان فرحان ، ضيعت مالك على جوهر وعود ريحان» ، «الطول ع الحور والتخن ع الجميز» ، «يا واخد الصغير يا حرامى السوق» . .

والمرأة الدميمة فى العرف الشعبى هى التى تقول عنها الأمثال «اللى بعرقوبها تدبح الطير اهرب منها ما فيها خير» ، «ما يعجبكش طولها الزين ولا لفتها فى الملاية عليها عرقوب يدبح

---

(١) تعودت مؤلفة الحدائق أن تضع نقط مكان الكلمة التى تخدش الحياء .

الطير مناخيرها قد الدوايه خلت فطورى عشايا» ، «يا واخد السود يا مقضى الزمان حزين ضيعت مالك فى خنفس وجالوص طين» ، «جوز القصيرة يحسبها صغيرة» . . .

ولئن احتفل الذوق الشعبى بالجمال الحسى فإن لم يكن - فى بعض من الأحيان - يرى فى هذا الجمال إلا طلاء ظاهريًا قد يخفى كثيرًا من عناصر الدمامة ، كما أن هذا الجمال الحسى لم يكن مطلوبًا فى كثير من الأحيان ، وقد لا يكون أساسيًا عند التفكير فى الزواج ، ومن هنا يسخر المثل من الجمال فيقول «ما يعجبكش حمار الخد يا شارى من بره مزوق ومن جوه هباب عالى» ويقول «بيع الجمال واشترى خفة الجمال كتير بس الخفيف صدفة» فالجمال تتضاءل أهميته بجانب خفة الدم أو بجانب المطالب الموضوعية الأخرى . .

ولما كان المجتمع الشعبى فى مصر يميل إلى الانغلاق لذلك فقد شاعت فيه كثير من العادات والتقاليد التى اعتمدت على تصورات خرافية ، ولقد عبر المثل عن ذلك فقال : «ادبح بسك ليلة عرسك» ويقول المثل «أخفوا طهوركم وأشهروا جوازكم» على أن مثل هذه التصورات الخرافية لن تقوى مستقبلاً على الوقوف فى وجه الحضارة والتطور الفكرى وربما كانت هذه إحدى انعكاسات عصر سيطرة الرجل على المرأة . .

النسب

والمجتمع الشعبى ينصح المقدم على الزواج بأن يفكر قبل الزواج فيرسم الطريق الذى يجب أن يسلكه حتى يأمن المشاكل ، لقد عبر الشعب عن ذلك فى أمثاله فقال : «اسأل قبل ما تناسب يبان لك الردى من المناسب» ، «قبل ما تناسب حاسب» . .

والشعب يرى أن موضوع النسب ذو أهمية خاصة فى حياة الرجل فيقول فى أمثاله « النسب أهلية » ، « النسب حسب وإن صح يكون أهلية» ، «النسب إما حمى وإما درا » ، لذلك يقدم له النصيحة فيحرضه على الزواج فيقول : «إن ما كانش لك أهل ناسب» ، «اللى بلا أهل يناسب» ، ثم يضع أمامه التجربة فيحذره من الخطأ الذى يتمثل فيما يقوله المثل « خد من الزرايب ولا تاخد من القرايب » ، «ازرع قريب وناسب بعيد» ، « اللى واخد من الخرابات فى الخراييات » « إن كان لك صاحب لا تعامله ولا تناسبه » ، «النسب زى اللبن بيروق ويتعكر» ، «اسكن فى جبل كفرى ودار نسيبك لأ » وأيضًا فإن المثل يضع للمصاهرة عدة اعتبارات فيقول المثل : « اتجوز بنت اللى يقيد لك

حمارتك » ، « ودور مع الأيام إذا دارت وخد بنت الأجاويد إذا بارت » ، « خد بنت الندل وخاصمه » ، « بيت ينشرى وبيت ينكرى » .

بين الزوج والزوجة

لقد كانت الأسرة طوال عصور التاريخ تمثل خط الدفاع الأول ضد الحكام والأغراب والانتهازيين والمغامرين الذين سيطروا على الحكم المصرى طوال التاريخ ، كما أن الوحدة الأسرية التى تعد اللبنة الأولى فى صرح البنيان الاجتماعى كانت من القوة بحيث لم يستطع أى حاكم أن يمزقها أو يعيد تشكيلها ، وفى اعتقادنا أن الحاكم الذى يستطيع تمزيق الأسرة المصرية يستطيع بسهولة تمزيق الكيان الاجتماعى للشعب المصرى وبالتالى يستطيع تغيير الطبيعة المصرية والتفكير المصرى ، والمجتمع المصرى متكامل رغم ما مر به من عهود مظلمة كثيرة ، ويبدو أن الأسرة كانت العزاء الوحيد للمصرى فى حياته ، فقد كان يرى فى الأسرة مكانًا صالحًا لتصريف كثير من مشاكله الحياتية ، وكان يرى فيها عنصرًا طيبًا يساعده على تجديد حياته اليومية أو كان يعتبرها مركزًا لشحنه عاطفيًا وإنسانيًا وتجديد نشاطه ، ومن هنا نستطيع أن نقول أن كل ما يتمتع به المصرى من عوامل السلب والإيجاب يمكن أن يكون مصدره الأساسى هو الأسرة . .

ومن ناحية أخرى فإن الأمثال التى سوف تذكر فى هذا

الموضوع لا يمكن أن تشير بصدق إلى الأسرة المصرية فى الوقت الحاضر ذلك لأن المجتمع المصرى ، وخاصة المجتمع الشعبى فى الريف وفى الطبقات الشعبية فى المدينة ، هذا المجتمع قد شهد تحولات جوهرية فى طبيعته ربما كانت تحدث فيه لأول مرة منذ عهود بعيدة . هذه التحولات التى بدأت تتضح منذ عشرات السنين ؛ حيث أخذ المجتمع يتحول تدريجيًا من مجتمع البداوة والريفية إلى المجتمع الصناعى الذى يرى فى الآلة مصدر رزقه الأساسى . ولقد تغيرت تبعًا لذلك كثير من القيم والعادات الاجتماعية واكتسب الشعب المصرى مجموعة من الأخلاقيات التى تتفق مع البيئة الحضارية والصناعية ، كما أن المرأة لم تعد ربة للبيت فحسب بل أخذت دورًا واضحًا فى الحياة الاجتماعية . .

والمتصفح للأمثال التى تتحدث عن الرجل والمرأة يرى فيها علاقات يسيطر عليها ألوان من الشك والغيرة والحذر من كلا الطرفين فهى تصور المرأة وهى غاضبة فى منزل أبيها وتصور الرجل صاحب الكلمة العليا فى المنزل وأحيانًا تصوره إنسانًا مقهورًا أمام ألاعيب المرأة وحيلها التى تفوت على ذكائه . فما موقف الرجل من المرأة فى الأمثال ؟ وما هى الصورة التى رسمها الرجل للمرأة ؟ وما هى الصورة التى رسمتها الأمثال

للعلاقات الزوجية ؟ وما هى الظروف والعادات التى تتحكم فى سلوك الزوجة مع زوجها ؟

لقد أجابت الأمثال على هذه الأسئلة . فمن خلال استعراض المجموعات المختلفة نعثر على إجابات تبين ما يدور فى تفكير الرجل . فالنساء كما يقول المثل : «النسوان هديات ورزيات» فهن هديات لأن الرجل يحس بمشاعر زوجته نحوه فيقول فى المثل معبرًا عن ذلك «أفكار مراتى لى ولقلبى وأفكار أمى على رأس الجبل»(١) ، والمرأة عند الرجل منبع سعادته وسروره يقول المثل : «اللى مراته مفرفشة يرجع البيت من العشا» ولكنه رغم ذلك ففى بعض أمثاله يصورها كخائنة عليه أن يراقبها ويحرسها دائمًا . ويبدو أن مثل هذه التصورات والأوهام كانت نتيجة للغيرة الشديدة والرغبة فى الحفاظ على الأسرة وصيانة العرض والجزع من التفريط فيه ؛ ذلك لأن المصرى كما أشرنا كان يرى فى الأسرة الملجأ الأخير له فى مواجهة مشاكل حياته مع الحكام ، ومن هنا فقد ازدادت لديه درجة الغيرة حتى بلغت حد الشك والاتهام وربما غذى هذا الشك بعض الأحداث

---

(١) يريد أن أفكار الزوج تنصرف إلى سرور بعلها ولهوه عند غيابه عن المنزل ، أما أفكار أمه فتنصرف إلى توهم بأن مصابًا أصابه خوفًا عليه ، فهو يتشاءم منها - تيمور .

التى تكررت على المدى الطويل من بعض النساء وفى عهود التخلف والقهر والفقر .

يقول لين : «وقد اشتط أكثر النساء كما يقال فى استعمال الحرية ولا يعتبر أغلبهن مصونات إلا إذا أغلقت عليهن الدار وقل منهن من يخضعن لهذا القصر ، ومن المعتقد أن المصريات يملكن شيئًا من الدهاء فى تدبير الحيل التى يعجز الزوج عن تجنبها مهما كانت فطنته وحرصه وأنه قلما تخيب لذلك حيلهن مهما عظم الخطر الظاهر لما يباشرنه ، وقد يكون الزوج نفسه أحيانًا وسيلة لإشباع ميول زوجه الإجرامية بدون علمه وتعرض لنا بعض قصص ألف ليلة وليلة فى مكائد النساء صورًا صادقة عن حوادث لا يندر وقوعها فى عاصمة مصر الحديثة ، ويرى كثيرون فى القاهرة أن جميع النساء تقريبًا على استعداد أن يدبرن الدسائس متى استطعن ذلك بدون خطر وأن الكثيرات يباشرن ذلك فعلاً . ويؤلمنى أن يكون الرأى السابق صحيحًا وقد يكون صحيحًا ؛ لأن الصعوبات التى تعترضهن هى العائق الرئيس لكثير من المكائد عند نساء الطبقة العليا والوسطى أما عند نساء الطبقة الدنيا فالمكائد أكثر وقوعًا وأسهل إنجازًا ، ويمكن أن نعزو ميل المصريات إلى اللذات الشهوانية وفساد أخلاق الكثيرات منهن إلى عدة أسباب ؛ ينسب بعضها إلى المناخ والبعض الآخر إلى حاجتهن إلى التعليم المناسب والتسلية البريئة

والاشتغال بعمل ، ولكن ذلك يرجع على الأكثر إلى سلوك الأزواج أنفسهم وهو سلوك أكثر خزيًا - لهم من الصرامة الشديدة التى يستعملونها فى تنظيم الحريم فجميع الأزواج فى مصر يسعون إلى تحريك شهوة نسائهم بكافة الوسائل التى فى قدرتهم مع أنهم فى الوقت ذاته يكدون ويثابرون لمنع زوجاتهم من إشباع هذه الشهوة بطريق يخالف الشرع [١] . لذلك فقد كان المصرى «يروض نفسه على الضنك والرهبة ولا يروض نفسه على بيع العرض وابتذال البيت ، والمصرى يغار على الزوجة اعتزازًا بصداقة متينة وطمأنينة وأنه ليغضب للزوجة وكأنه يغضب لقرابة تقطع أو محراب يهان» [٢] .

وإذا كانت هذه العناصر هى التى تكون طبيعة الرجل المصرى فى الماضى فلا نستبعد أن نرى الأمثال صورة صادقة لهذه الطبيعة تقول الأمثال «لا تأمن للمرة إذا صلت ولا للشمس إذا ولت» [٣] ، «إذا كان المرة لها كانون فى البيت هده» ، «إن كان لسان المرة جهر اقطعه» ، «الرجالة غابت والستات سابت»،

---

(١) المصريون المحدثون - ص ٢١٩ هذا وقد ذكر لين بعضًا من الحوادث والمكائد النسائية .

(٢) سعد زغلول - عباس العقاد - ٢٥ .

(٣) للمثل صورة أخرى هى « لا تأمن للمرة إذا صلت ولا للخيل إذا كلت ولا للشمس إذا ولت » .

«من يريحهم يتعبوه ومن يتعبهم يريحوه» ، «إن حبوك يا ويلك وإن كرهوك يا ويلك»[1] ، «مرة بن مرة اللى يطاوع مرة» ، «اللى مالوش مرة مالوش عدو» ، «من أعطى سره لامراته يا طول عذابه وشتاته» «آمن للحية ولا تآمن للمرة» ، «يا ويل اللى علته مرته يموت والطبيب حداه» ، «شاوروهم واخلفوا شورهم» ، «الراجل ابن الراجل اللى عمره ما يشاور مرة» . .

وأيضًا فإن العلاقات بين الزوج والزوجة لم تكن تعتمد فى بعض الحالات على المودة والتعاطف لقد صورتها الأمثال فى أسلوب يعبر عن تقصير الأزواج فى حق بعضهم ، فيقول المثل «بدال خطوطك والحمرة امسحى عماصك يا سمرة» ، «مال طاقيتك مقورة قال من تدبيقك يا مرة» ، «أقول لها إنت طالق تقول قوم بنا ننام» ، (اللى مراته خايبة وسخ وكمامه دايبه» ، «الزمان ده يالله هده لما الراجل يغضب والست ترده» وكذلك فإن الأمثال تتهم الرجل بالتقصير فتقول «اللى اتجوز رخرة على راسه تخره»[2] ، «زانى ما يأمن على مراته» ، «إذا كان صاحب البيت

---

(١) للمثل صورة أخرى هى « إن حبوك موتوك وإن كرهوك موتوك » .

(٢) يضرب لمن يتزوج اثنتين فتسىء إليه الثانية بعد الأولى - جاء فى الملح أن رجلًا كان يبكر إلى الصلاة فى المسجد فيجد آخر قد سبقه إليه فاستسفره عن ذلك فأجابه : إن لى زوجتين تتسابقان إلى خدمتى ولذلك تجدنى أبكر غير مشغول ولعل ما يؤخرك عن التبكير هو أن لك زوجة واحدة فوفر هذا الكلام فى =

بيزمر ليه الست ما ترقصش» ، «يا مزكى على أهل بره زكى على أهل جوه» ، «يا مجامل الغرب تفتخر بيهم جامل أهل بيتك تكسب أجرهم» . .

ولم يكن ذلك دائمًا فقد أوصت الأمثال فى كثير منها - بالزوجة خيرًا ؛ ذلك لأنها ضعيفة فيقول المثل «اكسر جاه ميه ولا تكسر جاه وليه» ويقول المثل «البس إنت تعجب مراتك ولبس مراتك تعجب الناس»(١) فمن المروءة العناية بالزوجة وإظهارها فى صورة حسنة ؛ لأنها تمثلك . .

أما بالنسبة للمرأة فقد عبرت الأمثال عن طبيعة علاقتها الزوجية ونظرتها للزوج فالمرأة إنسان ضعيف «مكسور الجناح» - كما يقولون - كما أنها تعلم هذه الحقيقة وتعلم أن شوكة الرجل قوية ، وكذا فإن المجتمع يعطيه السيطرة ويمنحه الحرية وينظر إليه نظرة تغاير النظرة إلى المرأة ، لذلك فقد صورتها الأمثال فى صورة التابع أو العبد الذى لا حول له ولا قوة إلا بإرادة سيده ، ومن ثم فقد نظرت المرأة إلى الرجل على

= نفس الرجل وتزوج ثم بكر فى الذهاب إلى المسجد قبل صاحبه فسأله : لابد من أنك تزوجت بأخرى قد عرفت ذلك من تبكيرك - الحدائق .

(١) يحب التأنق للزوجة لتحل فى قلبها وتظهرها للناس فى هيئة حسنة - الحدائق .

اعتبار أنه كل شيء فى حياتها كما أن حياتها بدون الرجل لا قيمة لها فهو الذى يمنحها القيمة الاجتماعية ، كما أن المجتمع لا ينظر إليها إلا من خلال زوجها تقول الأمثال «اللى يقول لمراته يا هانم يقابلوها ع السلالم» ، «حرمه من غير راجل زى الطربوش من غير زر» ، «آكل كياد فى الدار ولا أجبش لجوزى العار»[1] ، «يا سوق بلا رجالة وإيش تعمل النسوان» ، «اللى جوزها يقول لها يا عورة الناس تلعب بها الكورة» ، «ضل راجل ولا ضل حيط» ، «اللى جوزها يحبها الشمس تطلع لها» ، «اسم الجوز ولا طعم الترمل» ، «اللى جوزها معها تدور الدنيا بصباعها» ، «اللى ما عندهاش رجالة تضرب صدرها بالحجارة» ، «اللى ما تحنى كعبها ما يفرح قلبها» ، «اللى يرضى عليها بعلها تصبح تهنن فى ابنها وتقول له يا ملك يا بن الملوك أبوك يستاهل دبح جوزين ديوك واللى يغضب عليها بعلها تصبح تضرب فى ابنها وتقول له يا مرة يا بن المرة إمتى أبوك قناله مرة» ، «أقل الرجال يغنى النسا» . . .

وفى جانب آخر فقد صورت الأمثال الزوجة فى صورة الذليلة التى لا تستطيع أن تقاوم سلطان الرجل وسطوته تقول

---

(١) كياد : ضرب من الفاكهة يستعمل فى المربى - الحدائق .

الأمثال «أخذتنى لحم ورمتنى عضم» ، «عيب الرجال قلتهم وعيب الصبية قلة نصفتها» ، «خدوا جوز الخرسة اتكلمت» ، «خدوا جوز العاقلة اتجننت» ، «عيش يا حبيبى ولا تبكينى حسك فى الدنيا يكفينى» ، «بلاش توكلنى فرخة سمينة وتبيتنى حزينة» ، «لا حصيرة ولا مخدة وكمان مش لده» «كانوا بيحسبوا الجواز هدية لقوه رزية» ، «جت العازبة تشكى لقت المتجوزة بتبكى» .

وكذا فقد صورت الرجل فى صورة الذى يضطهد زوجته لسبب وبدون سبب تقول الأمثال : «يخش من العتبة ينشف الرقبة» ، «بيجى من بره يكسر الجرة» ، «يدخل العتبة يقطم الرقبة» .

لذلك فقد قيل «يا مآمنة للرجال يا مآمنة للميه فى الغربال» ، «قصقصى طيرك ليلوف بغيرك»[1] «إذا كان الرجل بحر تكون المرة جسر» . .

والمرأة تدرك جديًا أن الرجل رب البيت والمسئول عن مطالبه كما تدرك أنها تعيش فى كنف الرجل ، وأن «العاقلة والمجنونة عند الراجل بالمونة» وتدرك أيضًا أنّ «الرجل ما يعيبه

(١) المثل فى تيمور «قصقص ريش طيرك دنه حولك ، طوله يروح لغيرك» ، وقد شرح تيمور المعنى بدون أن يشير إلى أنه يستخدم بين الزوجات .

إلا جيبه» وأن «اللى ما فيش فى بيته طعام مالوش فيه مقام» والمرأة وهى تدرك هذا تدرك أيضًا أنها سيدة البيت الأولى ، وإذا كان الرجل مسئولاً عن مطالبه المادية فإنها مسئولة عن أعمال منزلها ، فهى تكره تدخل الرجل فى شئونها كما تكره جلوسه الدائم معها والتدخل فى شئون المنزل فتقول فى الأمثال «الندب بالطار ولا قعاد الراجل فى الدار»[1] ، «إن كان البيت للعمامة روح طريق السلامة وإن كان البيت للدفة خش واتدفا»[2] ، فإذا لم يكن الرجل أهلاً لتحمل مسئولية الأسرة ولديه القدرة على القيام بمطالبها فإن الأمثال تأخذ فى السخرية منه على لسان الزوجة فتقول «خدتك على كبر شالك باحسبك تنبه أجرنك زى الكلاب داير على كل دار سندة» «خدتك عواز خدتك لواز خدتك أكيد العوازل كدت أنا روحى» ، «برا وجوا فرشت لك وإنت مايل وإيه يعدلك» ، «أخدتك يا سنبلة روحى علشان أكيد العوازل كدت أنا روحى»[3] . .

(١) للمثل صورة أخرى « جنازة بطار ولا قعاد الراجل فى الدار » .

(٢) إذا كان المنزل للدفء فمرحبًا بك زوجًا ، أما إذا كان البيت استراحة دائمة لك تتدخل فى شئونه وتعلق عمامتك ولا تخرج فمع السلامة . .

(٣) للمثل صورة أخرى هى « أخدتك شطر من بطر يا سنبلة روحى خدتك أكيد الأغازى كدت أنا روحى » « أخدتك للعجز والعوز يا سنبلة روحى خدتك أكيد العوازل كدت أنا روحى » .

ومما لا شك فيه أن إحساس المرأة بالهوان الناتج عن القيود الاجتماعية عامة والسيطرة الزوجية خاصة وكذلك إحساسها بالمسئولية الزوجية وإلحاح المجتمع على ذلك كما تقول الأمثال «لقمة الراجل مقمرة ما تاكلها إلا المشمرة» ، «حرة صبرت فى بيتها عمرت» ، «الأصيلة تنام مع جوزها على الحصيرة» ، «خدى لك راجل يبقى لك بالليل غفير وبالنهار أجير» ، «قلوب الرجال صناديق مقفولة» ، «جرى الرجالة زى بحر النيل وجرى الولاية زى نقط الزير» كل ذلك قد دفعها إلى السلبية والاستسلام لسيطرة الرجل والتسليم بذلك كحقيقة واقعة ليس أمامها إلا أن تسايرها تقول الأمثال «يا بخت الناس برجالنا ويا تعاستنا برجال الغير» ، «يا صعيدية جوزك قبل قالت قلبى ع الفراق اتدبل» ، «أول سبوع يا عروسة خوخة وتفاحة وتانى سبوع يا عروسة على المحكمة راحه» ، «عروس الدار ليس لها مقدار» . .

والواقع أيضًا أن هذه السلبية لم تكن مطلقة فكانت تتحول فى بعض الأحيان إلى نوع من التحدى تحدثت عنه الأمثال فقالت «ما تعرف خيرى إلا لما تشوف غيرى» ، «آدينى حية لما أشوف اللى جيه» ، «اللى ما يستعنانيش ورد على راسه ما استعناهوش جزمة فى رجلى» ، «اللى ما يخدنى كحل فى عينه ما آخده صرمة فى رجلى» . .

إن مثل هذه الأمثال لم تكن تعبيرًا صادقًا عن طبيعة المجتمع فلم تكن الأسرة طوال التاريخ إلا كيانًا مستقلاً فريدًا ومتكاملاً وعلى وجه الخصوص الأسرة المصرية ، لقد كانت تطفح على سطح العلاقات الأسرية كثير من المشاكل التى ليست لها أساس جوهرى ، وكانت هذه المشاكل تتجدد باستمرار وقد تتكرر فى فترات متقاربة ، والأمثال وهى تعبر أولاً عن الحياة اليومية كانت ترصد هذه الصورة ولكن الواضح أيضًا أن هذه المشاكل رغم تكرارها لم تكن سببًا لانهيار الأسرة المصرية ؛ ذلك لأن هذه المشاكل كانت تحدث نتيجة مشاكل عارضة ثم إن هناك كثير من القيم الأخلاقية التى يغرسها الدين فى النفوس كانت تقوم بدورها فى تفتيت هذه المشاكل ؛ ذلك لأن المصرى الذى لم يكن يشغل تفكيره سوى دينه وأسرته كان يفكر كثيرًا قبل أن يقدم على خطوة قد يكون فيها ضياع حياته ، كما أن هذه المشاكل الصغيرة التى صورتها الأمثال لم تكن تفقد الرجل حبه لزوجته وعطفه عليها وخوفه من فراقها والبكاء عند توديعها والاحتفاظ بذكراها والفرح بلقائها[(١)] ، ولم يكن ذلك وقفًا على الرجل فقط بل بادلته الزوجة مختلف العواطف ، وكذا قال «المجتمع المصرى

---

(١) مجتمعنا - د . عبد الحميد يونس - ٦٠ .

من أكثر المجتمعات احتفالاً بالزواج وتقديسًا له وحماية للعلاقة الزوجية وتأكيدًا لعواطف الأبوة والأمومة والبنوة جميعًا» . .

فالمصرى منذ آلاف السنين حتى الآن يقدس العلاقات الزوجية ؛ لأنها مسئولية تحمل تبعاتها ، كما أن الأسرة كانت الحصن الأخير ضد كوارث الطبيعة والحكام . يقول حكيم الدولة القديمة «بتاح حتب» : «أحبب زوجتك فى البيت كما يليق بها واملأ بطنها واكسى ظهرها واعلم أن الضموخ علاج لأعضائها . أسعد قلبها ما دامت حية ؛ لأنها حقل طيب لمولاها»[(١)] ويقول حكيم الدولة الحديثة «آنى» : «لا تمثل دور الرئيس مع زوجتك فى بيتها إذا كنت تعرف أنها ماهرة فى عملها، ولا تسألها عن شيء أين موضعه إذا كانت قد وضعته فى مكانه الملائم ، واجعل عينيك تلاحظ فى صمت حتى يمكنك أن تعرف أعمالها الحسنة ، وإنها لسعيدة إذا كانت يدك معها تعاونها . تعلم كيف يمنع الإنسان أسباب النزاع فى داره ؛ إذ لا مبرر لخلق النزاع وكل إنسان يستطيع أن يتجنب إثارة النزاع فى بيته إذا تحكم فى نزعات نفسه»[(٢)] . . .

---

(١) تاريخ الحضارة المصرية جـ ١/١٣٥ نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

(٢) المصدر السابق جـ١/١٣٩ .

فهذا الأسلوب الجميل فى فن معاشرة الزوجة عند المصرى القديم قد وضحه الإسلام بصورة أدق وأشمل فى مصر الإسلامية ، والقرآن والأحاديث النبوية مليئة بالقوانين التى تنظم العلاقة بين المرأة والرجل بالعدل والإحسان ، وهذا الأسلوب الذى اتخذه المصرى فى التعامل مع الزوجة يدل على رقة الشعور لديه ومدى الإخلاص والتفانى فى سبيل الأسرة وهو مستمد من تاريخه الطويل الفرعونى والإسلامى . . .

ودليل آخر على شدة تعلق المصرى بزوجته وتفانيه فى الحفاظ على الروابط الأسرية يتمثل فى ثورة المصرى وهياجه بل وتضحيته بحياته إذا أحس باعتداء على شرفه وهذا الشرف لا يتمثل فى صفعة على وجهه أو ضربة بالسياط أو غير ذلك من ألوان الإهانة ، ولكن الشرف عند المصرى هو الزوجة ، إن أى اعتداء على الزوجة مهما قل يمكن أن يؤدى إلى القتل ؛ ذلك لأن المصرى يعتقد أن شرفه مستمد من شرف زوجته وترتفع درجة الغيرة لديه حتى تصل فى «بعض الأحيان إلى التهور والاندفاع الطائش . وهذه الطبيعة بلا شك قد حافظت على كيان الأسرة المصرية» . .

المراة فى منزلها

المعروف أن المرأة الريفية وكذلك أختها فى البيئات الشعبية أكثر النساء نشاطًا ؛ ذلك لأنها تساعد زوجها على الحياة ، فالمرأة الريفية تقوم بمساعدة زوجها بجانب الأعمال المنزلية ، وكذلك فإن المرأة فى البيئات الشعبية تساعد زوجها فى التجارة بفتح الحوانيت أو الخدمة فى بعض المنازل وغير ذلك . يقول لين : «وقلما يحيا نساء الطبقات السفلى حياة الخمول وإن بعضهن ليد أكثر من الرجال ، وأهم أشغال النساء تجهيز الطعام وجلب المياه فى جرار كبيرة يحملنها على الرأس من الموارد وغزل القطن والكتان أو الصوف وعمل «الجلة» أقراصًا مستديرة مسطوحة من روث البهائم المملوط بالتبن للوقود»(١) . هذه الصورة من الممكن وجودها حتى الآن فى البيئات الريفية وكذلك فى البيئات الشعبية فلم تتغير - إلى حد ما - رغم التطور الكبير الذى طرأ على الحياة المصرية فى السنين الأخيرة . . .

ولقد حفلت الأمثال بالتعبير عن المرأة الريفية وطبيعة عملها والمرأة الشعبية وظروفها ، والعمل الذى تزاوله المرأة فى البيئتين

---

(١) المصريون المحدثون - لين - ترجمة عدلى نور - ٢٩ .

يدوى يستخدم الوسائل التى لم تصل إليها الحضارة . فالصورة التى رسمها لين لطبيعة عمل الريفية ترصدها الأمثال بطريقتها ، فالمرأة الريفية تعلم - كما يقول المثل - أن «لقمة الراجل مقمرة ما تكلهاش إلا المشمرة» لذلك فقد أخذت الأمثال ترسم الصورة الريفية للمرأة فى منزلها مستمدة ذلك من البيئة ذاتها فهى تنصح المرأة فتقول لها «قوى نارك تسبقى جارك» ، «اغسلى حلتك من دمعتك ولا تغسليهاش من زلعتك» ، «قومى لها جارية واقعدى لها ست»[1] ، «اقرم الجلة وأقور القوالح» ، «الميه فى الزير تحت التدبير» ، «الشاطرة تقول للفرن قود من غير وقود» . .

والمرأة الريفية نشيطة ومجتهدة وتتباهى بذلك فتقول «العيش مخبوز والميه فى الكوز» ، «الشاطرة تغزل برجل حمار» ، «العرس يبان من لم الجلة» ، «الموفرة غلبت المشورة» ، «اللى قبلنا قال البركة فى الحبتين»[2] أما الكسلانة فسريعًا ما تسخر منها الأمثال فتقول «من قلة حيلها ومروتها عملت الطبة صنعتها»[3] ، «اللى تولع قنديلها فى القمرة تخرب جوزها» ،

---

(١) الضمير هنا يعود على الجلة ويقصد بذلك أنها تنشط لجمع الروث خلف البهائم كالجارية ، أما الجزء الثانى من المثل فيقصد به أنها تجلس أمام الفرن عند عمل الخبز وتلقى الجلة بمهارة لتنضج الخبز .

(٢) يقصد بذلك حبتى القمح والذرة عند خلطهما لعمل الخبز .

(٣) الحيل : القدرة على العمل ، الطب تحريك العجين وتقليبه فى الماجور لتتوزع ليونته .

«اللى مالوش غرض يعجن يقعد ست أيام ينخل» ، «فاتت عجينها فى الماجور وراحت تضب فى الطنبور» ، «مالك بتجرى وتشلحى قالت مفتاح القوالح معى» ، «العلامة انكبت والنخالة قبت» ، «الدهوانة تضيع مفتاح الخزانة» ، «البحر غربال الخايبة» ، «اللى كواها البين تطبخ محشى» ، «هى كل من نفخت طبخت» ؟! . .

وأيضا فقد تحدثت الأمثال عن المرأة فى البيئات الشعبية فالمرأة الشعبية تعرف قيمة منزلها وأهمية البيت فى حياتها فتقول لها الأمثال «كل دار ولها مدار وكل طاحونة ولها عيار» ، «اللى يطلع من داره يتقل مقداره» ، «يا دارى يا ساترة عارى يا منيمانى للضحى العالى» ، «قعدتى بين أعتابى ولا قعدتى بين أحبابى» . .

كما تنصحها فتقول : «اغسلى تفوقى واكتسى تروقى» ، «ما تخرج الحسنة إلا بعد كفو البيت» ، «اكنس بيتك ورشه ما تعرف من يخشه» «ما غسيل إلا بعد عصير»[1] وإذا كانت الأمثال قد

---

(١) للمثل صورة أخرى هى « ما غسيل إلا عصير وما ضرب إلا تكسير » وللمثل قصة مؤداها أن إحداهن كانت تغسل وتنشر مباشرة ورأتها جارتها فقالت لها هذا المثل - أى أن الغسيل لا يصلح إلا بالعصير - وظنتها صاحبة الغسيل أنها تنصحها بأن تغسل وتنشر غسيلها عصرا - أى وقت العصر - ولكنها عادت إليها لتقول لها شارحة نصيحتها بأنه لا يمكن الغسيل ويصلح إلا ويتبعه عصير الملابس .

تحدثت عن المرأة المجتهدة النشيطة فقالت : «المرة الطهاية تكفى الفرح بوزة» ، «الشاطرة تقضى حاجتها والخايبة تنده جارتها» ، «اللى تطبخه العمشة لجوزها يتعشى» ، «لقمة غيرى ما تشبعنى وعارها يتبعنى» ، «يا إبرتى إنتى غرامى وغبتى» ، نقول إذا كانت الأمثال قد تحدثت عن المرأة وهى تؤدى واجباتها المنزلية فإنها قد حذرتها من الخمول والكسل فسخرت منها : «قعدة على قعدة راح النهار يا سعدة» ، «المرة المفرطة عليها قطة مسلطة» ، «تغسل غسيل هلس وتتكل ع الشمس» ، «مرة تضحك على مرة وتقول لها أنا عشتى مدبرة» ، «آكل ميه وعند الشعل مالى نية» . .

الزوجة مع اقاربها

أ - الزوجة مع أقاربها :

تتمتع البنت فى منزل أهلها بالاحترام والتقدير ، ويزداد الاهتمام بشئونها والمحافظة عليها كلما وصلت إلى مرحلة النضج والأنوثة ذلك لأن البنات «مربطهم خالى» ، ويزداد تبعًا لذلك الاهتمام بمستقبلهم ، وهذا الاهتمام ينعكس على مشاعر البنت وأحاسيسها وربما كان ذلك من الأسباب التى تجعل الحياة الزوجية فى مراحلها الأولى صعبة ، فإن البنت بعد أن تنتقل إلى بيت الزوجية تحسب الغربة والرهبة فتعبر عن ذلك الأمثال فتقول : «غربة وكربة وقلة حبيبة» ، «لا حبيبة ولا جارة قريبة» وكذلك يزداد تعلقها بأهلها فتقول «والنبى يا أمه ما تجوزينى غريبة دا الغربة تربة والبلاد بعيدة» . .

والمرأة عندما تتزوج وخاصة فى المجتمع المصرى - لا تنقطع صلتها بأهلها فهى دائمًا على اتصال بهم ، وأيضًا فإنهم يفضلون زواج ابنتهم قريبًا منهم يقول المثل : «جوزوها بديك تناديها تجيك» كما أنه لا يوجد من «يحمل همها» غير أمها تقول «إذا بكت على كل الحبايب مش أد بكا أمى على» ، والمرأة كما أشرنا تعترضها المشاكل الزوجية كثيرًا وخاصة فى مجتمعنا ،

ذلك لأنها لم تمارس الحياة الاجتماعية ، فقد كانت تعيش فى دائرة مغلقة وانتقلت إلى حياة جديدة ، وغالبًا ما تختلف عن حياتها الأولى ؛ لذلك كثيرًا ما يدب الشقاق ، وتعبر الأمثال عن غضبها وانتقالها إلى منزل أهلها فيقول «جوزتها تتاخر راحت وجابت راخر» ، «يادى النيلة يادى الحطة رحنا على جمل وجينا على قطة» . .

ولكن عندما تطول معيشتها فى الأسرة وتنسجم مع الحياة الجديدة عندئذ تصبح حياتها أكثر انفصالاً عن أسرتها السابقة وأكثر التصاقًا بالحياة الزوجية فتعبر الأمثال عن الموقف الجديد فتقول : «رحت بيت أبويا أستريح سبقنى الهوا والريح» ، «يحرم علىّ بيت الأهلية أحسن يقولوا العاوزة جيه» وربما تقارن بين بيت الزوجية وبيت أهلها فيقول المثل «نار جوزى ولا جنة أبويا» ، وقد يتحول الموقف فيصبح عدائيًا فيأخذ الزوج مركزًا أفضل وهنا تقول الأمثال على لسان الزوجة «أبويا الكلب وطّابى وجوزى السبع علاّبى» ، «أبويا وطانى وجوزى علانى» . . .

والواقع أن موقف الزوجة من أهلها يتسم بالتغير حتى ليلبس ثوب التناقض ، والذى نراه أنه لا يوجد تناقض ما فى هذه الأمثال ، ولكن الأوفق أن نقول إن هذه الأمثال تخضع للمناسبات ، وقد يقال إن المناسبات تختلف وقد تتناقض وهذا

صحيح أيضًا . فالحياة الزوجية تتطور والفتاة فى أول حياتها الزوجية لا تستطيع أن تغير حياتها بين يوم وليلة ، وهى تحتاج إلى فترة كبيرة حتى تستطيع أن تغير حياتها بين يوم وليلة ، وهى تحتاج إلى فترة كبيرة حتى تستطيع أن تتعايش مع البيئة الجديدة . ففى هذه الفترة يكثر تعلقها بأهلها وحياتها الأولى ودائمًا تثنى عليها وبمرور الزمن والاندماج فى الأسرة ووجود الأبناء تتلاشى الحياة السابقة وتندمج الزوجة فى الحياة الزوجية بكل كيانها وتخضع لسنة الحياة ، وهذه هى طبيعة الحياة المصرية من هذا المنطق يتولد المنطق الاجتماعى ، وعلى ذلك يتولد أيضًا المنطق المثلى بكل ما يحمل من أبعاد قد تبدو متناقضة ، ولكنها فى الواقع تنطلق من منطق التطور والانتقال فى مراحل الحياة . .

(ب) مع أهل الزوج :

من الواضح أن الأسرة المصرية لا تتكون من الزوج والزوجة والأبناء فقط ؛ ذلك لأن الأسرة المصرية تمثل تجمعًا جماهيريًا قد يبلغ فى بعض الأحيان خمسين شخصًا يعيشون فى منزل واحد ، وقد يعيشون من مورد واحد . إن مثل هذه الأسرة قد لا تتكون فى المدينة لعدة اعتبارات اجتماعية وأخلاقية واقتصادية وغيرها ، ولكن هذه الأسرة غالبًا ما تكون فى الريف ، وهى تتكون من الشيخ الكبير وزوجته وأولاده القصر وأبنائه المتزوجين

وأولادهم ، وهكذا تترابط الأسرة وتتشابك المصالح وتتولد المشاكل ، ولكن الرباط الأسرى رغم ذلك لا ينفصل لأن عوامل التجميع تتغلب على عوامل التفريق وتعيش الأسرة فى وحدة متكاملة . .

فالأب وخاصة - فى الريف - لا يعترف لابنه المتزوج بالاستقلال المعاشى إلا تحت الظروف القاهرة ، ولذلك أيضًا فإن الأسر الريفية عبارة عن جماعات ترتبط مع بعضها بصلة القربى وغيرها فشاعت فى الأوساط الشعبية كلمة «العيلة»[١] وعلى وجه الخصوص فى البيئات الريفية ؛ لذلك نستطيع أن نفسر المثل الذى يقول : «قالت يا بنتى خايفة أجوزك فى بيت عيلة قالت راح يبقى معايا لسانى وأغلب»[٢] ذلك لأن العيلة تتكون من مجموعة من البشر مختلفة العناصر والأشكال والطباع ، إلى حد ما ، وقد يتسبب عن ذلك بعض المشاكل تتعرض لها الزوجة الحديثة مما يجعل أهلها يشفقون عليها . .

---

(١) تطلق هذه الكلمة على الأسرة الكبيرة التى تعيش فى منزل واحد ومن مورد واحد .

(٢) هذا المثل مأخوذ من « الأمثال العامية » لمحمد شكرى وهو مخطوط فى مكتبة تيمور بدار الكتب المصرية قمت بتحقيقه ومقابلته على كتاب تيمور ، وهذا المثل موجود عند تيمور بصورة تختلف قليلاً عند شكرى . والمثل عند شكرى أقرب إلى الصواب .

فى هذا التجمع الأسرى يتولد الشقاق بين النساء وبعضهن ذلك ؛ لأنهن يعشن فى المنزل ليلاً ونهارًا ولا يفترقن إلا للمصالح الوقتية ، ولسنا نريد الإطالة فى ذلك ؛ لأننا سوف نعود إليه عند الحديث عن الأقارب ، ولكن الذى يهمنا فى هذا المجال هو العلاقة بين الزوجة والحماة . . والواضح أيضًا أن هذه العلاقة يحكمها ظروف اجتماعية ونفسية ، ومن هنا تأتى الأمثال لتصور بدقة هذه العلاقة التى يحكمها الكره المتبادل بينهما فتقول الأمثال على لسان الزوجة «الكى بالنار ولا حماتى فى الدار» ، «طول عمرك يا خاله وإنت على دى الحالة» ، «بريه يا - ما من الحمة ولو كانت ملكة من السما» ، وفى بعض الأحيان تنعى الزوجة حظها وسوء بختها مع أهل زوجها فتقول : «من يوم ما ولدونى فى الهم حطونى» ، «يا دخلتى على اللى ما يريدونى لا سلامات ولا وحشتونى» ، «حطو على كلكم لما الهم خلانى لكم» ، وقد تتحداهم فتقول : «يا اشخ فى زيركم يا اروح ما آجى لكم» ، «ما دام معاى القمر ما على بالى من النجوم» ، «مطرود الدار ساكنها» . .

وتقول الأمثال على لسان الحماة : «عرق ورا الودن ما يحبش مراة الابن» ، «إذا كانت الغلة تيجى قد التبن كانت الحما تحب مراة الابن» ، «ما تيجى منقولة إلا الخربة

المزقولة» ، «عدوتى وعملت مغسلتى ؟ ! » وقد تتحسر الحماة على سوء اختيارها فتقول الأمثال على لسانها : «أخذت الغريبة عملتها خيه ، فتشت جروحى واتشمتت فى» ، «اتلفت بملايتها وراحت جابت عدوتها» . .

(جـ) المرأة وضرتها :

وإذا كانت العلاقات بين الزوجة وحماتها تعبر عن كثير من النفور وتبادل السباب والشتم فإن العلاقات بين الزوجة وضرتها وكذلك العلاقات بين «السلايف» لا تختلف ، فهى تقوم على الكراهية ، وهذا طبيعى ، لأن الضرة هى المنافس الحقيقى على قلب الرجل ، والواقع أن العداء بين (الضراير» أكبر بل وأخطر مما بين الزوجة والحماة ؛ لأن وجود الضرة يعد صدمة لأنوثتها وتهديدًا مستمرًا لحياتها الزوجية وإيذانًا بالمشاكل التى لا تنتهى «فالضرة مرة ولو كانت حلق جرة» فقد تقوم الضرة بالسحر للإيقاع بين الزوج وضرتها وتحس بها الأخرى فتقول لها شامتة «يا كاتبه يا ساحرة لا نايبك من الدنيا ولا من الآخرة »، وقد تنقلب العلاقات بينهما إلى ضرب من المهاترات فتقول لها فى المثل : «تاخدى جوزى وتغيرى ما تخيلى» وقد تندب سوء بختها الذى صدمها بهذه الداهية فتقول فى المثل : «يا ميلتى جاتنى دريرتى» لذلك يدعوها المثل إلى الصبر والتعقل حتى

يزول الكابوس فيقول : «اصبرى يا ستيت لما يخلى لك البيت» . .

وكذلك فإن المثل يصور بدقة موقف الضرة من ضرتها فوجود الضرة فى المنزل يبعث على التنافس على خدمة الزوج والقيام على شئونه والتودد إليه والتزين له ، فيقول المثل : «الضرة تعدل العصبة» فوجودها يجبر الأخرى على التزين . وقد تبلغ الكراهية للضرة حدًا كبيرًا ؛ ذلك لأنها فى ذلك الوضع لا تحس بغيرة حقيقية فتقول فى المثل «ألف رفيقة ولا لزيقة» . . .

ومن ناحية أخرى فإن المجتمع رغم اعترافه بهذا الوضع وإقراره شرعًا إلا أنه يعد مكروهًا ، فيقول : «يا واخدة جوز المرة يا مسخرة» فقد صورها المجتمع كالسارقة ، وهى فى هذا الوضع تبعث على السخرية والاشمئزاز ؛ ذلك لأنه من الأفضل لها أن تتزوج العازب الذى لا يرتبط بمسئوليات أو غير ذلك . .

ومن ناحية أخرى فإن الزوجة تكره «السلفة» ذلك لأن البيئات الريفية تفرض على «السلايف» العيش فى مكان واحد والتعامل اليومى مع البعض رغم ما يكون بينهن من اختلاف فى الطباع والميول ؛ لذلك يقول المثل : «السلفة داهية مختلفة» ، وقد تزداد الكراهية «للسلفة» حتى تفوق كراهية الضرة فيقول المثل : «مركب الضراير سارت ومركب السلايف غارت» ،

والزوجة تعرف أن كل مشاكلها تنحصر فى السلفة وبعضها يأتى عن طريق الحماة أما إذا كانت المشاكل لأسباب أخرى فهى محل دهشتها تقول فى المثل «لا ضرة ولا سلفة دى داهية مختلفة» فهى تعتقد أن الضرة أو السلفة أكثر الدواهى التى يمكن أن تنزل بها . .

(د) المرأة وجارتها :

العلاقة بين الجيران امتداد للعلاقات العائلية والأسرية فهى لا تختلف عنها بل إنه فى بعض الأحيان قد تفوق العلاقات الأسرية ؛ ذلك لأن المصرى اجتماعى بطبعه وكما يقولون فى العامية «عشرى» فهو يحب الذين يتعامل معهم وتزداد الألفة بطول التعامل ، ولما كان الجار هو أقرب الناس فهو الذى يسعفه فى أفراحه وأحزانه كما يتحمل جانبًا كبيرًا فى مسئولية العلاقات الاجتماعية فقد أعطى ذلك أهمية خاصة للجار بالإضافة إلى أن التعاليم الدينية تحث فى كل المناسبات على احترام الجار والإحسان إليه فقد قال الرسول فى الحديث الشريف «ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» . . .

فمن هذين المفهومين - الاجتماعى والدينى - تتكون العلاقات بين الجيران وتتكون الصيغ المثلية . فمن المفهوم الدينى تكونت الصيغ المثلية «الجار أولى بالشفعة» ، «النبى

وصى على سابع جار» ، «الجار ولو جار» وهذه الصيغ ربما كانت من الصيغ التى تقال فى المساجد وفى المواعظ وفى المآتم ومختلف العلاقات الاجتماعية . . .

وأيضًا فإن العلاقات الاجتماعية قد فرضت نوعًا من الارتباط والتكامل تولد عن المشاركة المصيرية التى فرضتها الجيرة فى السكن فيقول المثل : «لولاكى يا جارتى لانفقعت مرارتى» ، وربما كان ذلك انعكاسًا لطبيعة المرأة وغريزتها فى حب الاجتماع والمعاشرة وإقامة العلاقات والحفاظ عليها يقول ديورانت : «المرأة أشد ميلاً إلى الاجتماع والمعاشرة من الرجل وتحب الصحبة والمجتمعات وتستسلم فى سرور لإجماع الجماهير وهى أقل من الرجل قدرة على العزلة لذلك كانت المرأة أكثر ثرثرة ويقال إن المرأة لا تحفظ سرًا»[١] «وآخر ما يترتب على غريزة الاجتماع فى المرأة غرامها بالتأييد الاجتماعى ، فرأى جيرانها له وزنه بالنسبة إليها أكثر مما هو بالنسبة إلى الرجل ؛ لأن العلاقات الاجتماعية تمتص من حياتها الساعات التى لا تشغلها فى الحب والأمومة»[١] . .

وكذلك فإن الجيرة قد فرضت قبول الجار بكل ما فيه من

---

(١) مباهج الفلسفة - ول ديورانت ترجمة د . أحمد فؤاد الأهوانى ص ١٨٧، ١٨٩ ط ١٩٥٧ .

حسنات وسيئات ومن ثم يصبح الأمر الواقع هو الذى يسيطر على هذه العلاقات ، فالجار هو أول من يرى عيوب الإنسان وأسراره ، يقول المثل «جارك قدامك ووراك إن ما شاف وشك يشوف قفاك» فهو العين التى تلتقط العيوب سريعًا ؛ لذلك وجب على الإنسان أن يضع ذلك فى اعتباره ويقول المثل «الجار السوء يحسب الداخل ما يحسب الخارج » ، وقد ارتبط الحسد بالجيران يقول المثل «الحسد عند الجيران والبغض عند القرايب» ، «حسدتنى جارتى على طول رجليه» ، «لقمة جارى ما تشبعنى وعارها متبعنى» ، «جارنا السوء ما أرداه اللى معنا كله واللى معاه خباه» . . .

ومما لا شك فيه أن مثل هذه الآراء تعد نتيجة طبيعية للعلاقات المفروضة يقول المثل : «القبيحة ست جيرانها» . فهل يستطيع الإنسان أن يتخلص من جاره ؟ إنه قد لا يمكنه ذلك ومن هنا تكون السيطرة للقبيح الذى يعالج أموره مع جيرانه بالشدة والعنف . ومثل هذه العلاقات قد تفرض نوعًا من العزلة ، ولكنها فى الواقع لا تكون عزلة تامة يقول المثل : «صباح الخير يا جارى آل إنت فى دارك وأنا فى دارى» ، «قعدتى على أعتابى ولا قعدتى عند أحبابى» ، «زعل جارتى ولا خسارتى» ، وكذلك فإن العلاقات بين الجيران ليست هكذا دائمًا فهى أساسًا علاقات

قائمة على التعاون وتبادل المنافع والنجدة عند الشدائد وغيرها من التعامل اليومى يقول المثل : «الطويلة قضت حاجتها والقصيرة ندهت جارتها» ، وقد تصل العلاقات إلى درجة الإيثار على النفس يقول المثل «ادت سترتها لجارتها وقعدت تلاقى البرد فى جنتها» . .

الولادة :

إن عملية الولادة من المشاكل المهمة التى تواجهها المرأة ولقد حفلت بعض الأمثال النسائية بهذا الموضوع فتحدثت عن الحمل الأول و «النفاس» و «السقط» وكذلك «الوضع» ، ولما كانت عملية الولادة من أخطر المصاعب التى تواجهها المرأة فقد اهتم المثل بموضوع النقاهة ؛ لأن عملية الوضع قد تكلفها حياتها ، يقول المثل : «ولادة كل يوم ولا سقط سنة» وتصحب الولادة آلام تسمى «الطلق» وتسبب ضعفًا شديدًا يقول المثل «الست مامنهاش زادها الطلق والنفاس» على أن هذه الآلام قد تبلغ درجة كبيرة من العنف والشدة إذا كانت «بكرية» يقول المثل «الطلق حرب الصبايا» فالطلق عند المرأة التى تلد لأول مرة يكون عنيفًا قويًا مثله كالحرب عند الرجال . . .

والمجتمع يعرف أن آلام الولادة تتكرر كما يشعر بإحساس المرأة ورعبها من مواجهة هذه الآلام ، لذلك يخفف عنها هذا

الموقف ويقلل من شأنه فيقول فى أمثاله «أسى الولادة منسى» ، وهذه حقيقة تحس بها المرأة ؛ إذ إنه بعد أن تزول عملية الوضع وما يصاحبها من آلام سريعًا ما تنسى هذه الآلام . والمجتمع يعرف أيضًا أن تكرار الحمل وما يصاحبه من آلام وكذلك الرضاعة كل ذلك يصيب المرأة بالضعف كما يفقدها جمالها فنجده يقول إن المرأة لا يمكن الحكم على جمالها إلا بعد الحمل والرضاعة «ما تبان البضاعة إلا بعد الحمل والرضاعة» وهو يشترط تكرار ذلك حتى يمكن الحكم عليها بدقة ؛ ذلك لأن الحمل عند «البكرية» ، وكذلك الولادة لا تغير كثيرًا من المرأة فيقول المثل «البكرية زى العروسة المجلية» . . .

وكذلك فإن الحمل وما يصاحبه من تغييرات فى جسم المرأة وأمراض تلازمها تسعة أشهر يترك أثرًا على الطباع فيأتى المثل الشعبى ليخفف من أثر الحمل عليها فنراه يقلل من شأن المدة فيقول : «شهر وشهير والتانى قصير» ، ورغم ما يصاحب الحمل من آلام فإن هناك من النساء من يتباهين به ؛ لأنه لديها كالشارب لدى الرجل يقول المثل عنها «الحبلة تمشى وتتمايل وتحسب إن الحبل دايم» ويقول : «الدنية تتمنى وحمتها والهنية تستنى وجعتها» . . .

ومع ذلك فالإكثار من الحمل والولادة له نتائج سيئة يحذر منها المثل فيقول : «من ولد ولد والتانى بقى عجوز فانى» .

١ - **التربية :**

يقول المثل «اللى خلف ما ماتش» ، «اللى خلف ما مات يلف العمامة ويمنع الوارث» ، «اللى يخلف ويموت كأنه ما ماتش» ، ويقول «اللى مالوش ولد عديم الدهر والسند» هذه الأمثال تمثل حقيقة واضحة فى الحياة الزراعية منذ العصور القديمة فهى تعتمد على كثرة الأيدى العاملة كعنصر مهم من عناصر الإنتاج يقول المثل «أكلهم تجارة ولبسهم خسارة» ، فالإكثار من الأولاد والنسل كان هدفًا يبتغونه ويسعون إليه ؛ ذلك لأن الأولاد فى هذه الأزمنة القديمة لم يكونوا عبئًا على آبائهم وذويهم وإنما كانوا عونًا لهم ، فكلما كثر الأولاد كلما زادت الأيدى العاملة فى الحقل فيساعد الأولاد آباءهم فى شئون الزراعة وفلاحة الأرض ويجد فيهم كسبًا اقتصاديًا وبذلك يصبح أمر الزواج وإنجاب الأولاد كشركة تدر ربحًا[(١)] . .

هذه الصورة التى عند المصريين القدماء لم تختلف فى العصور الحديثة كثيرًا وخاصة فى البيئات الشعبية والريفية التى لم تجد وسيلة رأسمالية - ميسرة لديها دون مشقة كبيرة - غير الجهد البشرى ، ولكن هذه الصورة المادية لم تقلل من قيمة العلاقات الإنسانية بين الأبناء والآباء بل إن علاقات الرحم تكاد

---

(١) تاريخ الحضارة المصرية ١/ ١٤٩ .

تفوق ما عداها من علاقات اجتماعية . يقول لين : «مهما يكن تدليل الأطفال والولوع بهم عظيمًا فهؤلاء يكنون ويظهرون لأبويهم احترامًا عميقًا خليقًا بالمدح ، ويعتبر المسلمون العقوق من أعظم الخطايا ، وقلما ترى فى مصر أو فى العرب من لا يطيع والديه ، ويصطبح الطفل فى الطبقات الوسطى والعليا بتقبيل يد أبيه ثم يقف أمامه باحترام وخشوع حتى يصدر إليه أمرًا أو يسمح له بالانصراف . ولكن العادة جرت أن يقبل الأب ابنه ويلاطفه . ولا يقل احترام الطفل لأمه عنه لأبيه وكذلك احترام أفراد العائلة الآخرين بمقتضى سنهم وقرابتهم ومركزهم ومن هنا تنشأ فى الطفل السهولة واللباقة فى تصرفاته»[1] .

ولقد حفلت الكتب بالنصائح التى وضعها الحكماء أمام الأبناء يقول بتاح حتب : «ما أجمل طاعة الابن المطيع يأتى ويستمع مطيعًا . إن الطاعة هى خير ما فى الوجود ، كم هو جميل أن يطيع المرء أباه فيصبح أبوه من ذلك فى فرح عظيم ويغدو هذا الابن رقيقًا لينًا عندما يكون سيدًا وكل من يستمع إليه يطيعه ويوقره أبوه وتكون ذكراه خالدة فى أفواه الأحياء الذين يعيشون على الأرض طول حياتهم ، ما أطيب أن يأخذ الابن عن أبيه ما أوصلته إليه الشيخوخة ، فإذا تقبل الابن كلام أبيه بقبول

---

(١) المصريون المحدثون ص ٥١ .

حسن وتنبه وأطاع . فإن الابن يكون حكيمًا وتكون أعماله موفقة»[1] ، يأتي المثل ليؤكد هذه الحكمة فيقول : «احترم أبوك ولو كان صعلوك» ولذلك أيضًا قال المثل على لسان الابن «العز بعد الوالدين هوان» . . .

وكذلك يرسم بتاح حتب الطريقة المثلى لتربية الطفل فيقول : «إذا كنت رجلاً عاقلاً فليكن لك ولد تقوم على تربيته وتنشئته فذلك شيء يسر له الرب . فإذا اقتدى بك ونسج على منوالك وإذا هو نظم من شئونك ورعاها ، فاعمل له كل ما هو طيب ل؛ أنه ولدك وقطعة من نفسك وروحك فإذا ركب رأسه ولم يأبه لقواعد السلوك فطغى وبغى وتكلم بالإفك والبهتان فقومه بالضرب حتى يعتدل شأنه ويستقيم قوله وباعد بينه وبين رفقاء السوء حتى لا يفسد فإن من يسير على دليل لا يضل»[1] ، وتأتي الأمثال لتعبر عن هذه الحكمة فتقول «ابنك حتة من كبدك» ، «ابنك إنت زيك إنت» ، «الزم ابنك وربيه» ، «إن كان بدك تعرف ابنك وتسيسه اعرفه من جليسه» وهذا ما دعى المثل العامى إلى القول على لسان الأب «اللى منى ما يخلى من همى» . .

وعلى ذلك فلم تكن العلاقات بين الأب والابن غير إنسانية ولكنها علاقات تعتمد على احترام الأب والعطف والحنان للابن

---

(١) تاريخ الحضارة المصرية ١/ ١٤٩ .

وهذا ما دعا «ديودور الصقلى» فى كتابه عن تاريخ مصر إلى أن يقول : «إن الآباء ملزمون بتربية أولادهم جميعًا أى من غير وأد لبعضهم بتركهم فى العراء كما كان الحال عند اليونان لزيادة تعداد السكان ، فقد رأوا أن ذلك يزيد عمار البلاد والمدن» .

وقد أخذت الأمثال بدور المرشد إلى التربية الصحيحة وهى تعتمد فى ذلك على مصدرين أساسيين هما : العادات ، والتقاليد ، التى تكونت وشكلت الطباع المصرية منذ عهد القدماء المصريين وكذا الأخلاقيات التى تكونت تحت ظل الحكم الإسلامى ، وإذا كنا قد رأينا الملامح المصرية القديمة فى بعض الأمثال فإن غالبية الأمثال لا تخرج عن كونها عادات وأخلاقيات تكونت فى ظل الإسلام فقد قالت العرب : «من أدب أولاده أرغم حساده» ، «من أدب ولده صغيرًا سر به كبيرًا» [(١)] ، وهذه الصورة نجدها بنصها فى المثل العامى الشائع حتى الآن الذى يقول : «أدب ابنك صغير تفرح به كبير» وقالت العرب : «من شابه أباه فما ظلم» [(١)] ، يأتى المثل العامى ليأخذ هذا النص فيقول «اللى ما يطلع لأهله يبقى ابن حرام» ، وقال الشاعر :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

---

(١) حدائق الأمثال .

يأتى المثل العامى فيقول «الابن ينشأ على ما كان والده عليه» . هذه الصورة التى انتقلت بحذافيرها تؤكد المصدر الإسلامى الواضح في تكوين المثل . .

ولقد اهتمت الأمثال بموضوع التربية فأشارت إلى أهمية الأدب حتى إن المجتمع الشعبى فضله عن العلم فقال المثل : «الأدب فضلوه عن العلم» ويقول : «الأدب خير ميراث» ، «الأدب مطلوب» ، «الأدب أفضل من النسب» ، «أدب عيالك تنفعهم» ، «الأدب رسمال» ذلك لأن الأدب سوف يحفظ كرامة الأب ويصون علاقاته الاجتماعية يقول المثل «أدب الابن يحفظ كرامة الوالد» ويقول : «عيب الولد من أهله» . .

فالمجتمع يعرف أن الابن صورة لما عليه بيئته الأسرية والمجتمع يعرف أن سلوك الابن يعتمد على تربيته فيقول للأب : «ابنك على ما تربيه» ، «اللى فى البزازات بترضعه الولادات» ، فأصل الابن ونشأته هى الأساس فى العلاقات الاجتماعية يقول المثل ساخرًا من سوء التربية : «إذا كان أمك البصل وأبوك التوم منين تجيك الريحة الطيبة يا مشؤوم» ويقول المثل مؤكدًا انعكاس التربية على السلوك الاجتماعى : «ابن العز يتعزز وابن الذل يتذلل» ، «اللى ما يترباش على سفرة أبوه عمره ما يشبع»[(١)] ،

(١) يراعى أن اللغة العامية لا تهتم بقوانين النحو من رفع ونصب وغير ذلك .

«ابن عبد الغفار ما ينامش إلا على الأحجار»[1] ، «اللى أبوه كلب لازم يعوى» . .

ومن ناحية أخرى فقد اهتمت الأمثال باتخاذ الشدة فى التربية ذلك لأنها واجبة فى التقويم والتهذيب يقول المثل : «اضرب ابنك واحسن أدبه ما يموت إلا لما يفرغ أجله» ، «اكسر للعيل ضلع يطلع له اتنين» ، «ابنك فضله فى الأكل والكسوة واضربه للتربية والنشوة» إذا كانت هذه الشدة مطلوبة وهنا أيضًا ترسم الأمثال طريقة مثلى لمواجهة هذا الوضع الجديد فتقول الأمثال «إذا طلعت دقن ابنك احلق دقنك» ، «ابنك وهو صغير ربيه ولما يكبر خاويه» ، «إن كبر ابنك خاويه» . .

هذا وقد حذرت الأمثال أيضًا من فساد التربية وقد يكون ذلك ناتجًا عن عدم وجود الأب فيقول المثل : «اللى من غير أب يلطف به الرب» ، ويقول : «عمر المرة ما تربى عجل وينفع» ذلك لأن التربية منوطة بالأب وقد يكون ذلك ناتجًا عن كبر الوالدين وفقدانهما السيطرة على الابن فيسخر من ذلك فيقول : «ابن الكبر والشيب إن ادلع ما هوش عيب» ، وقد يكون ناتجًا عن فشل الأهل فى التربية وعندئذ سوف تصدمه الحياة

---

(١) يضرب فى تدليل الولد المحبوب - الحدائق .

بكوارثها ومشاكلها فيقول المثل : «اللى ما تعلموش أمه وأبوه تعلمه الأيام والليالى» ، ويقول : «آخر الدلع الندامة» كما حذرت الأبناء من العصيان فتقول : «الأب رب» ، «اللى ما يسمع كلام والديه غضب الله عليه» ، «اللى ما يعرف أبوه ابن حرام» . .

ب - الأم مع الأبناء

تتمتع الأم فى الأسرة المصرية بمركز كبير ؛ إذ إنها تقوم بدور كبير فى بناء الأسرة ويقع على عاتقها مسئولية كبيرة فى الحفاظ عليها ، فهى التى تقوم على تربية الأبناء وترعاهم حتى يستطيع الفرد منهم أن يعتمد على نفسه فى حياته ، وتظل الأم تؤدى واجبها نحو الأبناء حتى بعد استقلالهم . والواقع أن كثيرًا من المشاكل التى تقع بين الأم وزوجة ابنها تكون نتيجة للعطف الزائد على الابن والحرص على سعادته ، ورغم أن هذا العطف قد يؤدى إلى نتائج عكسية إلا أن ذلك لا يدفع الأم إلى أن تنعزل على ابنها . كما أن الأسرة المصرية تعتمد على تعاطفها وتماسكها على موقف الأم ومشاعرها ، يقول المثل : «اللى بلا أم حاله يغم» ، «اللى تموت أمه يا سواد خده» ، وكذا فإن حنان الأم لا يدانيه شيء «اللى عند أمه ما ينحملش همه» . . .

ولقد أشارت الأمثال إلى مشاعر الأم وحنانها فى كثير من المناسبات فهى ترى فى أولادها قطعة منها يقول المثل على لسان الأم : «أسيادى وأسياد أجدادى اللى يعولوا همى وهم ولادى» ، «من طعم صغيرى بلحة نزلت حلاوتها فى بطنى» ، «القرد فى

عين أمه غزال » ، والعلاقة بين الأم وأبنائها علاقة روحية من نوع خاص ، على أن الأم وهى فى حالة غضبها لا تنسى أمومتها وأن الثورة والغضب لا يمكن أن ينتزعا الحنان من قلبها وهى تعلم هذه الحقيقة لذلك فقد عبرت عنها فى أمثالها فقالت : «أدعى على ابنى وأكره اللى يقول آمين» ، «أضرب ولدى وأكره اللى ما يحوشنى» ، «أضرب ابنى بالسكين وأكره اللى يقول آمين» ، «ما تدينى ولدى تحت خلقى» ، إن مثل هذه الأقوال تعكس بصدق حقيقة مشاعر الأمومة فى ساعات الغضب والثورة ، يؤكد ذلك المثل الذى يقول : «البطن ما تجبش عدو» . ولقد انعكس هذا الإحساس على الأبناء حتى فى وقت غضبهم على أهليهم يقول المثل : «اضرب ابنى ينكفى فى حجرى» ، «ابن بطنى يفهم رطنى» . .

ولئن تسبب الأبناء فى كثير من المشاكل لأهليهم وعبر المثل عن ذلك بقوله «ما جابهمش قلب وارتاح» إلا أن مشاعر الأمومة نحو الأبناء واضحة فهى تحب الخلف تقول فى المثل «جر السحلية ولا قطع الدرية» وتحب الأبناء وتحنو عليهم ولا ترى فيهم إلا الحسن والكمال يقول المثل : «الخنفسة عند أمها عروسة» ، «خنفسة شافت بنتها ع الحيط قالت دى لوليه فى خيط» . .

١ - مع البنت :

إن استعراض الأمثال التى تتحدث عن مشاعر الأم نحو ابنتها تشير إلى أن البنت تتمتع بحب أمها وأن ولادتها خير وبركة لأهلها يقول المثل : «أخير الناس اللى تبكر بالبنت» وهى امتداد طبيعى للأم وقد ذكر المثل الشعبى ذلك فقال : «اكفى القلة على فمها تطلع البنت لأمها» ، فغالبًا ما تنشأ البنت على طريقة أمها من خير أو شر ويقول المثل «بنت الحراته تطلع دراسة» كما أن أثر التربية يظهر أول ما يظهر فى البنات ؛ ذلك لأن الأم بطبيعتها قوامة على البنت وأكثر معرفة ببنى جنسها وظروفها يقول المثل : «اللى لها أم ما تقبحش» . .

والواقع أن الأم تفرح لوجود البنات بجانبها ذلك لأنهن يسعدنها فى خدمة المنزل كما يشاركنها مشاعرها ويؤنسنها ، يقول المثل : «اللى يسعدها زمانها تجيب بناتها قبل صبيانها» ، «اللى مالهش بنية تصبغ أياديها تعيط بحرقة والناس تعزيها» .

فإن هذه المسئولية الكبيرة قد جعلت الأم قلقلة على مصير بناتها ؛ لأنهن يحتجن لرعاية خاصة فلقد بذرهم الله «وايده خضرة» كما يقول المثل : «بدرهم وايده خضرة» . . .

ولقد عكست مجموعة من الأمثال المشاعر الاجتماعية تجاه «خلفة البنات» ، يقول المثل : «يا مخلفة البنات يا دايخة

للممات»[1] فهى التى تحمل همومها صغيرة وزوجة ، ويعكس المثل «اكبرى يا بنتى والنصيب كتير» مشاعر الأم القلقة على مستقبل ابنتها ويدعو آخر إلى الأمل فى المستقبل والاعتماد على الله فيقول : «أم واحدة ربنا محيرها وأم عشرة ربنا مدبرها» ، «بكره يروح البراز والبول ويبقوا صبايا عليهم القول» ويحذر المثل أيضًا من الإهمال فى تربية البنت والعناية بها فيقول للأم : «جوعه على جوعه تخلى الصبية زوعة» . .

وكذا فإن المثل يرسم بعض الصور لتعليم البنت الأعمال المنزلية فيهاجم البنت الغبية فيقول : «فى الأكل سوسة وفى الحاجة متعوسة» ، «قامت الحمارة وقعدة الشرارة» ، «ترضع وتشخ وتاكل المخ» . ومما لا شك فيه أن عناية الأم بالبنت ينعكس على مشاعرها مع أمها فهى لا ترى فى الحياة قدوة إلا أمها يقول المثل : «ألف عين تبكى ولا عين أمى تدمع» . .

٢- مع الولد :

تتحدث الأمثال عن العلاقة بين الولد وأمه فتشير إلى أن الأم تعطى الولد أهمية كبيرة . والواقع أن الأمثال عندما تعطى أهمية أكثر للولد إنما تعكس النظرة الاجتماعية للأبناء التى تبين الوضع

---

(١) للمثل صورة أخرى «أم البنات حبلة للممات» .

المتمايز بين الولد والبنت ويقول لين : «يفوق الاحتفال بمولد الذكر الاحتفال بمولد الأنثى دائمًا ولا يزال العرب يظهرون آثارًا من هذا الشعور الذى كثيرًا مما دفع أسلافهم إلى إبادة بناتهم»[1] ، فالوضع الاجتماعى للذكور وما يتحملونه من مسئوليات لا تطالب بها البنات قد أعطى لهم أهمية خاصة . . .

كما أن الحقيقة العلمية قد أكدت أهمية العناية بالذكور وخاصة فى المراحل الأولى من حياتهم «فمن المقرر فى بحوث الديموجرافيا أو علم إحصاء السكان أن ذكور الآدميين بحسب طبيعتهم أكثر تعرضًا للوفاة من الإناث فى أثناء الولادة وفى الطفولة الأولى كما تدل على ذلك الإحصاءات الخاصة بوفيات الأطفال فى جميع الشعوب الإنسانية ، وأنه يترتب على ذلك أن عدد من يبقى على قيد الحياة إلى نهاية هذه المرحلة من الإناث أكثر ، وأن هذه الظاهرة متحققة حتى فى الشعوب التى يزيد فيها عدد المواليد من الذكور على عدد المواليد من الإناث ، وقد أصبحت هذه الحقيقة من أوليات الحقائق الاجتماعية ، بل لقد عرفها الناس بالملاحظ منذ عصور سحيقة فى القدم من قبل أن يكشفها العلماء بالإحصاء وسجلت فى الأمثلة العامية المتداولة

---

(١) المصريون المحدثون إدوارد لين ترجمة عدلى نور ٣٨٠ .

فى جميع الشعوب . ففى مصر مثلاً يتداول الناس هذا المثل العامى «جدار البنت على المعين وجدار الولد عايم» فيشبه هذا المثل البنت فى قوة مقاومتها للأمراض وغيرها بشجرة وصلت جذورها إلى المياه الجوفية فى الأرض وهو ما يسمونه «المعين» فأصبح أصلها ثابتًا قويًا وأصبحت شديدة المقاومة للعواصف والعوارض الجوية ، كما أصبحت فى غير حاجة إلى تعهد الناس لها بالسقى ، ويشبه الولد من الذكور فى ضعف مقاومته وشدة حاجته إلى الرعاية وتعرض حياته للأخطار بشجرة ضعيفة جذورها عائمة على وجه الأرض[١] ويقول المثل : «البنات تحتهم عفاريت» والملاحظ أن تجربة الإنسان هى التى تدفعه إلى ممارسة حياته وهى التى توجه اهتماماته وتؤكدها ومن الطبيعى أن يزداد حرص الأهل على الابن الذكر لما يواجهه من عقبات فى حياته الأولى وعلى ذلك فليس المجتمع المصرى فريدًا فى هذه الخصلة . .

ولقد أكدت الأمثال شدة الاهتمام بالولد فتقول : «لما قالوا دا ولد شد ظهر أمه وانسند»[٢] ، ولما قالوا دا غلام شد ظهر أمه

---

(١) مشكلات المجتمع المصرى والعالم العربى - د . على عبد الواحد وافى - مكتبة النهضة ١٩٥٨م ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) المعنى أنه عندما علمت الأم بالمولود نسيت آلام الوضع وقويت ومعنى « انسند » أى أن الولد سند ظهر أبيه .

وقام»[1] ، «يا ريت على الطلق الشديد غلام ما تكونش بنية وتشمت الجيران» ، «يا ريت الطلق كان ملان» ، ربنا يبعث للعويلة ولد تقعد جنبه وتسند» فالولد يمثل الأمل عند الأهل وخاصة الأم التى تتحمل جزءًا كبيرًا من المسئولية يقول المثل «أم بربور تجيب الشاب الغندور» ، «بكره يروح الخرا والبول ويبقى راجل عليه القول» . ولذا فإن الاهتمام بميلاد الولد قد قلل من منزلة البنت يقول المثل «اللى تحت الطرحة مالهاش فرحة» . .

(١) معنى قام « قام يرفع رأسه فى المجتمع » ، وربما كان ذلك مهمًا فى المجتمعات البدوية والريفية . . ويقال المثل بصيغة أخرى مغايرة وهى « لما قالوا دا غلام قلت يا دى الليلة الضلام بكره تأخذه بنت الحرام وتعيشنى عيشة ضلام » .

جـ - الأب مع ابنائه

الأب أحد العناصر المهمة التى تتكون منها الأسرة المصرية ، وعليه تقع المسئولية الأولى فى بناء الأسرة والحفاظ عليها وإليه تنتسب وعليه تعتمد ماديًا وأخلاقيًا وتربويًا ؛ لذلك فقد ازدادت أهمية الرجل وتمتع بالمركز الكبير فى الأسرة وفى المجتمع . والواقع أن الصورة التى يظهر عليها الرجل فى الأسرة وفى المجتمع تنعكس على كليهما خيرًا أو شرًا . وفى الأسرة المصرية حيث يمثل الأب المورد الأول نراه يتمتع بالاحترام والتوقير من الزوجة والأبناء ، ومن ثم أطلق عليه «رب الأسرة» وما زال الأبناء حتى الآن ينسبون إلى آبائهم فيقال : «ابن فلان» ليكون تعريفًا بالشخص بدلاً من ذكر اسمه المجرد . . .

وحتى عهد قريب لم يكن ينظر المجتمع إلى الابن إلا من خلال النظرة إلى الأب ، هذا الواقع كثيرًا ما يرى فى الأوساط الشعبية والريفية ؛ حيث تكبر الأسرة وتتعقد فى تركيبها ، فعلاقات الابن الاجتماعية تنبنى على أساس علاقات الأب الاجتماعية ، يقول المثل : « حبيب أبوك حبيبك وإذا عديته» . .

ولقد اهتمت الأمثال بتنظيم العلاقة بين الأب وسائر أفراد الأسرة وخاصة مع الأبناء وتتحدث عن العلاقات بين الأب

والابن فى مختلف المجالات ، كل فى حدود ما هو مطلوب منه، ويرسم هذه العلاقات الوضع الاجتماعى العام . فلا يمكن النظر إلى الأمثال التى تنظم هذه العلاقات إلا من خلال الوضع الأخلاقى والتربوى فى المجتمع . فالمجتمع المصرى لا يؤمن - حتى وقت قريب - باستقلال الأبناء عن أسرهم فهو يطالب الأبناء باحترام الآباء ويأتى المثل ليعبر عن ذلك فيقول : «وصى بالوالد ما وصاش بالمولود»[1] ، «اللى أبوك عليه إنت عليه» ، «اللى ماله خير فى أباه يا غريب ما تسترجاه» ، ويرى فى الأبناء صورة لآبائهم : «فالابن سر أبوه ، ويقول المثل : «قبل ما يشوفوه قالوا كويس زى أبوه» ، «قبل ما شافوه قالوا حلو القوام زى أبوه» ، «قبل ما ولدوه قالوا عريض القفا زى أبوه» . .

ومن ثم يهتم المجتمع بأصل الابن وموروثاته فيقول المثل على لسان الابن «قال يابا شرفنى قال أما يموت اللى يعرفنى» وينعى على من ورث عن أهله الفقر فيقول : «اللى ما تخلف له الجدود يا طول لطمه على الخدود» ، «أبوك خلف لك إيه قال جدى ومات» ، «أبوك ما خلف لك عمك ما يديك» فكما يتضح نرى المثل يحفل بالنسب ويهتم بالأصول ويتحدد الوضع

(١) الضمير يعود إلى « الله » أى أن الله أوصى فى القرآن الكريم بالوالدين فقال « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا . . .» الآية .

الاجتماعى للابن إلى حد كبير على هذا الأساس وربما كان ذلك إحدى مخلفات العصر الإقطاعى الذى يهتم بالوضع الطبقى والعصبيات باعتبارها من العوامل المهمة فى تشكيل الوضع الاجتماعى للفرد . .

وكذا فإن الاهتمام بالمال يلعب دورًا كبيرًا فى نظرة المجتمع إلى الولد فالوضع المادى للأب يحدد الظروف الاجتماعية التى يمكن أن يعيشها الابن يقول المثل : «اللى يدفع القرش ابنه يزمر» ، «معاك مال ابنك ينشال ما معاكش ابنك يمشى» . .

والمثل يهتم بتربية الابن فينصح الأب بأن يدقق فى تربية أولاده فيقول «إدى ابنك للى له أولاد» ويقول : «ابنك اللى من صلبك» كما يحذره من التمادى فى الإنفاق على ولده وخاصة عندما يمكنه أن يستقل بحياته فيقول : «اللى تجوزه أمه وأبوه يهون عليه الطلاق» إن ذلك سوف يجعله يفرط فى حياته ومستقبله ، كما أن الواقع يقول مع المثل «إذا كان ابنك فى بيتك النهاردة بكره يبقى جارك» ، ورغم هذه التجارب التى وضعها أمام الأب فقد اعترف المثل بأن لكل قاعدة شواذ ولكن لا يمكن القياس عليها فالمفروض أن يكون ابن العالم مثله ولكن قد تتغير هذه القاعدة فيقول المثل «يخلق من ظهر العالم فاسد ومن ظهر الفاسد عالم» ، «إن فلح الخايب يعمر بيت أبوه» . .

والواضح أن الأمثال لم تتحدث عن هذه العلاقات إلا فى حدود ما ينبغى أن يكون وذلك فى نطاق البيئة والمجتمع والعادات التى تحكمها ، فالملاحظ أن المجتمع يهتم بالوضع الطبقى للأسرة وكذا الوضع المالى ولا ينسى فى غمار هذا الاتجاه المادى أن يركز على الجانب الأخلاقى فى التربية ، وربما كان هذا الاتجاه المادى أن يركز على الجانب الأخلاقى فى التربية ، وربما كان هناك بعض الأمثال النادرة التى قد تدل على تمزق أسرى كالمثل الذى يقول : «إن خرب بيت أبوك خد لك منه قالب» أو المثل الذى يقول : «إن جه عليك البحر طوفان حط ابنك تحت رجليك» ربما كان هناك مثل هذه الأنانية ولكنها شذوذ يؤكد القاعدة التى تشير إلى شدة ترابط الأسرة المصرية كما تشير إلى الاحترام الزائد الذى يكنه الابن لأبيه وكذا الحنان والعطف الذى يضفيه الأب على أولاده ، مما ساعد على ترابط الأسرة واتحادها فى وجه تقلبات الزمن وعقابته . .

ومن ناحية أخرى فقد اهتمت الأمثال بالإشارة إلى نوع العلاقات بين الأب وابنته . فالبنت كما يرى المجتمع فى أمثاله مصدر للخير والبركة فيقول «أبو البنات مرزوق» ، «اللى ما عندوش بنات ما يعرفوش الناس إمتى مات» والواقع يؤكد هذا الاتجاه فالملاحظ أن البنات أكثر برًا بآبائهن وأهلهن ومن هنا لا يرى المثل إلا واقعًا يسجله . .

وكذلك فقد اهتم المثل بزواج البنت فرسم أمام الأب الطريق الذى يجب أن يسلكه فيقول : «إن كان بدك تصون العرض وتلمه جوز البنت اللى عنيها منه» ، «إن جوزت بنتك غريبة حضر لها حمارة وزكيبة» ، «اخطب لبنتك ولا تخطبش لابنك» ، «اللى ما بدوش يجوز بنته يغلى مهرها» . .

وكذلك فقد عكست الأمثال القلق والاضطراب الذى يشاهد عندما يفشل الزواج فيقول المثل : «خلف البنات يحوج لنسب الكلاب» أو عندما تصبح البنت عانسًا فيقول : «البايرة أولى ببيت أبوها» ، «الوحشة فى بيت أبوها تترد» ، «البنات بسبع وجوه» ، «البنات مربطهم خالى» ، وأيضًا فإن المجتمع يهتم بالأصل وخاصة فيما يتعلق بالزواج يقول المثل : «اللى راسها بتوجعها صيت أبوها ينفعها» ، «بنت الأكابر غالية ولو تكون جارية» ، «اقعدى واتربعى ياللى الزمان ما ذل عقلك ، إن لبست خيش ولا حرير اسم أبوك يليق لك» . . .

والواقع أن هذه الأمثال تؤكد الحقيقة القائلة بأن البنت تأخذ قدرًا كبيرًا من الاهتمام ؛ ذلك لأنه فى المجتمع المحافظ كالمجتمع المصرى تصبح تربية البنت والمحافظة عليها من أهم المشاكل التى تواجه الأب ففى هذا المجتمع لا يوجد هناك من يرحم الأب الذى يهمل فى المحافظة على البنت لذلك يدعو

المثل إلى التشدد فى تربية البنت فيقول : «اكسر للبنت ضلع يطلع لها اتنين» . إن الولد الفاشل قد لا يكون مصدرًا للعار أو الذل ولكن البنت التى قد تلحقها إشاعة خاطئة تتسبب فى ذلة أهلها وقد تمزق شمل الأسرة وتهدم كيانها لذلك قيل فى المثل «أم البنات حبلة للممات» . .

ولقد عكست الأمثال الاهتمام الشعبى بترتيب الأبناء فربما تختلف النظرة إلى الأبناء تبعًا لدورهم فالابن الأكبر يحظى بكثير من الاهتمام وقد يحظى الابن الأصغر بذلك ، ولئن كان الاهتمام الشعبى بالأبناء قد وصل إلى درجة كبيرة من القوة إلا أن ذلك لم يمنع الأب من الميل أو المفاضلة والواقع أن البيئة الشعبية التى يظهر فيها الجهل والفقر بصورة حادة قد اندفعت إلى التفاضل تحت وطأة الحاجة وساعد على ذلك الاتجاه إلى اعتبار الأبناء أحد موارد الرزق ؛ لذلك يزداد الاهتمام بالابن الأكبر باعتباره الساعد الأيمن لأبيه يقول المثل : «أحسن شيء الولد البدرى والزرع البدرى» حتى يستطيع الأب أن يلقى بجزء من عبء الأسرة عليه فإذا افتقد الثقة فى الابن فقد الثقة فى سائر الأبناء يقول المثل : «اللى ما فلح البدرى هيجى المستأخر يجرى» . .

وكذلك يهتم المجتمع بكثرة الأبناء باعتبارهم من عوامل

العصبية والعزة الاجتماعية يقول المثل : «لا إيد تسقف لوحدها ولا وحدانى يكيد رجال» ، «عمر الوحدانى ما يكيد عدو» . وأيضًا فإنه يكثر الاهتمام بالابن الأخير يقول المثل : «آخر العنقود سكر معقود» أو يقول : «مفيش على الحجر غيره» .

الإخوة مع بعضهم

وإذا كانت العلاقة بين الأب وبنيه - كما يشير المثل - تميل إلى المادية والواقعية باعتبار أن الأبناء «الأكل فيهم تجارة» ومورد مهم للرزق والإنتاج ، فإنها كانت كذلك بين الأبناء مع بعضهم ودائمًا لا تنظر الأمثال فى هذه العلاقات إلا إلى ناحية المصلحة ولكن ذلك لا ينفى علاقات الرحم والارتباطات الروحية التى تخلق من الأسرة - وخاصة الأسرة المصرية - وحدة متماسكة متجانسة فى وجه تقلبات الزمن وفى وجه العصبيات الأخرى فالأبناء كما يقول التعبير الشعبى «عزوة» و «أملة» يتمناها الناس على اختلاف طبقاتهم وميولهم وقد ترتب على ذلك شدة العناية بشئونهم والاهتمام بتربيتهم على أساس من التعاليم الإسلامية التى تدعو إلى احترام الأخ الأكبر والرحمة والحنان بالأصغر . . .

ولقد فرض التكافل الاجتماعى على الأبناء أن يقوم كل بدوره فى سبيل سعادة الآخرين ، الغنى يساعد الفقير ويعاونه على العيش ، والقوى يعاون الضعيف ، وإذا كان المجتمع قد يتشدد فى معاونة الغرباء فإنه بالضرورة يكون أكثر تشددًا فى تعاون الأخوة . فالمجتمع يشك فى إمكانية استفادته - كمجتمع

يدعو إلى التعاون - من الشخص الذى لا يساعد أخاه يقول المثل «اللى ماله خير فى أخاه ، الغريب ما يسترجاه» . .

كما أن علاقات الرحم بين الأخوة قد تفوق سائر العلاقات الأسرية الأخرى «الابن مولود والجوز مردود والأخ منين يعود» ، «أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب» . . فالعلاقة التى بين الأخ وأخيه علاقة رحم لا يمكن أن تنفصم ؛ لأنها من أصل واحد فمهما حدث من الأخ من أضرار تلحق بالآخر كل ذلك لا يمكن أن يفصل علاقة القربى ، لذلك فما يلحق بالأخ تنعكس آثاره على الآخر يقول المثل : «أخته فى الخمارة وعامل إمارة» .

والواقع أن الأمثال التى تعطى المفهوم المادى النفعى لا تتحدث عن الأخوة الصغار الذين يعيشون عالة على أسرهم ولكنها تتحدث عن الأخوة الذين استقلوا فى حياتهم وكونوا أسرات وأصبح كل منهم يسعى وراء معاشه بصورة مستقلة ، فلا يمكن أن تتحدث هذه الأمثال التى تعتمد على المنفعة إلا عندما يكون هناك استقلال مادى ، فالاستقلال المادى يتبعه استقلال أسرى ويصبح كما يقول التعبير العامى : «كل ما نوا فى حاله» أو كما يقول المثل «مصيرك يا أخ جار» ، «إحنا أخوات وربنا خلق وفرق» لذلك يؤمن المجتمع بالاستقلال وذلك فى فترة

ما من الحياة ، يقول المثل : «أخوك ما هو أخوك وأبوك ما هو أبوك» . .

وكذلك فإن المجتمع يرى فى الأخ وسيلة للمنفعة يقول المثل : «الأخ الصالح فخ للمصالح» ، «الأخ جناح» هذه الأمثال تصور وجهًا من وجوه التعاون والاعتماد الضرورى لقيام العلاقات بين الأخوة يقول المثل : «أخوك اللى يواسيك فى الشدة» ، «أخوك اللى يصدقك النصيحة» ، إن المجتمع لا يرى فى الأخ إلا عنصرًا من العناصر المعاونة فى الحياة وله دور لا يجب الإقلال منه وعليه واجبات إن لم تكن مادية فقد تكون أخلاقية . .

وكذلك فإن العلاقات الاجتماعية بين الأخوة يمكن النظر إليها من زاوية المصلحة فالمصلحة ترى ضرورة التعامل بينهما على قدم المساواة ولا ينبغى أن ينتج عن صلات الرحم ما يسىء إلى التعامل ، ولا يجب استغلال صلات الرحم بصورة ظالمة لذلك يقول المثل : «إن كنتم إخوات اتحاسبم» وعلى أساس المنفعة تتحدد العلاقات بين الناس وكذا بين الأخوة ولكن ما لون هذه المنفعة ؟ هل تقوم على أساس الاستغلال ؟ أو هل تقوم على أساس التعاون ؟ أو هل تقوم على أساس العصبية ؟ إن المنفعة المطلوبة من الأخ ربما كان أساسها التعاون بنسب متفاوتة

كما تقول الأمثال «أخ ما ينفع حط فى النعش وادفع» ، «قال الأبقى الأخ ولا الصاحب قال الأنفع فيهم» ، «كل غريب صح خير من الأخ» ذلك لأن المجتمع يكره الاستغلال ، يقول المثل : «من كان عشاه من دار أخيه يا عشا الشوم عليه» . .

ولكن هل تخلو العلاقات بين الأخوة من غيرة أو تنافس ؟ إن الواقع يخالف هذا والأمثال التى تعبر عن الطبيعة اليومية للمجتمع تتحدث بصدق عن ذلك فيقول : «أخوك لا يحبك غنى عنه ولا تموت» وتقول : «إن كان بخت فى حجر أختى أخطفه وأجرى» ، ويظهر ذلك كثيرًا مع الأخوة غير الأشقاء يقول المثل : «أخوك من أمك رقعة فى كمك» ، «أخوك من أبوك زى القوم اللى ينهبوك» ، «أخاك اللى ما هو من أمك وأباك يا خيبة رجاك» . .

الأهل

لا تقتصر العلاقات بين الأفراد على الأسرة ولكنها تمتد إلى فروعها وأصولها مما يسمى عند الشعب بالعائلة أو الأهل فالعائلة تمثل أسرة كبيرة متفرعة ومعقدة التركيب وتمثل بنيانًا كبيرًا فى الهيكل الاجتماعى وتلعب العائلات أو الأهالى دورًا كبيرًا فى الحياة المصرية ؛ ذلك لأن الأهل مع بعضهم يمثلون عصبية تكون متماسكة عند الشدة متحدة عند الخطر ، وتظهر هذه الأهمية فى الريف وفى الصعيد على وجه الخصوص ؛ حيث تلعب دورًا كبيرًا وخطيرًا فى حياة المجتمع المصرى . .

ونحن لا يمكن أن ننظر إلى الثأر فى الصعيد وفى بعض النواحى من ريف الوجه البحرى إلا من خلال العضبيات العائلية يقول العقاد : «إن عداوات الأسرة ومنافساتها هى التى تدفع إلى القتل وحرق الزرع وتسميم الماشية دون العداوات التى تغلب عليها الصبغة الفردية أو الصبغة العامة فيندر أن يقع انتقام فاجع فى الريف خاصة إلا لمحت فيه أن «ابن فلان» يثأر من «ابن فلان» ، وقلما يحدث أن هذا الفرد على حدة يثأر من ذلك الفرد على حدة بغير نظر إلى القرابات والمنافسات[1] ، ويقول :

---

(١) سعد زغلول - عباس العقاد ص ٢٩ - القاهرة سنة ١٩٣٦ .

«الأسرة عظيمة الشأن فى آداب المصريين من أقدم عصور التاريخ ولن يتجرد المصرى من عواطف الأرحام بين أبوة وأمومة وبنوة وقرابة وآصرة دانية أو قاصية وذلك هو قوام العرف الاجتماعى فى أخلاقه وعلاقاته وهو أيضًا قوام «المحافظة المصرية» التى تحب الألفة وتعرض عن البدع والخوارق[1] ويقول : «إن المصرى لينسى كل شىء إلا وشائج الرحم وآداب الأسرة وقد يسف المجرم إسفاف الخبث والنذالة أو يسف المسكين إسفاف الضعة والمتربة لكنه لا يزال فى صميم نفسه ذلك الخلف المنحدر بآداب العرف الاجتماعى والعلاقات البيتية والأخلاق المصطلح عليها . راقبت هذا الخلق فى نفوس العلية والسفلة وفى نفوس الشرفاء والمجرمين فوجدته على قرار مكين فى جميع هؤلاء[2] . . .

فالصورة الواضحة أن المصرى يهتم بالأسرة الكبيرة أو الأهل ويعرف جيدًا أن حياته مستمدة من حياتها ويعرف أن العصبية إحدى الوسائل المهمة فى تنظيم علاقاته الاجتماعية . ولقد حفلت الأمثال بالإشارة إلى أهمية الأهل فعبرت عن ذلك بأسلوب التهديد أحيانًا «أهلك لتهلك» أو بأسلوب النصيحة

---

(١) سعد زغلول - ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) المصدر السابق .

«الأهل زى الملح لا غنى عنهم» «صابعك منك ولو كان أجدم» ، «الأقربون أولى بالمعروف» . .

ولما كانت العصبية إحدى الوسائل المهمة فى الحفاظ على كرامة الشخص ومركزه الاجتماعى فقد اهتمت الأمثال بالإشارة إلى أثر ذلك على سلوك الشخص كما اهتمت بذكر الترابط الأسرى والتعاون فقالت «اللى له قيراط فى العيلة يشيل شيلة» . .

كما اهتمت بالإشارة إلى الدماء التى تسرى فى الأسرة الواحدة باعتبار أن ذلك إحدى الوسائل للتجمع العائلى فقالت : «اللى فيه نقطة من دمك ما يخلى من همك» ، «اللى من دمى ما يخلى من همى» ، «اللى منك منك ويحمل همك» ، «ما يحمل همك إلا اللى من دمك» ، «اللى له ظهر ما ينضربش على بطنه» ، «أصلك يرد عليك» ، «نار القريب ولا جنة الغريب» ، «الضافر ما يطلعش من اللحم»[1] ، «عمر الدم ما يبقى ميه» ، «العرق يمد لسابع جد» . .

وكذا فإن العلاقات بين الأهل لا تعتمد على القرابة فحسب ولكنها تقوم على تبادل المنافع وأساسها التواجد العصبى فى المكان الواحد ليمثل القوة وهى ليست علاقة نظرية ولكنها علاقة

---

(١) للمثل صورة أخرى « الضفر ما يطلعش من اللحم ، والدم ما يبقاش ميه » .

عمل وعلى أساس المنفعة تزداد القرابة فى الأهمية يقول المثل : «أخير أهلك اللى ينفعك» . .

ولما كانت العائلة تمثل تركيبًا اجتماعيًا متشابك المصالح ولكنه قد يختلف فى الميول والرغبات فإنه كثيرًا ما تتعارض المصالح بينهم فتقوم الأمثال بوصف هذه المواقف وتعرض مختلف الآراء . .

فرأى يقول بأنه لا يمكن أن ينشأ عداء بين الأهل فيقول المثل : «أسية الأهل منسية» ، «سكينة الأهل متلمة» ، «سكينة الأهل ما تدبحش» باعتبار أن الأهل كما يقول التعبير العامى : «ما ياكلوش فى بعض» أو «ما يعضوش فى بعض» . .

ورأى آخر يحذر من العلاقات بين الأهل فيقول : «لك قريب لك عدو» ، «إن كان لك قريب لا تشاركه ولا تناسبه» ، «اللى مالوش قرايب مالوش عدوين» ، «عداوة الأقارب زى لسع العقارب» ، «العداوة فى الأهل» ، «والأقارب عقارب» ، والواقع أن هذه الصورة لا تنفى العصبية ؛ ذلك لأنها من مكونات الطباع المصرية فقد يثور الأهل مع بعضهم ولكنهم يتحدون عند الخطر يفسر ذلك المثل : «أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب» . .

١ - أهل الزوج :

قلنا أن الأسرة المصرية تتكون من روافد أخرى أحدها أسرة الزوجة والأخرى أسرة الزوج ولكنهما تقومان بدور كبير فى بناء الأسرة الجديدة وإذا كانت إحداهما تقدم الزوجة فإن الأخرى تقدم الزوج وعلى ذلك فكلاهما يشارك فى الأسرة . .

ولقد تحدثت الأمثال عن الأسرتين ولما كانت كلتاهما تتكون من الأب والأم فقد كان المفروض أن نجد الأمثال التى تتحدث عن الأب والأم فى الأسرتين ولكننا نجد أن الأمثال تهتم أول ما تهتم بالمرأة فى الأسرتين وهى الحماة ، ولئن أشارت بعض الأمثال إلى دور الأب مع ابنته فى بعضهما فإنها لم تشر إلى دور الأب مع ابنه فاهتمام الأمثال ينصب على الحماة فى الأسرتين وعلى والد الزوجة قليلاً .

وإذا كنا نقول «أهل الزوج» فإننا نعنى «الحماة» والواضح أن العلاقة بين الزوجة وحماتها لا تسير على طريق سوى فهى علاقات قائمة على التحدى والكراهية المتبادلة وربما كان هناك الكثير من العوامل الاجتماعية التى تساعد على إذكاء هذه المشاعر وتضخمها مما ينعكس أثره على الأمثال التى تعبر فى صدق عن طبيعة المجتمع . وهذه العلاقات تبدأ فى التوتر منذ أيام الخطبة الأولى ؛ حيث يقول المثل على لسان «أم الزوج» ،

«امشى أما أنظرك واتكلمى أما أسمعك» ؛ حيث يترسب هذا السلوك ويوجه أعمال الزوجة مستقبلاً ثم يأتى المثل ليقول عن العلاقات بينهما وهى تمثل تحامل الحماة على زوجة الابن فيقول المثل : «عرق جنب ودنهم ما يجبش امرأة ابنهم» ، «إن كان القمح يطلع أد التبن تبقى الحمة تحب مرات الابن» ، «قالوا يا حما ما كنتيش كنه قالت كنت ونسيت» . .

وقد تؤدى الكراهية المتبادلة إلى نوع من العراك يبرزه المثل فيقول : «قالت يا بت مالك صفرة كده قالت مش حبلت قالت لها يا بت مالك صفرة كده قالت مش ولدت قالت لها طول عمرك كده حتى وأنت بت» أو تقول لها الحماة : «طول عمرك يا درا كدا» فترد عليها زوجة الابن فتقول : «طول عمرك يا خالة وإنت على دى الحالة» ولما كانت الحماة تحس فى زوجة الابن العداء فإنها كانت دائمًا تحس بالغيرة فكثيرًا ما تتوسل بمختلف الوسائل والأسباب لتسىء إلى الزوجة فتقول : «الأخ أخ مراته والخايبة تحلف بحياته» . .

والواضح أن الحماة تمثل مشكلة كبرى فى جياة الأسرة الجديدة ويصبح الأب بين طرفى نقيض فهو لا يريد أن يغضب أمه وهو فى الحالتين يحتاج إلى أخلاق خاصة وقد يزداد الأمر سوءًا إذا عاشت الحماة مع زوجة ابنها تحت سقف واحد وغالبًا

ما يحدث مثل هذا الموقف وعندئذ لابد من أن يكون هناك غالب ومغلوب . .

وإذا كانت الأمثال قد صورت الحماة فى صورة الشريرة العنيفة فإنها فى واقع الحياة المصرية فى بعض الأحيان لا تكون كذلك وخاصة إذا وصلت الحماة إلى مرحلة متقدمة من العمر وقد لا يأتى العداء من جانب الحماة بل تتسبب فيه الزوجة وخاصة إذا كانت شخصيتها قوية وعنيدة تستطيع أن تسيطر على زوجها وتتحكم فى أموره عندئذ تكون الحماة إحدى ضحايا الزوجة . .

والواضح أيضًا أن مثل هذه الحياة لم تعد مقبولة فى هذه الأيام ؛ حيث يميل الشباب إلى الاستقلال وخاصة فى المدن - منذ الشباب المبكر مما قلل من أهمية دور الحماة وقلل بالتالى من مشاكلها ، كما أن خروج المرأة للحياة العامة واحتكاكها المستمر بمختلف الطباع أكسبها مرونة فى التفكير وليونة فى التعامل وموضوعية فى النظرة إلى الحياة . .

٢ - أهل الزوجة :

ومن المشاكل التى تواجه الأسرة الجديدة حماة الزوج التى تمثل مشكلة المشاكل ؛ وذلك لأن كثيرًا من المشاكل التى تحدث بين الزوج والزوجة تنتج عن ذلك إذ إن حنانها على ابنتها كثيرًا ما يؤثر على علاقة الزوج بزوجته وحماته . .

وقد عبرت الأمثال عن علاقة الرجل وحماته فقالت : «قالوا حماتك تحبك قلت دا كان زمان . وبنتها عندها ياما شيعت نسوان . لما جرى اللى جرى والمقدر كان . صبحوا يقولوا عليه دا حرامى وبيسرق الكتان» وقد يظهر هذا الكره كشكوى من أعمالها فيقول : «حماتى مناقرة قال طلق بنتها» وأيضًا فإن الحماة التى تحس بمشاعر زوج البنت وتعرفها تعبر عن ذلك فى المثل فتقول «بيضة الفرخة موش لقيه وجوز البنت موش خبيه» وكذلك فإن المجتمع يعرف أن الحماة غالبًا ما تقتحم حياة ابنتها وتتدخل فى شئونها مع زوجها ومن هنا يقول المثل على لسان الزوج «وفرى نفسك يا حماتى مالى إلا مراتى» .

والواقع أن أساس العلاقة بين الحماة وزوج ابنتها هو الزوجة نفسها فإذا احترمها الزوج وأسعدها انعكس هذا على الحماة فى أخلاقها وتعاملها فيقول المثل : «قال يا جحا حماتك بتحبك قال عشان بحب بنتها» وأيضًا إذا أراد أن ينعم بحياة زوجية سعيدة فعليه أن يكون على وفاق مع حماته حتى يضمن حسن انقياد الزوجة يقول المثل «بوس ايد حماتك ولا تبوس ايد مراتك» . .

ومن ناحية أخرى فإن العلاقة بين الزوج وحماته ليست دائمًا سيئة فإن هناك من الأمثال ما يعبر عن إعجاب الحماة بزوج ابنتها حتى أنه قد يكون أغلى من نور عينها كما يقول المثل : «جوز البنية أغلى من نور عنى» . .

وكذلك فإن المجتمع يعرف أن أهل الزوجة أكثر قربًا من الأسرة الجديدة ؛ ذلك لأن الزوجة أكثر اهتمامًا بأهلها وأسرتها ، أما مع أسرة زوجها فهى أقل اهتمامًا ، من هنا يأتى المثل ليصف هذه العلاقة التى تمارسها الزوجة بين كلا الطرفين وهى علاقة فيها كثير من التحيز لذلك فقد حذرت الأمثال أهل الزوج من إطالة الإقامة عند ابنهم فتقول : «إن كان لك طرحة خش بفرحة وإن كان لك طربوش اخرج مكروش» ، «اللى من أهل المرة يخش من غير مشورة واللى من أهل الراجل يخش ويتأخر» ، «إن كان لك مرة خش، وإن كان لك راجل اخرج» . .

ومن ناحية أخرى فإن أبناء البنت عند أهلها أقل قيمة من أبناء الابن ذلك لأنهم من عائلة أخرى ولكن أبناء الابن يعدون امتدادًا طبيعيًا للعائلة والأسرة ومن هنا يكسبون أهمية خاصة يقول المثل معبرًا عن ذلك «ابن الابن ابن الحبيب وابن البنت ابن الغريب» أو يقول : «ابن العدوة عدا وعدانى وابن الحبيبة عدا وخلانى يا ابن ابنى يا ابنى يا ابن بنتى يا ابن الناس» . .

والواقع أن الأمثال لسان صادق يتحدث بوضوح عن طبيعة العلاقات بين الأسرة وروافدها وهذه الأمثال قد تمثل جزئيات صغيرة لا تجمعها وحدة واضحة ؛ ذلك لأنها تعبر عن طبيعة

العلاقة اليومية المتغيرة ولكنها فى الحقيقة تعبر عن طبيعة العلاقات الاجتماعية ككل فهى تدل على العادات الشائعة بين الأسرة وروافدها كما تشير إلى التيارات غير المرئية التى تعمل عملها فى بناء الأسرة المصرية وكذا التيارات المعاكسة فى بنائها . .

والواضح أن التيار البناء هو الأكثر غلبة ومن ثم نستطيع أن نرى الأسرة المصرية وحدة متماسكة وبناء متكاملاً استطاع أن يقف فى وجه التيارات الأجنبية ، لذلك نجد أيضًا أن الأسرة المصرية ليست مخلخلة البناء ؛ لأنها تحكمها عادات ترسبت على مدى التاريخ لا يمكن تغييرها فى سهولة ويسر ، فالذى يحكم الأسرة ليس القانون ولكنه العادة والتقليد ؛ ذلك لأن سلطانهما أقوى من القانون ، وكذلك المجتمع بما يسيطر عليه من أخلاقيات سلوكية تربت عن طريق الخبرة والتجربة والممارسة اليومية المستمرة خلال التاريخ الطويل ، كل ذلك قد شكل نماذج أخلاقية وسلوكية تكاد تكون مستقرة ثابتة إلا فيما يعترى قشرتها من تغييرات طفيفة . .

الجار

إن الحديث عن الأسرة المصرية فى الأمثال لا ينتهى عند الكلام عن أفرادها أو روافدها ؛ ذلك لأن هناك عناصر اجتماعية أخرى لا تمت بصلة القرابة أو لا تكون جزءًا فى البناء الأسرى الحقيقى ولكنها - أى هذه العناصر - تلعب دورًا مهمًا فى بناء الأسرة وفى هدمها . والأسرة المصرية لا تحكمها العلاقات الأسرية أو علاقات القربى فحسب ، ولكن هناك علاقات أخرى تقوم بين الأسرة وجارها وبين الأسرة والأصحاب وهذه العلاقات رغم أن العصبية أو الأسرية لا تلعب دورًا فيها إلا أنها تقوم بالضرورة وقد يفرضها المكان أو العمل أو التعامل أو الحاجة . . .

ولما كان الإنسان كما يقول علماء الاجتماع «حيوان اجتماعى» وكان المصرى كما يقول التعبير الشعبى «عشرى» فقد فرضت هذه «العشرية» نوعًا من العلاقات بين الأسرة وجارها . وكذلك فإن الجار يعد ركنًا فى العلاقات الاجتماعية ، فرضه المكان ولا يمكن الاستغناء عنه ؛ لأن الجار يقوم بدور كبير فهو الذى يسعف الأسرة فى أفراحها وأحزانها وقد سجل المثل ذلك فقال : «قبل ما أقول يا أهلى يكونوا جيرانى غاتونى» كما أنه مرآة

تعكس بوضوح أحوال الأسرة وظروفها ودخائلها يقول المثل : «جارك قدامك وورالك وإن ما شاف وشك يشوف قفاك» . .

ولا شك فى أن هذه الحقيقة التى فرضتها الظروف المكانية قد لعبت دورًا مهمًا فى العلاقات الاجتماعية ككل ومن هنا ينصح المثل فيقول : «اشتر الجار قبل الدار»(١) ، وكذا فإن التعاليم الدينية قد نبهت إلى هذا الواقع فظهر ذلك فى الأقوال المأثورة حينًا والتعاليم الدينية حينًا آخر فيقال «النبى وصى على سابع جار» ، «الجار أولى بالشفعة» ، «الجار جار ولو جار» ، «ارع الجار ولو جار» ، «ربك وجارك عالم بحالك» . . .

ولقد اهتمت الأمثال برسم العلاقات التى ينبغى أن تسود العلاقات بين الجيران وهى علاقات تعتمد على إنكار الذات وتغليب الجانب الإنسانى فى كل الظروف الحسنة والسيئة مما يدل على أهمية الجار التى يستشعرها المجتمع تقول الأمثال «اطلب لجارك الخير إن ما نلت منه تكتفى بشره» ، «إن كان جارك فى خير افرح له إن ما جالكش منه يكفيك شره» ، «إذا كان جارك فى خير إنت فى خير» ، «اشته الخير لجارك تشوفه فى

---

(١) للمثل صور أخرى هى : «اسأل عن الجار قبل الدار وخد الرفيق قبل الطريق» «اطلب الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق والزاد قبل الرحيل» ، «اختار الجار قبل الدار» .

دارك» ، «إن كان فى إيد حنة اجفلها لأقرب الناس إليك» ، «إن كان لجارى ما يهنالى» ، «اطلب الخير لجارك تلقاه فى داره واطلب الشر لجارك تلقاه فى دارك» ، «إن شتمت جارك ابقيه وإن غسلت توبك انقيه» ، «أحسن لجارك ولو أساءك» ، «إن كان جارك سفيه اعمل له كعك وهاديه» ، «إن كان جارك بلا حك به جسمك» . .

فالمجتمع فى أمثاله لا يرى فى التعامل مع الجيران إلا الجانب الإنسانى وربما كان ذلك نتيجة لظاهرتين اجتماعيتين يتميز بهما المجتمع الشعبى عامة والمجتمع الريفى خاصة . .

إحدى هاتين الظاهرتين النظرة المثالية التى تبثها التعاليم الدينية فى التعامل مع الجار وليس بعيدًا عن الحياة اليومية للناس ، الحديث الشريف الذى يقول على لسان الرسول (ص) «ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه ، وكذا الآيات القرآنية التى تحث على حسن التعامل مع الجار . .

أما الظاهرة الثانية هى أن الأسرة فى المجتمع الشعبى أو الريفى لم تتعود على السكنى فى مساكن الغير ، فالفلاح يتأذى بل لا يستطيع أن يقبل السكنى فى بيت لا يملكه ويصبح حرًا فيه . وربما كانت السكنى بالإيجار إحدى الظواهر المدنية ولكنها حتى عهد قريب لم تكن شائعة حتى فى المدينة ، ومن

هنا يصبح المنزل والمكان ملازمين لحياة الأسرة وبالتالى يصبح الجار أحد العناصر المفروضة على حياة الأسرة ومن هنا أيضًا ينصح المثل باختيار الجار قبل الدار ؛ لأنه سوف يلازم الأسرة فى حياتها وسوف يؤثر عليها بشره وخيره . أما السكنى بالإيجار فإن الأسرة تستطيع أن تتخلص من الجار الشرير بالانتقال إلى سكن آخر وهكذا . .

ومن ناحية أخرى فإن وجود الجار يفرض أخلاقيات خاصة ينبغى على الأسرة أن تسير عليها فقد تفرض الجيرة نوعًا من التقليد «اعمل زى ما يعمل جارك يتحول باب دارك» ، «من جاور السعيد يسعد ومن جاور الحداد ينحرق بناره» ، وقد يفرض على الأسرة أن تخفى عيوبها فيقول المثل : «دقوا فى أهوانهم وسمعوا جيرانهم» ، «افتح فى جنبك طاقة ولا تفتح بينك وبين جارك طاقة» ، «الجار السو يحسب الداخل ما يحسب الخارج» ، «جارنا السو ما أرداه اللى معنا كله واللى معه خباه» ، «البلاوى تتساقط من الجيران» ، «الحسد عند الجيران والبغض عند القرايب» . .

ومما لا شك فيه أن مثل هذه المواقف قد تفرض نوعًا من العزلة أو الحد من التعامل مع الجار يقول المثل : «اقفل بابك وآمن جارك» «صباح الخير يا جارى قال إنت فى دارك وأنا فى

داری» ، «إذا بغضك جارك حول باب دارك» ، وقد تفرض نوعًا من الصبر والمسالمة وعدم استعجال الشر يقول المثل «اصبر على الجار السو ليرحل لتجيله زيحة» ، وقد تفرض عليه نوعًا من التنافس المحمود كما يقول المثل : «غير من جارك ولا تحسده» أو الأمانة فى التعامل كما يقول المثل : «يا واخد مغزل جارك هتغزل به فين؟» . .

المثل والدين

المثل والعقائد الدينية

إن شيوع المعتقدات الدينية وانتشارها بين الطبقات الشعبية واستخدام العوام لها فى علاقاتهم اليومية يعد هاديًا للباحث عن حقيقة المفهوم الشعبى عن الله والدين ، والواقع أن انتشار المساجد والكتاتيب فى القرى والنجوع فضلاً عن انتشارها فى المدن ، وإلقاء الخطب الأسبوعية على منابرها ، وكذا الأحاديث الدينية التى تلقى على مدار أيام الأسبوع ، كل ذلك من العوامل المهمة التى ساعدت على صياغة المفهوم العامى عن الدين وبالتالى ساعدت أيضًا فى صياغة المثل الشعبى الذى يتناول العقائد الدينية ويفلسف التفكير العامى عن الدين . .

والمعتقد أنه لا توجد طبقة من الطبقات يسيطر على غالبية أفعالها اليومية المفهوم الدينى والنزعة العقائدية مثل الطبقة الشعبية ، وبالمثل

فإنه لا توجد طبقة تشيع فيها الفجور ودواعى الانحلال والإلحاد مثل هذه الطبقة أيضًا . فلقد ركز هذا التناقض الواضح فى تصرفات الناس المثل الذى يقول : «ساعة لقلبك وساعة لربك» أى إنك عندما تمارس الشعائر الدينية لا تنس أن تمتع نفسك وأيضًا عندما تمارس لهوك لا تنس ربك . .

ولقد كان إدوارد لين محقًا حينما قال : وكثيرًا ما يشاهد المرء فى المجتمع المصر ناسًا يتلون آيات وأحاديث تناسب المقام ولا يعتبر مثل هذا الاقتباس كما هو الحال فى مجتمعنا نفاقًا أو مملاً ، وإنما يثر إعجاب المستمعين ويصرفهم عن تافه الحديث إلى جده ويشغف مسلمو مصر وغيرها من البلدان - على ما أعتقد - بالأحاديث الدينية[1] «هؤلاء المصريون الذين يقحمون الدين فى أحاديثهم العادية بإخلاص وحسن نية هم أنفسهم الذين قال الكاتب نفسه عنهم : «وكثيرًا ما يسمع فى المجتمع المصرى العبارات الدينية تعترض الحديث فى الأمور الحقيرة والخليعة أيضًا ، وقد يكون ذلك أحيانًا بطريقة تحمل من يجهل أخلاق هذا الشعب على أن يظنه هزؤًا بالدين . ويكرر المصريون اسم الله فى كثير من أغانيهم الماجنة من غير قصد للإهانة طبعًا ، وإنما يفعلون ذلك لاعتيادهم إقحام اسم الله فى

---

(١) المصريون المحدثون - ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

كل ما يدعو إلى الدهشة أو العجب فيعبر الماجن عن انفعاله بالجمال عند رؤيته فتاة فاتنة بقوله أثناء كلامه الفاحش تبارك الذى خلقك يا بدر»[1] .

والمثل لم يكن إلا ممثلاً لحياة المصرى بكل ما فيها من صور قد تبدو متناقضة ولكن المدقق - فى هذا الواقع - يستطيع أن يستنتج أن المصدر الأول لكل هذا الذى يبدو متناقضًا هو الحب . . حب الله ويتمثل ذلك فى الاعتماد عليه والخوف منه ومراقبته ، وحب الحياة بكل ما فيها من متع حسية . إن المصرى يمتع نفسه روحًا وجسدًا فهو لا ينسى هذا ولا ينسى ذاك وهى طبيعة متكاملة تصدر عن طبع واضح غير ملفوف ولا غامض مثله فى ذلك مثل الأرض المصرية المعتدلة المناخ ذات الجو الصافى طوال العام والأرض المستوية الهادئة الناعمة . .

والمصرى فى تعامله مع معتقداته الدينية مؤمن بها إيمانًا يملك عليه حسه ومشاعره حتى إنه يضحى بحياته فى سبيل عقيدته ؛ ذلك لأنها كانت الملجأ الأخير له أمام طغيان الحكام والغزاة لما تحمل من قيم ومثاليات . .

الله والمثل :

ولقد آمن الإنسان العامى فى مصر بالله إيمانًا مطلقًا حتى

---

(١) المصريون المحدثون - ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

لنجده يشركه معه فى المأكل والمشى والملبس والنوم ، فلله معه فى كل شيء يقوم به ويفسر ذلك المثل القائل «ربنا موجود فى كل الوجود» ، من هذا المعتقد أخذ العامى يرسم حياته وهى حياة تعتمد على الله صاحب المعجزات التى لا يستطيع الإنسان إلا التسليم بها ، فسلطان الله يمتد إلى كل شيء «الأعمار بيد الله» فهو الذى يملك القدرة التى يستطيع بها أن يتحكم فى حياة الإنسان ، والعامى فى هذا مسير بقدرة الله ومشيئته فقد «أصبح على كف الرحمن» ويؤكد هذا أيضًا المثل «اللى كتب له ربنا ستين ما يموتش فى الأربعين» . .

وربما كان ذلك صورة أخرى لمجموعة التعبيرات التى يرددها رجال الدين كثيرًا فى كل مكان التى منها «إن الله قادر على كل شيء» ، «الله فعال لما يريد» . وقدرة الله ليست لها حدود وهى تعلو قدرة الإنسان بحيث يجد نفسه عاجزًا أمامها فالله « يرزق قليل الحيلة لما يستعجب صاحب الحيلة» والله «يعطى الضعيف لما يستعجب القوى» فالرزق ليس بالقوة وليس له شأن بالذكاء ولكن هذا من شئون الله الذى يستطيع أن يعطى الضعيف ويحرم القوى ، فهذه كما يقول رجال الدين ويرددون على أسماع العامة «إنها إراداة الله» وأنه «إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون» . .

وكذلك فإن استسلام العامة لإرادة الله لا يشوبه أى لون من

ألوان الشك فالله هو الذى «أقام العباد فيما أراد» فبإرادته نظم الكون ونظم شئون العباد ، وفى مقابل هذه القدرة اعترف الإنسان بعجزه حتى عن إدارة شئونه فأصل الأعمال كلها إرادة الله «الأصل فعل الله» والله هو القادر على إسعاد الإنسان «إذا أسعدك ما أتعبك» وهو القادر على خذلانه وإتعاسه «الذى يخذله الرب ما ينصروش العبد» . وكذلك فإن قدرة المخلوق تصبح ملغاة أمام قدرة الخالق ، ولقد فلسف العوام هذه التصورات فى المثل الشعبى «اللى يجمعه ربنا ما يقدرش يفرقه إنسان» ، «اللى يحفظه ربنا ما حدش يضيعه» ، «اللى إدى له خالقه ما حدش يخانقه» ،«الله جاب الله خد الله عليه العوض» . .

كما أن العامى عندما يخسر أو ينهزم ويقف حائرًا أمام كوارث الدهر ويعجز عن مواجهة الواقع يطلب من الله العوض ؛ ذلك لأنه صاحب كل شىء وقادر على كل شيء «فعال لما يريد» . .

والمثل العامى يظل يلح على الاستسلام لقضاء الله بل يدفع الإنسان إلى اليأس من قدرته على المواجهة فيقول له : «إن صبرتم نلتم وأمر الله نافذ وإن ما صبرتم كفرتم وأمر الله نافذ» فعليك أيها الإنسان أن ترضخ وتؤمن بقدرة الله التى لا حدود لها وإذا كان فى استطاعتك أن تفعل شيئًا فلن تستطيع ، ويؤكد هذا

ما يقوله العامة على لسان الله جل وعلا «يا هارب من قضايا مالك رب سوايا» وما يقوله المثل : «اللى ما يرضى بقضايا يطلع من تحت سمايا» فالمثل العامى يعطى وصفًا لله فوق ما يستطيعه البشر وإراداة الله ليس لها حد «إذا أراد إنفاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم» . .

ولا شك فى أن هذه الصورة التى صورها العامى لله جعلته لا يستطيع أن يقوم بعمل ما دون أن يضع الله أمامه ويراقبه فى أعماله وعلاقاته ، فالعمل الذى يبدأ ببسم الله ينتهى بالحمد لله يقول المثل العامى فى ذلك «اللى أوله بسم الله آخره الحمد لله» إن الله مع الرجل العامى فى عمله فإذا ابتدأ حسنًا فالختام لا شك يكون حسنًا يدفعه إلى شكر الله فالإنسان يقوم بعمله ويطلب من الله أن يرعاه ويحفظه بعنايته . ولم يقف موضوع إقحام الله فى شئون الرجل العامى عند العمل بل تعداه إلى طعامه فالمثل يقول «ابدأ طعامك باسم الله وإلحقه بحمده» ، «من قال الحمد لله شبع» . .

الاتكال على الله :

إن الإيمان بالله والاستسلام لقضائه وإرادته والإحساس بتضاؤل قدرة الإنسان وعجزها أمام قدرة الله وجبروته ، ثم الإلحاح الدائم اليومى عن طريق التعاليم الدينية على تعميق هذا

الإحساس ، كل هذا قد ولد نوعًا من الاتكالية . وإن الإنسان المصرى الذى يقف عاجزًا أمام مشاكل الحياة اليومية كالموت والحياة والنور والظلام والمرض والصحة . . إلخ ، هذا العجز النسبى قد ولد عنده ميلاً إلى الاعتماد على الله ، ثم إن إقحام المصرى لموضوع الله فى كل مشاكله وأعماله اليومية إنما يعبر عن إحساسه بالعجز ورغبته فى الحاجة إلى الله فى كل شئونه . .

والأمثال العامية التى تعبر بوضوح عن المشاعر الدفينة والخواطر التى تدور فى اللاشعور لدى الإنسان المصرى . هذه الأمثال تذخر بالأحاسيس المختلفة التى يعبر فيها رجل الشارع عن إحساسه نحو الله وحاجته الدائمة إليه ، بل إن الأمثال التى تتحدث عن قدرة الله والاتكال عليه تتحدث عن الإنسان المصرى فى كثير من حالاته ، فعندما يحس بالقهر والضعف يقول : «آدى الله وآدى حكمته» ، فالعامى لا يحاول أن يبحث فى مشكلته ولكنه يهرب من مواجهتها بنسبتها إلى حكمة الله وعندما يحس بأنه يقف وحيدًا فى مواجهة المشاكل يأتى المثل ليقول له : «اللى مالوش حد له ربنا» ، «الله هو الحافظ» ، وهو مأخوذ من قوله تعالى : «فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين» ، وعندما يستشعر بالظلم يقول له المثل : «يا بخت من له ، يا شقوة من عليه» ، «اللى عند الله ما يضعش» ،

«اللى ما تقدرش عليه حيل ربنا عليه» ، «ربنا هو المخلصان» ، «ربنا مع المنكسرين جابر» ، «الشكوى لغير الله مذلة» . .

والمصرى يعتقد أن الله هو الذى يرزق وهو الذى يعطى ويمنع «الله بيرزق الواقف والقاعد والمتكى على جنبه» ، «اللى خلق الشداق متكفل بالأرزاق» فالإنسان لا يأكل من عمل يده ولكنه خاضع لإراداة الله ولما يبعثه الله ، والله عندما يعطى الإنسان لا يمن عليه ؛ لأنه كفيل بالأرزاق «الله لما يعطى ما يمن ولما يأخذ ما يحن» ، «رب العطا يعطى البرد على أد الغطا» ، «الله يحبس النبض ويعطى الدوا» .

وربما قيل أن شيوع مثل هذه الأمثال تدل على سلبية واضحة يتخلق بها المصريون ، وخاصة إذا نظرنا إلى المثل الذى يقول : «اللى يحبه ربنا ويختاره يجيب له الخير لغاية داره» ، فهذا المثل يطلب من الإنسان - كما قد يظن - التكاسل عن السعى وراء العيش والعمل ، ويظل قابعًا فى منزله حتى يأتى إليه رزقه ، والواقع أن هذه الصورة ليست حقيقية ؛ ذلك لأن هناك كثيرًا من الأعمال يقوم بها الناس فى بيوتهم وتأتى إليهم أرزاقهم وهم فى بيوتهم مثل صناعة السلال والألبان والنسيج اليدوى ؛ حيث كانت تنتشر الأنوال وغيرها ، إن مثل هذه المهن تعد عند المصريين فألاً حسنًا ؛ لأنها لا تكلف الانتقال والترحال من

مكان إلى آخر وراء الرزق . ولعلنا فى ذلك نتفق مع إدوار لين الذى قال عن المصرى «لا يمنع الإيمان بالقضاء والقدر المسلم من السعى إلى تحقيق غايته فإيمانه بالقدر ليس مطلقًا ولا هو يجعله يهمل تجنب الخطر»(١) .

والمصرى فى كثير من الحالات يعترف بعجزه عن السيطرة على غيره ، وفى بعض الحالات الأخرى عندما يقاسى من الظلم والاضطهاد - لا يجد ملجأ من قوة إلا التسليم لله فهو القادر على أن يدفع كل ما يسيئه وهو القادر على أن يرزقه ويوفر له اللقمة «اللى خلقنى ما ينسانى» . .

والمصرى يخاف من المستقبل فهو غامض لا يعرف ما يأتى به ، وإن كان ما مضى عليه من عهود كثيرة من الظلم والاضطهاد قد أوحت إليه بالشك فى ما تأتى به المقادير ؛ لذلك نراه يلجأ فى هذا إلى الله ، فالمصرى يفكر والله يدبر «العبد فى التفكير والرب فى التدبير» إن المستقبل فى علم الغيب ولكن على الله أن يكفينا شر ما يأتى به ، والعامى يطلب النجدة من قبل أن يقدم على شيء «إحنا لسه فى الجريد والله يفعل ما يريد» ، «أنت تريد وأنا أريد وربنا يفعل ما يريد» ، فعلم الغيب عند الله لذلك ينبغى على الإنسان أن يجعل توكله على الله «خد من عبد الله واتكل

---

(١) المصريون المحدثون - ٢٠٨ .

على الله» ، «اللى فى علم الله هو اللى يكون» ، «اللى اتكل على الله عمره ما خاب» ، «الله معنا» ، «اللى يريده ربنا هو اللى يكون» ، «اللى فيه الخير يقدمه ربنا» ، «اللى فى علم الله غالب» ، «الناس بالناس والكل على الله» ، اللى اتكل على الله عمره ما خاب» . .

إننا نستطيع أن نرى مدى التأثير الدينى الواضح فى هذه الأمثال حتى ليمكن القول بأنها دارت بين الناس فى المجالس الدينية كثيرًا وانتقلت إلى غيرها من المجالس الخاصة بالشئون الدنيوية ، بل إننا نستطيع أن نرى كثيرًا من التشابه بين الآيات القرآنية وهذه الأمثال وانظر إلى قول الله تعالى فى الحث على الاعتماد على الله سبحانه وتعالى : «ومن يتوكل على الله فهو حسبه» ، وقوله تعالى : «فعال لما يريد» . . إلخ ، إننا نستطيع أن نقول أن المجموعة السابقة من الأمثال ربما كانت مستوحاة من هذه الآيات الكريمة وغيرها . .

وإذا كان المصرى قد أوصى نفسه بالاعتماد على الله والتسليم بقضائه وقدره فإنه قد أكد ذلك بالتحذير من خطأ الاعتماد على غير الله فيقول المثل العامى «اللى اتكل على شيء أخلاه الله منه» ، «اللى اتكل على شيء أخلاه الله من يده» ، فالمصرى يحس بقدرة الله ويحس بضعفه أمام قضاء الله وقدره ،

وهو دائمًا يذكر نفسه ويحذرها من الوقوع فى الأخطاء إن كل الأخطاء يمكن التغاضى عنها ولكن الخطأ فى حق الله يؤدى إلى ما لا يحمد عقباه . «فما عند الناس ينفد وما عند الله باق» ويحذر فى مثل فيقول : «اعرف ربك فى الرخاء يعرفك فى الشدة» ، «من قر بذنبه غفر الله له» . .

والمصرى يعتقد أن كل ما يقوم به من عمل فهو عند الله فهو الذى يجازى وهو الذى يرزق ، يقول المثل : «اعمل الخير وارميه فى بحر جارى إن ضاع عند العبد ما يضعش عند البارى» ، «اللى زمرناه راح لله» ، «اعمل لله مش لبنى آدم» ، «اللى عند ربى قريب» ، «اللى عند الناس بعيد واللى عند الله قريب» ، والمصرى يعتقد أيضًا أن مشاكله لا يمكن حلها إلا عن طريق اللجوء إلى الله ، «كل عقدة ولها عند الكريم حلال» ، «اكتم سرك واشكى ربك» بل إن أخلاقه ليست من صنع نفسه أو بيئته ولكنها أيضًا من صنع الله وفلسفة العامة تؤكد هذا فتقول : «اللى مش هاديه ربه يا تعب قلبه» ، «مالك مربى قال من عند ربى» . .

الله والعمل فى المثل

على أن المصرى فى كل هذا لا يعتمد على الله فى سلبية مطلقة ولكنه ينظر إلى هذا الموضوع على أن الله أمل فى أن ينصر الحق ويغلب العدل . إن المصرى الذى تغلغلت فيه العقيدة الدينية حتى أصبحت من أهم مقومات حياته ، هذا المصرى لا يستطيع أن يزاول عملاً ما إلا ويضع الله أمامه . إنه بهذا يحقق ذاته عن طريق عواطفه الدينية ، فقد يقبل المصرى أن يعذب وقد يقبل أن يجوع وربما قبل عن طيب خاطر أن يموت طالما كان هذا فى سبيل الله والعقيدة . فهو لا يقبل أن تمس عاطفته الدينية بسوء . فقد يثور وينقلب سلوكه السوى إلى ألوان من الهياج لا لشىء إلا لأنه قد صدم فى عواطفه الدينية أو أهينت معتقداته . .

والمصرى الذى يقول فى المثل «اللى على الله على الله» أو الذى يقول : «اللى على الله ما يتحمل له هم» لم يكن سلبيًا لدرجة تشمل إرادته إنه لو وصل إلى هذه الدرجة لأصبح الشعب المصرى مجموعة من الكسالى والعاطلين والتنابلة ولكنه شعب يختلف عن هذه الصورة . إن الصورة المتضخمة التى كونها المصرى للإله جعلته يستشعر بالخوف والرهبة ، ثم إن هذه

القدرة الخارقة التى تتمثل فى قدرة الإله والتى أوصى المصرى بها لم تكن عنده إلا اعترافًا بأن الطاقة الإنسانية محدودة والعقل الإنسانى محدود ولابد من الالتجاء إلى قدرة تفوق القدرة البشرية ، يلقى إليها بهمومه ومعضلاته فيحس لذلك براحة نفسية تقوى عنده عزيمة الصبر على مواجهة الحياة . .

على أنه ينبغى ملاحظة أن المثل لم يكن دائمًا هكذا فالمثل فى كثير من حالاته يحرض على العمل فمعرفة الله والاعتراف بقدرته لا تشل الحركة ولكن الواقع أن أساس معرفة الله هى العمل والإخلاص فيه . .

والمصرى الذى يخاف الفضيحة نراه يقدم على عمله معتمدًا على ستر الله وقد يجازف بالدخول فى بعض الأعمال التى ليس له بها معرفة ولكنه يقدم على ذلك معتمدًا على المثل الذى يقول «اللى سترها فى الأول يسترها فى الثانى» أو المثل «اللى يستره ربه ما يفضحوش مخلوق» أو المثل «اللى ساتره المولى ما يفضحوش مخلوق» إنها أمثال تحمل على الإقدام واجتياز الصعاب اعتمادًا على قدرة الله وستره . فالمصرى مطالب بأن يعمل ويجد ويجتهد ويكافح ويترك لقدرة الله لكى تكافئه «اللى علي أعمله والباقى على الله» . .

وقد نرى المصرى فى بعض المواقف عقلانيًا فى معرفته بالله

فهو يؤمن بأن «الله حق» ، «الله فعال لما يريد» ولكنه يؤمن أيضًا بأن الإنسان عليه أن يعرف الله بعقله فيقول المثل : «ربنا عرفناه بالعقل» والعقل هذا أيضًا هو الذى تعرف به حياتنا اليومية إن مثل هذا المثل لا يقال إلا عندما يكون هناك من الناس من لا يريد أن يصدق الواقع أو من لا يحاول أن يفهم أحد الموضوعات ، إن هذا المثل للإنسان لكى يصحح موقفه من الموضوع الذى يعرض له . .

كما أنه فى كثير من الأمثال موضوعى فى علاقته بالله فهو يعلم أن الإنسان بما كسب رهين وأن الله يساعد المهمل بل إننا نجد أحد الأمثال التى تسخر سخرية مريرة من المهمل أو الكسلان الذى لا يلتفت إلى حاله فيقول له المثل بأسلوب الاستفهام الإنكارى «تعرى . . . للدبان وتقل دى قضا الرحمن» فهو يسخر من الإنسان المستسلم التواكلى الذى يقول عنه أحد الأمثال «العاجز عن التدبير يحيل على المقادير» أن المصرى بنيغى أن يكون نشيطًا حتى لا ينساه الله . ويجب أن يكون عالى الهمة وفى الوقت ذاته فإن الله سوف لا يخيب رجاءه والمثل الذى يقول «اسع يا عبد وأنا أسعى معك وإن ما سعيت يا عبد ما حد ينفعك» إننا نستطيع أن نجد كثيرًا من هذه الأمثال التى تحمل مضامين دينية تلقى على أسماع العوام كثيرًا ، ونستطيع أن

نقول أن المثل السابق ربما كان مأخوذًا من قوله تعالى : «وقل اعملوا فسيرى الله أعمالكم» وربما كان من قبله مأخوذًا من قوله تعالى : «والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه» والمثل عندما يضع هذه النماذج إنما يطلب أن يعيش المصرى فى الواقع وأن يكون موضوعيًا فى علاقاته وأن ينشط لمواجهة حياته معتمدًا على الله الذى لن ينصر إلا العامل ولن ينظر ويعين إلا المجتهد الذى يشقى فى البحث عن الرزق .

وعندما يخرج العامى إلى الرزق يضع أمامه الله فهو يتوكل عليه وهو معرض للمكسب والخسارة ، معرض للفشل والنجاح ، وفى كل الحالات عليه أن يعتمد على الله فالمثل يقول «الله يسد باب ويفتح أبواب» ثم هو يدفع إلى المخاطر والإقدام ، «الرب واحد والعمر واحد» إن المصرى مطالب بأن يضع روحه «على كف الرحمن» فلن يزيد عمره عما قدره الله ولن يكون له غير رزقه ، والمثل يضع الأمل فى عون الله فيقول : «من عمود لعمود يأتى الله بالفرج القريب» ، «وإذا كنت منقبض الصدر انظر فى السماء والأرض» فسوف تجد حلاً للمشاكل التى تعانى منها وعلى الإنسان ألا يفقد الأمل لأنه مفتاح الحياة . .

وفى جانب آخر نجد أن المثل يقول أن الله يحب الإنسان النشيط الذى يجرى هنا وهناك وراء رزقه «اللى حبه ربه فرجه

على ملكه» فالله يحب الإنسان السواح الذى ينتقل من مكان إلى آخر . .

إن الصورة التى كونها المصرى عن الله صورة كبيرة يحيط بها هالة من التقديس والتسليم بقوته وسطوته وسيطرته على الخلق ، ولا شك فى أن المجتمع الذى يصنع هذه الصورة ويضعها أمامه فى كل مكان ويشركها معه فى كل أفعاله لم يخل من مجموعة من الشواذ الذين يخرجون عن هذه القاعدة ، ولقد حاول المثل أن يحذر منهم فيقول : «اللى ما يخاف من الله خاف منه» هذا الإنسان الذى لا يعترف بقدرة الله ولا يخافها ينبغى الاحتياط عند التعامل معه فهو لا يرعى حدودًا لله ، هذا الإنسان الذى لا يعرف قيمًا تنظم علاقاته والذى «ما يعرفش طظ من سبحان الله» أو الذى «لا يرحم ولا يخلى رحمة ربنا تنزل» ، هذه النماذج تعد فى هذا المجتمع المتدين من الشواذ التى تؤكد القاعدة وتدعمها على أن مثل هذه النماذج الشريرة لم يكن يتركها المجتمع دون أن يتوعدها ويهددها فيقول له المثل «اللى ما يخاف من الله يا ويله يا ظلام ليله» إن آخرته سيئة وأن الله لن يتركه دون عقاب . .

والواضح أن المثل لا ينظر إلى الله محاولاً تفسيره أو معرفة كنهه مما يدخل فى نطاق خارج إمكانيات التفكير الشعبى . أنه

لا ينظر إلى هذه المسائل ولا يستطيع أن يتحدث عنها ولكنه ينظر إلى الله ودوره فى الحياة اليومية للإنسان المصرى . فالمصرى يستطيع أن يستشعر بالله فى كل أعماله ويخافه عند التعامل اليومى وغيره ، ويرى فيه القوة المساعدة إن لم تكن الرئيسة لحمايته . والواقع أن الأمثال وهى تتحدث عن ذلك إنما تعكس التفكير العملى لرجل الشارع . . .

ولئن سيطرت على تفكير العامى بعض التصورات الميتافيزيقية عن الله وهذا وضع طبيعى إلا أنه قد استفاد من هذا المفهوم فى تنظيم علاقاته الاجتماعية وتشكيلها حتى أصبح الله عند العامى أشبه ما يكون بالقانون المكتوب أو الضمير اليقظ الذى يراقبه . ويرسم خطواته ويحد من الشطط والجموح الذى تنزلق إليه النفس الإنسانية . . .

ورغم ما أحاط بهذا المفهوم من جوانب سلبية كانت تحد بلا شك من قدرة الإنسان الخلاقة وخاصة إذا كان هذا الإنسان متأخرًا فكريًا واجتماعيًا واقتصاديًا . تقول رغم هذه الجوانب وما تعكس من تواكل فى بعض الأحيان وتسامح ساذج إلا أنها قد أدت دورًا خطيرًا فى تهذيب السلوك وتنظيم العلاقة الإنسانية بما فيه صالح الجماعة الإنسانية . .

العقيدة الدينية :

إن العقيدة الدينية تملك على الرجل العامى كل تفكيره ، ونظرة العوام إلى الدين يتمثل فيها الرغبة فى الخير والرهبة من الشر ، والعامى يعرف أن العقيدة إذا سيطرت على الإنسان شكلت كل تصرفاته ونظرته للحياة ، والمثل العامى لم يفته تسجيل ما يحس به العامة نحو العقائد فيقول : «إذا اعتقد أحدكم فى حجر لنفعه» فالعقيدة أساس للحياة وتستطيع أن تؤدى دورًا كبيرًا لخدمة الإنسان فهى تعطيه الأمان والراحة كما توفر له الحماية والأمل . على أن العقيدة ليست إيمانًا فحسب ، ولكنها اعتقاد عاقل يعتمد على المعرفة فيقول المثل : « إللى مالوش عقل مالوش دين» والمثل يقول «ربنا عرفوه بالعقل» ، وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن العقيدة عند العامة إيمان وعمل فعليك أن تؤمن أولاً ،وأن تعمل ثانيًا ، فالعامى لا يؤمن بالعقيدة الساذجة التى تبنى فى الهواء ، أنه يطلب الإيمان المبنى على المعرفة العقلانية والعمل ، على أن تسود هذه العقيدة وتشيع ، فهو ينفر من الرجل الذى لا خير له فى دينه ، يقول المثل : «اللى ما له خير فى دينه ما له خير فى دين غيره» ، لأنه إنسان لا يؤمن بالأديان ومن ثم لا يمكن أن يكون محل ثقة للمجتمع . .

العبادات والشعائر الدينية :

يتدخل الدين فى كثير من العلاقات الاجتماعية ، والمقصود

بالدين هنا هو تلك الشعائر الدينية التى يمارسها عامة الشعب يوميًا وعلى مدار السنة وتتحكم فى كثير من تصرفات الناس وتشكل تعاملهم طبقًا لمفهومها فالزكاة والصلاة والصوم والأعياد والحج كل هذه الشعائر تقوم بدور واضح فى قيام العلاقات الاجتماعية ، والمثل الذى يعبر عن فلسفة الشعب فى العلاقات السائدة بين المجتمع يستخدم كثيرًا من هذه الشعائر فى توجيه المجتمع . ويتكلف المسلمون ويدققون فى شمائلهم الاجتماعية إلى أقصى حد ويقوم الكثير من عاداتهم الشائعة على تعاليم الدين وذلك يميزهم فى مجتمعاتهم من كل قوم آخرين[1] . .

فالوجدان الاجتماعى ينفر من الفقير المعدم الذى يقوم بإخراج الزكاة طالمًا أن ذلك ليس فى استطاعته والمثل يسخر من هذا الرجل فيقول : «يا مزكى حالك يبكى» ، فالإنسان قبل أن يقوم بعمل ما ، عليه أن يعرف طاقته ومدى ما يمكن أن يقوم به فليس من الصواب أن يحمل الإنسان فوق ما يستطيع ويؤكد هذا المفهوم الآية القرآنية «لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها» ؟ وفى الجانب الآخر فهو يطالب بالزكاة والصدقة لما يقومان به من دور كبير فى الكيان الاجتماعى فالمثل يقول : «اتصدقوا ترزقوا» فالصدقة تجلب الرزق ، وفى الأثر «استنزلوا الأرزاق بالصدقات»

---

(١) المصريون المحدثون - ١٣٣ .

فالمال الذى يخرج فى سبيل الله زكاة له ورحمة ، وفى هذا المعنى يقول المثل : «اللى يخرج منه زكة عنه» . .

أما الحج فإنه شعيرة اجتماعية دينية يصحبه فى العادة الاستعداد بالزينات والأفراح وتظل هذه الاستعدادات قائمة حتى موعد السفر ، وقد رصد المثل العامى هذا بقوله «ياما الحج مربوط له جمال» والحج فى مثل هذه الأحوال يأخذ وقتًا طويلاً وتكلفة كبيرة . على أن الإحساس بالفرحة التى تصاحب الحاج ليست دائمة فغالبًا ما يعقبها قلق لما حول السفر من مخاطر أو متاعب فهم لا يعلمون كثيرًا عن مشقات السفر ومتاعبه ، فلا ينبغى عليهم أن يغتروا أو يستهينوا بهذه السفرة فالمثل يحذر من ذلك فيقول : «ياما قدامكم يا حجاج» . . .

ومن العادات التى تصحب الأعياد عمل الكعك ، وعادة يعمل قبل قدوم عيد الفطر ، فإذا انتهى العيد زالت أهمية الكعك «بعد العيد ما يتفتلش كعك» فكل شيء طيب فى ميعاد أو يقول المثل : «اللى يكدب نهار الوقفة يسود وشه نهار العيد»[1] . .

---

(١) الوقفة : اليوم الذى يسبق يوم العيد مباشرة وأحيانًا يقال لليومين السابقين الوقفة فيطلق على الأول الوقفة الصغيرة ، وعلى الثانى وهو الذى يسبق يوم العيد الوقفة الكبيرة وهذه الوقفة تكون لعيد الفطر وعيد الأضحى وأطلقت كلمة الوقفة على هذا اليوم ؛ لأن فيه الوقوف بعرفات بالنسبة للعيد الكبير أو عيد الأضحى أما بالنسبة للعيد الصغير أو كما يسمى عيد الفطر ففيه الوقوف لرؤية هلال الشهر الجديد .

والمجتمع المصرى مجتمع إسلامى تظهر فيه العادات الإسلامية وبالتالى تشيع فيه الأمثال التى تشير إلى الصوم وما يتبعه من فطور وسحور فعلى المسلم ألا يضيع فرصة السحور فإذا تباطأ فاتته وواصل صيامه يقول المثل «اللى اتسحر اتسحر واللى ما اتسحر طلع عليه الفجر» أو نرى المثل ينتقد هؤلاء الذين «يتسحرون» مع أولادهم الصغار فيقول «اللى يتسحر من العيال يصبح فاطر» ؛ لأنهم يأتون على الطعام ولا يستطيع الصائم أن يأخذ حقه من المأكل . والمصرى يقيم للصيام وزنًا كبيرًا وخاصة بالنسبة لما يأكله فهو حريص على أن يتناول طعامًا جيدًا حتى يستطيع أن يواجه الجوع دون تعب أو فتور فهو يهتم بمأكله ، ونرى المثل ينتقد الذين يتكاسلون عن ذلك فيقول : «يصوم يصوم ويفطر على بصلة» فلابد من أن يأكل لكى يستطيع مواجهة أعباء اليوم الجديد، إن المثل من ناحية أخرى يكره المبالغة فى الاهتمام بالطعام فهو يطلب الاهتمام دون مبالغة ويكره التزيد فى ذلك فيقول : «لو كان دى الطهى على دى النهى لا رمضان خالص ولا العيد جى» . .

والصلاة التى يمارسها الرجل يوميًا من الموضوعات المهمة التى يعنى بها المثل ، فالرجل الذى يصلى عليه أن يتخلق بالأخلاق الحسنة ؛ لأن الصلاة كما تقول الآية «تنهى عن

الفحشاء والمنكر» ومن لم تنهه صلاته عن الشر فلا خير فيه ولا فائدة من صلاته ، ويؤدى المثل دورًا فى ذلك فهو يسخر من الذى يصلى ويسرق فيقول : «يصلى الفرض وينقب الأرض» فهل يليق بالشخص السوى أن يؤدى واجبًا لله ولا يؤدى الواجب نحو الناس ؟ وهل يليق أن يخاف من الله ويؤذى الناس ؟ إن مثل هذا الوضع لا تقره الحكمة الشعبية . أما تارك الصلاة فهو عند الناس مذموم ونهايته معروفة والمثل ينذره فيقول : «جالك الموت يا تارك الصلاة» ، ومن عناصر الصلاة الضرورية سورة الفاتحة فيقولها الذى يصلى فى كل ركعة فإذا لم يكن يعرف الفاتحة فبماذا يصلى ؟ إن المثل يقول : «إذا نسيت الحمد تصلى بإيه» إن المثل يثير مسألة ضرورية للصلاة فلا يستطيع الشخص أن يؤدى صلاة كاملة إذا لم يكن يحفظها .

ويمتلئ المجتمع بفئة معينة من الناس يقفون من شعيرة الصلاة موقفًا غير كريم فهم يتكاسلون عنها ويسخرون من الذين يقولون أنها خير من النوم فيقول لسان حالهم فى المثل «الصلاة خير من النوم قال جربنا ده وجربنا ده» .

ولقد حذر المثل الذين لا يصومون ويصلون ، يقول المثل : «اللى ما يصوم ويصلى رزقه يولى» إن هذا التصور يؤكد ما أشرنا إليه سابقًا من أن المفهوم الدينى - وخاصة الصلاة والصيام -

يتغلغل فى روح المجتمع ويتحكم فى تصرفاته بل ويتحكم فى نشاطه فى الحياة الدنيا ، ومن هذا المفهوم يؤدى رجل العامة صلاته فى كل الأوقات ويؤدى فريضة الصيام ، وكذلك فإن المثل ينادى بأن تؤدى هذه الفروض بدقة وأن يراعى شروطها وينصح المثل فى أن يلتفت الناس إلى ذلك فيقول : «ما تعيبوا يا قوم إلا على الصلا والصوم» ، إن مواطن النقد الاجتماعى تكمن فى هذين الفرضين ؛ لأنهما أكثر اتصالاً بحياة الناس اليومية . . .

وإذا كان المثل قد تحدث عن الصلاة فإنه أيضًا تحدث عن الجامع ذلك لأنه مكان العبادة الأول وهو ضرورى لإقامة شعائر الدين ، ونظرة العامة للجامع تتميز بالموضوعية فهم يقدسونه وهو عند العامى كالبيت .

وقد يحل محله فى بعض الأحيان فيقول المثل : «اللى مالوش بيت بيته الجامع» ولكن هذه الصورة لم تمنع العامى من أن يضع مصلحته قبل مصلحة الجامع فهو يقدس دينه ويقيم شعائره ويؤدى فرضه وقد يساهم فى بناء الجامع ولكن قبل ذلك يهتم ببيته يقول المثل : «حصيرة البيت تحرم على الجامع» أو يقول : «الزيت إن عازه البيت حرام ع الجامع» أو يقول : «اللى يلزم للبيت يحرم ع الجامع» ، والإنسان يحتاج إلى أن يعيش فإذا عاش استطاع أن يؤدى فرض الله ويقيم شعائر دينه ،

إن الحاجة الإنسانية للحياة أولاً .. وبعد ذلك أماكن العبادة يقول المثل فى ذلك : «كل لقمة فى بطن جائع أخير من بناية جامع» أما فيما يختص بالمسئول الدينى عن الجامع فقد انتقد المثل بعض تصرفاتهم فالعامى يطلب من الإمام أن يكون نموذجًا فى السلوك بين الناس فقال : «ضلالى وعامل إمام والله حرام» وقال : «هاتوا المزابل حطوا ع المنابر» .

وأحيانًا يرصد المثل العامى ما يدور حول الجامع من أنواع التسول الذى يقوم بها العميان وهى عادة مرذولة يمارسها المتسولون فيقول عنهم : «قبل ما يبنى الجامع اترصت العميان» .

على أن عادة الذهاب إلى المسجد لأداء الصلاة كثيرًا ماتسبب بعض الضيق وقد أشار المثل إلى ذلك فقال : «بركة يا جامع اللى جت منك ما جتش منى» ..

وكثيرًا ما يطفو على سطح التفكير الاجتماعى صور الزهد والعزوف عن الحياة وهناك بعض الأمثال التى تشير فى صوفية واضحة إلى الزهد فيها والرغبة عنها ، من تلك الأمثال : «دنيا غرورة» ، «آخر الحياة الموت» فالموت نهاية الإنسان مهما عمل ، و «دنيا واللى مستغطى بها عريان ، إنها لا تنصر أحدًا ، والإنسان الذى يسعى وراءها سوف تعريه ولا تستره ، دنيا فنيه والزمن كباس» ..

والمثل العامى لا يكل عن تذكير الناس بالآخرة ويوم القيامة فهو يقول : «بكره تقوم القيامة وينصبوا الميزان ويبقى المعدى يعدى والشقى حيران» . .

على أن التفكيرَ الشعبى فى هذه المواضيع قد لا يخلو من الخرافة تسيطر على أفكاره فهو يقول فى أمثاله «علامة القيامة لما تشرب من الحيط وتشوف النور اللى فى الخيط» .

الجنة والنار :

إن الأفكار الصوفية التى تلح على الذهن العامى وتظهر فى أمثاله وفلسفته الشعبية بوضوح تشير إلى المصرى الذى يعمل لآخرته قبل أن يعمل لدنياه ؛ ذلك لأن الدنيا كما تقول الأمثال خادعة والموت آت لا ريب فيه ، وحقيقة الموت لا تخفى على الإنسان فهو يراها كل يوم ، وفى كل وقت ولا راد لها وليس هناك قوة توقفها ؛ لذلك تصور العامى أن الإنسان ينبغى عليه أن يعمل لحياته الأخرى فطالما أن حياته الدنيوية سوف تنتهى فليعمل للآخرة «فالآخرة خير وأبقى» كما تقول الآية الكريمة . .

وفى الآخرة حيث يبعث الإنسان مرة ثانية وتقوم القيامة كما يشير المثل بقوله «بكره تقوم القيامة وينصبوا الميزان ويبقى المعدى يعدى والشقى حيران» فى الآخرة ؛ حيث ينقسم الناس إلى أهل الخير وأهل الشر أهل الخير يعبرون إلى الجنة أما

الأشقياء فهم حيارى وهنا يأتى المثل ليحدد مكانين لهذين الصنفين من الناس ، فالذين رضى الله عنهم مكانهم الجنة ، والإنسان صاحب النفس الحلوة مكانه الجنة «النفس الحلوة لها الجنة» وكذلك فإن الوجدان العامى لا يعترف بحل وسط فمنهم إلى الجنة ومنهم إلى النار فالذى لا يدخل الجنة فهو إلى النار «اللى ما ينفع للجنة ينفع للنار» . .

وكذا فإن الإنسان كما يقول علماء الاجتماع «حيوان اجتماعى» فهو لا يستطيع أن يعيش منفردًا منعزلاً عن الناس ، فالجنة التى تمثل أقصى أمله لا يستطيع أن يعيش فيها بغير مجتمع يتعايش معه يعبر عن ذلك المثل «جنة من غير ناس ما تنداس» ، والتفكير العامى لا يعرف عن الجنة إلا أنها مكان تتحقق فيه كل رغبات الإنسان ، وهذا التفكير لا يستطيع أن يخرج عن مثل هذه التصورات ؛ لأنها تصورات حياتية - فى الغالب - تنعكس فيها آمال الإنسان فى السعادة والمتعة وقد يصاب الإنسان بداء التردد فلا يستطيع أن يميز بين الخير والشر فهو إنسان طماع يريد كل شيء حتى الشر يعبر عن ذلك المثل بقوله : «عينه فى الجنة وعينه فى النار» . .

أما النار فهى تمثل العذاب الذى يلقاه المذنب فى حياته الآخرة والتصور العامى لجهنم أنها نار حارقة لا يحتمل الإنسان

لهيبها أما الذين يعيشون فيها فهم المذنبون الذين يمثلون الشر فى الحياة الدنيا ومن هؤلاء «اللى ياكل مال اليتيم بشره بنار الجحيم» ، أو الإنسان الظنان الذى يسىء الظن بالناس يبنى أفعاله وعلاقاته على هذا الأساس الخاطئ أنه يؤدى به إلى جهنم «الظن السو يودى جهنم» . . .

والشخص الموعود بجهنم إنسان تعس محل سخرية المثل العامى الذى يقول له «جهنم ما فيهاش مراوح» إنها نار حقيقية . .

على أن جهنم عند الوجدان العامى لا تخرج عن الحياة الدنيا كل ما يميزها عما فى الحياة أنها تمثل الشر ومأوى الأشرار والعصاة والمذنبين ففى جهنم مثلما فى الحياة مما يستخدمه الرجل العامى فى حياته اليومية وإذا لم يكن بها مراوح للترويح عن حرها فإن بها أحذية وربما براطيش «جهنم وعند البراطيش» . .

إن العامى لا يستطيع أن يفلسف الجنة والنار ولكنه يستطيع أن يتصورهما ففيهما مما فى الحياة الدنيا إحدهما تمثل الشر وهى نهايته والأخرى تمثل الخير وهى نهايته أيضًا . ومن ناحية أخرى فإن تصورات العامى عن الجنة والنار لا تخرج عما يلقيه عليه رجال الدين فى المناسبات المختلفة ولكنها صور مظللة

ذلك لأنه أخذ الصورة الدنيا عن الجنة والنار وألبسها ثوبًا من الحياة الدنيا بل من وسائله المعيشية فى حياته اليومية ؛ ولذلك فيمكن القول بأن الصورة الشعبية عن الجنة والنار صورة دينية مهزوزة إلى حد كبير ساعد على ذلك عدم اهتمام العامى بالتفاصيل أما فى جوهرها فهى صورة دينية حقيقية ، صورة للخير والشر . لقد أخذ العامى هذه الصورة الدينية وحاول أن يستخدمها فى علاج مشاكله الحياتية ولتفسير وجهة النظر الشعبية تجاه الحياة اليومية . .

المشايخ :

تحتوى الأمثال على كثير من العادات الدينية التى سيطرت على التفكير المصرى منذ القديم حتى الآن ، وهذه العادات تولدت نتيجة شيوع كثير من المعتقدات التى ترسبت على مدى التاريخ ومنذ العصور الفرعونية ، ومن هذه العادات إقامة الأضرحة للأولياء وزعماء الدين فى العصر الإسلامى وإقامة الهياكل للملوك والحكام والمبالغة فى تشييدها . ومن هذين المصدرين تستطيع أن ترى العقيدة المصرية طوال عصور التاريخ حتى الآن . .

فلقد اعتقد المصريون أن ملوكهم إذا ماتوا ينضمون إلى طائفة المعبودات وعليه تجوز عبادتهم كآلهة فى الهياكل الكبيرة

المشيدة أمام مقابرهم الهرمية الشامخة[1] «أما فى العصر الإسلامى فقد «اتخذ المصريون عادة التبرك بأهل البيت أحياء وأمواتًا فقد قيل أنه فى سنة ٢٠٨هـ توفيت بمصر السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد فأراد زوجها إسحاق بن جعفر الصادق أن يحملها ليدفنها بالمدينة ولكن أهل مصر سألوه أن يتركها ليتبركوا بها فدفنت فى مصر وبنى قبرها الوالى عبيد الله بن السرى بن الحكم»[2] . .

من هذين النصين نجد أن الطبيعة المصرية تمجد الميت وتنظر إليه نظرة ربما تختلف عما كانت له فى الدنيا إذا كان من المشايخ والأتقياء الصالحين ، وهذه الطبيعة لم تتغير حتى الآن وقد لا تتغير ؛ لأنه ربما اتخذت صورًا أخرى وتكيفت تبعًا للظروف المستجدة ، ولكن الطبيعة قد لا تختلف فسيظل المصرى يعتقد فى الموت وفى الحياة الآخرة ؛ لأن الطبيعة المصرية تفرض ذلك ، فطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم عصورهم التاريخية إلى أن يهتموا بأمور الآخرة اهتمامهم بأمور

---

(١) تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى - جيمس هنرى برستد ترجمة د . حسن كمال ص ٢٩ .

(٢) فى أدب مصر الفاطمية - د . محمد كامل حسين - ١٤ نقلاً عن كتاب رفع الأصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى .

الدنيا فإذا المصرى منذ عرفه التاريخ مضطر إلى أن يعيش لونين من الحياة يناقض أحدهما الآخر أشد التناقض فهو يعبث فى حياته ويمجن ويمزح ما شاء له العبث والمجون والمزاح وهو فى الوقت نفسه حريص على أن يفكر فى آخرته فيتحدث عنها ويتذكرها ويظهر استمساكه بالدين وفرائضه وآدابه[1] . .

هذه الطبيعة المصرية التى فرضت على المصرى إيمانه بالأولياء وتكريمه لهم بعد موتهم ، كما فرضت على المصرى القديم عبادة حكامه وملوكه ودفعته إلى المبالغة فى إقامة الأضرحة وزيارتها والتبرك بها . . .

فالمصرى المسلم يحترم الشيخ وخاصة إذا كان يمثل نموذجًا حسنًا فى السلوك فى الحياة الدنيا ويقدسه لدرجة العبادة بعد وفاته ، فعليه أن يقوم بواجباته تجاه الضريح . ولقد يدخل المثل العامى ليرصد هذه العادات وليعبر عن آراء الشعب ورغباته «اللى عليه ندر يوفيه» ، وعملية النذور ظاهرة اجتماعية مرتبطة بانتشار الأضرحة والمعتقدات الدينية ، ولقد سيطرت هذه المعتقدات على سلوك المصريين بصورة كبيرة .

ولقد رصد الجبرتى مولد أحد الأضرحة فى عصره ولا بأس

(١) فى أدب مصر الفاطمية - ٢٨٠ .

من أن نورد وصف الجبرتى لذلك «فى سنة ١٢١٤هـ نودى بعمل مولد السيد البكرى المدفون بجامع الشرابى بالأزبكية بالقرب من الرويعى وأمروا الناس بوقود قناديل بالأزقة فى تلك الجهات ، وأذنوا لهم بالذهاب والمجىء ليلاً ونهارًا من غير حرج وقد تقدم ذكر بعض خبر هذا السيد على وأنه كان رجلاً من البله وكان يمشى بالأسواق عريانًا مكشوف الرأس والسوأتين غالبًا وله أخ صاحب دهاء ومكر لا يلتثم به واستمر على ذلك مدة سنين ، ثم بدا لأخيه فيه أمر لما رأى من ميل الناس لأخيه واعتقادهم فيه كما هى عادة أهل مصر فى أمثاله فحجر عليه ومنعه من الخروج من البيت وألبسه ثيابًا وأظهر للناس أنه أذن له بذلك وأنه تولى القطبانية ونحو ذلك ، فأقبلت الرجال والنساء على زيارته والتبرك به وسماع ألفاظه والإنصات إلى تخليطاته وتأويلها بما فى نفوسهم ، وطفق أخوه المذكور يرغبهم ويبث لهم فى كراماته وأنه يطلع على خطرات القلوب والمغيبات وينطق بما فى نفوس الناس فانهمكوا على التردد إليه ، وقلد بعضهم بعضًا وأقبلوا عليه بالهدايا والنذور والإمدادات الواسعة من كل شيء وخصوصًا من نساء الأمراء والأكابر وراج حال أخيه واتسعت أمواله ونفقت سلعته وسمن الشيخ من كثرة الأكل والدسومة والفراغ والراحة حتى صار مثل البو العظيم ، فلم يزل على ذلك

إلى أن مات فى سنة سبع بعد المائتين كما تقدم فدفنوه بمعرفة أخيه فى قطعة حجر عليها من هذا المسجد من غير مبالاة ولا مانع وعمل عليه مقصورة ومقامًا وواظب عنده بالمقرئين والمداومين والمنشدين يذكر كراماته وأوصافه فى قصائدهم ومدحهم ونحو ذلك ، ويتواجدون ويتصادفون يمرغون وجوههم على شباكه وأعتابه ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضعونه فى أعبابهم وجيوبهم»[1] . .

من هذا النص نجد أن المصريين كانوا يؤمنون بالأعمال الغريبة الشاذة عن مألوفاتهم وكانوا يعتقدونها ، كما أن الإشاعات - فى هذه البيئات المتأخرة - كانت تضفى على الولى هالات من التقديس وكانت تلح على ترسيخ هذه المفاهيم بين الناس سواء أصحت أم قيلت لأغراض خاصة وهى غالبًا ما كانت تخدم أغراضًا خاصة كما وضح من أعمال أخى السيد البكرى ، كما أن الناس وخاصة العامة كانوا فى فراغ فكرى لم يكن هناك ما يملؤه إلا مثل هذه العادات . .

على أنه ينبغى ملاحظة أن هذه القاعدة لم تكن تنطبق على كل الناس فقد كان هناك من عناصر المجتمع مما يشك فى جدوى هذه الأعمال وقد سجل المثل العامى ذلك الشك بقوله :

---

(١) الجبرتى ٣/ ٨٤ (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) .

«الشيخ الباتع يقيد نفسه» أو بقوله «يا شيخ ياللى فى القبة ما كنتش بحبك فى الدنيا حبيتك وإنت فى التربة» أو يقول : «بكره تموت يا أبو جبة واعمل لك فوق قبرك قبة» . إن هذه الأمثال تعكس الإحساس بالشك فى هذه المعتقدات وبأنها تولدت نتيجة إحساس بالفراغ واستغلال للعواطف الدينية .

ولقد أشار الجبرتى إلى ذلك فقال «فى سنة ثلاثة وعشرين ومائة وألف جلس رجل رومى واعظ يعظ الناس بجامع المؤيد فكثر عليه الجمع وازدحم المسجد وأكثرهم أتراك ثم انتقل من الوعظ وذكر ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل على قبور الأولياء وتقبيل أعتابهم وفعل ذلك كفر يجب على الناس تركه وعلى ولاة الأمور السعى فى إبطال ذلك ولا يطلع الأنبياء فضلاً عن الأولياء على اللوح المحفوظ ، وأنه لا يجوز بناء القباب على ضرائح الأولياء والتكايا ويجب هدم ذلك . وذكر أيضًا وقوف الفقراء بباب زويلة فى ليالى رمضان فذهب بعض الناس إلى العلماء بالأزهر وأخبروهم بقول الواعظ وكتبوا فتوى وأجاب عليها الشيخ أحمد النفراوى والشيخ أحمد الخليفى بأن كرامات الأولياء باللوح المحفوظ لا يجوز ، ويجب على الحاكم زجره عن ذلك . وعندما علم الواعظ بذلك تحداهم وطلب مناظرتهم وانتقلت المسألة إلى القاضى والباشا

وغيرهم من المسئولين الذين نفوا ذلك الواعظ وضربوا العامة الذى كان قصدهم تحريك الفتن وتحقير الحكام والقاضى»[1]
لقد كان هناك بين العامة كثير من العناصر الشعبية على استعداد لتغيير المفاهيم الخاطئة وتعديل النظرة الخرافية للدين لولا رجال الدين فى تلك الفترة والحكام الذين كانوا يغذون هذه المعتقدات ويعطونها الصفة الشرعية بين الناس . .

والوجدان الشعبى يحس بأن مسألة النذر تكاد تصل إلى مرتبة الفض الاجتماعى وكان يحس بثقلها ؛ لذلك ما إن يبتعد الضريح عن مجال حياته حتى يحس بتحلله من القيود الاجتماعية المفروضة فى النذور فيقول العامى «الشيخ البعيد مقطوع ندره» إنه بهذا استطاع أن يكسر القيد المضروب ، ويوصى لنفسه بأنه لا جناح عليه إذا لم يورد ما عليه من نذور ، ومثل هذا المثل يدل على أن هذه المعتقدات كانت فى كثير من الأحيان تمثل صورة مهزوزة فى أذهان البعض ، فلقد أنكر المثل العامى ذلك فقال على الأضرحة بأسلوب يتسم بالشك «افتكرنا تحت القبة شيخ» أو قوله «إحنا دفنينوا سوا» عندما اتفق اثنان على إقامة ضريح فوق حمار ميت وشاع بين الناس من الخرافات والأساطير

---

(١) تاريخ الجبرتى ١/ ٤٩ ، ٥٠ .

حول الميت وعندما اختلف الاثنان حول تقسيم النذور هدده* الآخر بقوله المثل السابق . . .

على أن هذه الصورة لم تكن هكذا لكل الأولياء الذين تبنى لهم أضرحة فقد كان هناك أولياء جذبوا أنظار الناس بما قاموا به من أعمال فى الحياة أو بما أشيع واستحقوا احترام الناس وتقديسهم فى مماتهم ، فمن ذلك ما ذكر إدوارد لين فقال : «وفى مصر أولياء كثيرون يتقشفون تقشف النساك الهنود ، وفى القاهرة الآن ولى طوق عنقه بالحديد وشد نفسه إلى أحد جدران غرفته وظل على ذلك ثلاثين عامًا كما يقال ويزعم البعض أن هذا الولى كثيرًا ما شوهد متدثرًا كالنائم بملاءة ثم بعد ذلك مباشرة تزاح الملاءة عنه فلا يجدونه تحتها . وقد حكى لى أخيرًا أن وليًا قطع رأسه لجرم لم يرتكبه فتكلم بعد فصل رأسه عن جسده وأن آخر حز عنقه فى أحوال مشابهة فخط دمه على الأرض إعلان براءته : «أنا ولى من أولياء الله وقد مت شهيدًا»[1] . . مثل هذه الأعمال عندما تشيع بين العامة يجدون فيها معجزات يحتاجون إلى أصحابها فى قضاء حوائجهم والتغلب على مشكلاتهم ولقد اعترف المثل الشعبى بهذه المعجزات فقال : «أنت شيخ ولا حد قال لك» فالذى يعلم الغيب هو الشيخ الولى . .

---

(١) المصريون المحدثون - إدوارد لين - ترجمة عدلى نور - ١٦٦ .

وهناك طائفة من المتصوفة والأولياء الذين يطلق عليهم الرفاعية قد تخصصوا فى إمساك الثعابين ولهم أعاجيب فى ذلك شاهدها الناس . ويعتقد الناس أن الرفاعى يستطيع أن يعرف مكان الثعبان ويستطيع ببعض التعاويذ والتمائم أن يخرجه من مخبأه ويمسكه بيده دون أن يصاب بأضرار ولقد أشار المثل الشعبى إلى ذلك فقال : «ما دام ما انتش رفاعى بتمسك الثعبان ليه» إن هذه المهنة قاصرة على الرفاعية وهم يعتقدون أنهم يتبعون «كما قال لى أحدهم» مدرسة الكاف والنون أى «كن» وهى مشتقة من قوله تعالى «كن فيكون» ، يقومون بهذا العمل اعتمادًا على هذا السر «كن» ويرون فيه وسيلة لإخضاع الثعبان . «واشتهروا بالإتيان بالأعمال العجيبة : كغرز المسامير الحديدية فى أعينهم من غير أن يقاسوا ألمًا وابتلاع الجمر والزجاج وخرق أجسامهم بالمسلات وأحيانًا يحرقون من جذع النخل ويحشونها بخرق غمست فى الزيت والقطران وإشعالها ثم وضعها مشتعلة تحت الإبط[(١)] . .

ويقول الجبرتى عن الكرامات «ومن كرامات الشيخ على البيومى الذى مات سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف أنه كان يتوب على العصاة من قطاع الطريق ويردهم عن حالهم فيصيرون

(١) قاموس العادات والتقاليد - أحمد أمين - ١٩٩ .

مريدين له ، ومنهم من صار من السالكين وكان تارة يربطهم بسلسلة عظيمة من حديد فى عمدان مسجد الظاهر وتارة بالطوق فى رقبتهم يؤدبهم بما يقتضيه رأيه وكان إذا ركب ساروا خلفه بالأسلحة والعصى[1] ومن هذا النص نستطيع تفسير المثل العامى «الطريقة تجيب العاصى» ، فهناك كثيرون من الأشرار الذين أفسدوا فى الأرض وعندما هداهم الله على أيدى الأولياء سلكوا طريق الطاعة والخضوع والذلة ، والمثل العامى يفسر ذلك بأن الطريقة هى التى جذبت العاصى والفاسد وحولته إلى خاضع تابع يأتمر بأمر شيخ الطريقة .

ومن الكرامات التى ينسبها العامة للأولياء ما ينسب إلى السيد أحمد البدوى من «أنه كان له بساط صغير على قدر جلوسه يسع من أرادوا الجلوس معه ولو كانوا ألفًا قال الشيخ على الحلبى الشافعى فى النصيحة العلوية فى بيان حسن طريقة السادة الأحمدية» ومن هنا صار الناس يقولون فى المثل : (البساط أحمدى) قلت : كأنهم يريدون يجلس عليه من شاء كما يشاء)[2] ، لقد أخذ المثل يشير إلى الكرامات والمعجزات

(١) تاريخ الجبرتى .

(٢) الأمثال العامية - أحمد تيمور - ١٤١ نقلاً عن كتاب فى مناقب السيد أحمد البدوى بعنوان « النصيحة العلوية فى بيان حسن طريقة السادة الأحمدية » / وهو بمكتبة تيمور برقم ١١٢٩ ص ٢٨ .

وينسبها إلى الأولياء فى حياتهم ومماتهم جريًا على العادات والتقاليد . .

وهناك كثير من الطرق الصوفية وكل منها تتميز عن الأخرى ولكن كلها تتفق على الخير وتسلك بمريدها فى طريق الهداية والرشاد ويسيطر على كل طريقة شيخ يكون النموذج الرائد أمام المريدين فى سلوكه وأقواله وأفعاله وتصرفاته مع الناس وعلى المريدين أن يقتدوا به ، ولقد عبر عن ذلك المثل العامى بقوله : «كل شيخ وله طريقة» حقيقة أن الطرق الصوفية تسلك مسارب مختلفة ولكنها تلتقى ، ولقد عبر لى عن ذلك أحد الصوفية بأنهم يختلفون فى طريقهم للوصول ولكنهم يتفقون فى المصدر وقال : «وكلهم من رسول الله ملتمس» . .

وعلى ذكر الأولياء والمشايخ فقد استن الناس سننًا درجوا عليها فى علاقتهم بالأولياء والأضرحة فغالبًا ما يوفون النذور فى أيام الموالد كما يقومون بزيارة الأضرحة فى ذلك الوقت بالذات ويحرضون عليها ومن أمثالهم «من زار الأعتاب ما خاب» ، وتقام للموالد احتفالات عظيمة فيجتمع رجال الطرق الصوفية وعند تكامل الطوائف المختلفة يسيرون فى موكب كبير ينشدون الأناشيد الدينية الخاصة على نغمات الدفوف والطبول ويسير فى الموكب خليفة صاحب المولد ممتطيًا فرسًا عليه كسوته كما

يلبس الخليفة زيًا خاصًا لهذا الموكب وتحف به الناس من كل جانب وينتهى المولد بوصول الركب إلى مكان الولى [1] ويكون ذلك فى نهاية أيام المولد ويعبر عن ذلك المثل بقوله : «ركب الخليفة وانفض المولد» أى أن المولد واحتفالاته لا تنتهى إلا بعد أن يركب الخليفة ويسير فى الركب عند ذلك تنتهى مراسيم المولد . .

وتعد الموالد سوقًا رائجة للتجارة وقد شجعها الحكام لتنشيط الحركة التجارية كما أنها تقوم بعملية إشباع للعواطف الدينية ، كما تباع بها المأكولات وعلى الأخص الحمص والحلاوة وحب العزيز [1] وقد عبر المثل العامى عن ذلك أيضًا بالسخرية من الذى يزور المولد ولا يخرج منه بشيء ، إنه يكون مجالاً للتندر والاستهزاء فيقول «طلع من المولد بلا حمص» . إن العادات فى هذا المجال تفرض نفسها على الناس وتمس كثيرًا من سلوكهم وعلاقاتهم . .

ومن الطوائف التى كان لها دور كبير فى الحياة المصرية طائفة أهل السنة أو كما يقال عنهم «السنيين» الذين ينادون بقصر الدين على كل ما أثر عن الرسول والقرآن ونفى كل ما عدا

---

(١) يمكن الاستزادة من ذلك من كتاب قاموس العادات والتقاليد - أحمد أمين - ٣٨٣ ، ٣٨٧ .

ذلك ، وقد أطلقوا لحاهم اعتمادًا على قول الرسول ﷺ : «قص الشارب واعف اللحية» فجاء المثل العامى على هذا النمط ليقول : «اكرم الدقن وهين الشنب» فقد أطلقه أهل السنة اعتقادًا منهم فى أن ذلك من مأثورات الرسول ﷺ . .

لقد أصبحت هذه العادات - فى جانبها السلبى - من الناس كالماء والهواء نحن لا يمكننا فى هذا المجال إبداء الرأى فى مدى ما يعود على الشعب من ذلك وما جدوى الارتباط بكل هذه العادات التى ليست ذات أهمية للناس ولكننا نستطيع أن نقول أن كثيرًا مما يقوم به الإنسان عامة لا يمكن أن يحكم عليه على أساس المنفعة وعدمها ، كما أن الإنسان المصرى الذى عاش حضارة عريقة امتدت مئات القرون فى ظل هذه التقاليد لا يمكنه التخلص من سلبياتها دفعة واحدة أو فى مدى عدة أجيال ، فالمصرى إنسان عاش حياته الواقعية العملية وحياته العاطفية - حاول أن يشبع كليهما فى حدود ما يتيسر له فى حياته وفى ظل الظروف التى يعيشها سواء أكانت ظالمة أم عادلة . .

بل إنه يمكن القول بأن محاولة المصرى إشباع عواطفه الدينية وغيرها كان رد فعل ضرورى لما كان يقاسيه من ظلم الحكام والإدارة بل إن إحساسه بالظلم والاضطهاد الواقع عليه فى الحياة دفعه إلى أن يتأمل فى الحياة الآخرة حياة ما بعد

الموت ؛ لذلك فقد عمل لها كثيرًا واعتقد فى أهميتها له . على أن عجزه عن أن يحقق ذاته ، ثانيًا دفعه إلى الإيمان بالمعجزات كوسيلة يلجأ إليها لمواجهة حياته وظروفه مع الحكام وغيرهم من المسيطرين على شئونه . .

شخصيات شريرة

١- إبليس :

لم تخل العقيدة الدينية عند العامة من العناصر الخرافية التى ارتبطت بها فى بعض العصور التاريخية المتخلفة فقد آمنوا بالمعجزات ونسبوها إلى الأولياء والصالحين ، وكذلك فقد عاش الوجدان العامى يعبر فى أمثاله عما تسرب إليه من الأفكار الدينية وحاول أن يضيف إليه من خياله الكثير حتى تستوى لتتفق مع تصوراته وظروفه ، وهناك كثير من النماذج التى ألحق بها العوام كثيرًا من الخرافات فشاعت بينها فرصدتها الأمثال وحاولت أن تدير حولها تصوراتها . فإبليس فى المثل العامى يمثل البشر وقد تسربت إلى العوام هذه العقيدة مما شاع فى قصص الأقدمين عن شخصية إبليس وما صورته العقيدة الدينية .

فقد صور القرآن إبليس فى كثير من آياته فى صورة العاصى الشرير الذى خالف أوامر الله فقال تعالى : ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾[2] هاتان

---

(١) الآية ١٥ سورة الحجر .

(٢) الآية ١٨ سورة الكهف - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقى - حرف السين . .

الآيتان تشيران إلى أن إبليس كان يتخذ موقف المعارض المناوى .
وجاء فى الأخبار أن نوع الجن من قديم الزمان قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام ، كانوا سكان الأرض وكانوا قد طبقوا الأرض برًا وبحرًا وسهلًا وجبلًا وكثرت نعم الله تعالى عليهم فكان فيهم الملك والنبوة والدين ، والشريعة فطغت وبغت وتركت وصية أنبيائها وأكثرت فى الأرض الفساد ، فأرسل الله تعالى إليهم جندًا من الملائكة فسكنت الأرض وطردت الجن إلى أطراف الجزائر وأسرت منها كثيرًا وكان ممن أسر عزازيل وجرى بينهم قتال وكان عزازيل صبيًا نشأ مع الملائكة وتعلم من علمهم وأخذ يسوسهم وكانت أيامه حتى صار رئيسًا فيهم وبقى الأمر على ذلك زمانًا طويلًا حتى جرى بينه وبين آدم ماجرى»[1] .

وإبليس عند العامى إذن وكذلك عند المثقفين القدامى يمثل الشر وهو يقوم بذلك بواسطة أعوانه وأبنائه «يقول مجاهد» لإبليس خمسة من الأولاد قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره فذكره أن أسماءهم «بيرة» ، «الأعور»، «مسوط»، «داسم»، «زلنبور» . أما بيرة فصاحب المصائب يأمر بالثبور وشق الجيوب وأما الأعور فإنه صاحب الزنا يأمر به ويزينه فى أعينهم وأما مسوط فصاحب الكذب وأما داسم فيدخل بين الزوجين ويوقع

(١) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات - زكريا بن محمد بن محمود القزوينى ٦٨٢هـ - ٢١١ .

بينهما البغضاء وأما زلنبور فهو صاحب السوق فبسببه لا يزال أهل السوق متخاصمين» ، وقد روى عن السابقين من الصحابة كثيرًا من الأقوال المنسوبة إلى الرسول ﷺ فعن أبى قدامة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : «إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال : يا رب أنزلتنى وجعلتنى رجيمًا فاجعل لى بيتًا قال : الحمام قال : فاجعل لى مجلسًا قال : الأسواق ومجامع الطرق قال فاجعل لى طعامًا : قال مالم يذكر اسم الله عليه قال : فاجعل لى شرابًا قال : كل مسكر ، قال : فاجعل لى حديثًا ، قال : الكذب ، قال فاجعل لى مصائد ، قال : النساء» . .

ويقول العقاد : «والمتكلم العربى يفهم من وصف اللسان من الناس بأنه إبليس كل ما يريده القائل من هذه الصفة فهى دالة فى كلام الخاصة والعامة على الدس والفتنة والدهاء والسعى بالفساد ، ولم تحمل كلمة واحدة من دلالتها اللغوية أكثر مما حملته هذه الكلمة مستعارًا من صفات إبليس فى العقيدة الإسلامية . كما أن ضياع الأمل ألزم صفات إبليس على ألسنة الخاصة والعامة وليس أشهر من المثل الذى يضرب بأمل إبليس فى الجنة مراد فالمعنى الأمل الضائع كل الضياع»[1] . .

---

(١) إبليس - عباس العقاد ط الهلال ١٩٦٧ ص ٤٣ ، ٤٤ .

هذه العقائد التى تسربت إلى العامة عن طريق رجال الدين لم يكن يتركونها دون أن يعبروا عن مشاعرهم نحوها بطريقتهم الخاصة . لقد صور العامة فى حكمتهم الشعبية إبليس بصور لا تختلف عن معتقداتهم الدينية فإذا كان الدين قد صور إبليس على أنه شر يحيط بالإنسان فقد صوره المثل العامى بذلك أيضًا فيقول : «فضى إبليس لقلع الديس» فقد استعد لمضايقة الإنسان ويقول : «إذا دخل إبليس حمى الوطيس» أى أن إبليس لا يظهر إلا فى الحروب والمشاحنات وظهوره إيذان بزيادة الشر ، كما أنه يمثل الغرور والطيش فيقول عنه المثل «ما يشكرش فى نفسه إلا إبليس» أو يقول «إبليس سمى نفسه أنا» وإبليس الذى يعبث بين الناس فسادًا لا يمكن أن يسىء إلى نفسه «إبليس ما يخربش بيته» فأذيته للناس ولا يمكن أن تنعكس على نفسه . .

والصورة التى فى أذهان العامة عن إبليس أنه ملك من الملائكة عصى ربه فطرد فهو إذن يعرف الله ولكنه عصاه ولقد رصد المثل العامى هذه الفكرة فقال : «إبليس يعرف ربه لكن بيتخابث» ومع كل هذه الشرور التى يسببها فى الأرض فإنه يطمع فى رحمة الله . فيرصد المثل العامى هذه الرغبة التى يستحيل تحققها ويصورها فى سخرية عنيفة فيقول : «طمع إبليس فى الجنة» . وفى بعض الأحيان قد يصل الإنسان فى شروره إلى

درجة تفوق ما ينسب إلى إبليس فيسجل المثل هذه الحقيقة فيقول : «إبليس حتة منه» أو «إبليس بيتعلم منه» . . .

والواضح أن هذه الصورة والنماذج التى ذكرها المثل العامى وصور فيها إبليس على أنه يمثل الشر الذى يقف فى مواجهة الخير هذه الصورة لم تخرج عن التصورات الدينية التى ذكرتها كتب الدين وتحدث بها الخطباء فى أحاديثهم الدينية وخطبهم وفى مختلف المناسبات ، كما أن الوجدان العامى فى تصوراته لم يكن يعبر إلا عن إحساس العامة حيال هذه الشخصية الشريرة وهو إحساس كان العامة يستخدمونه للتعبير عن مواقفهم حيال حياتهم اليومية ومعاملاتهم . .

لقد كان إبليس رمزًا للشر ولكن أين إبليس ؟ لم يكن إبليس إلا الإنسان الذى يسىء إلى الغير ، فلم يكن يخرج إبليس عن هذا الشخص أو ذاك الإنسان . إن إبليس فى بعض المواقف لم يكن صاحب تأثير على مقدرات الإنسان فالمثل يقول عنه : «ألف دعوة من إبليس ما تخرق ولا قميص» أى أن إبليس تلك الشخصية الخرافية لم يكن العامة فى كل الأحيان على ثقة من شرورها ولكن العامى لابد من أن يخلق شخصية تمثل الشر . حقيقة أن الذى يقوم بدور الشرير الحقيقى هو الإنسان ولكن العامى دائمًا يخلق الشخصية النموذج لكى يعبر عن حياته بما

فيها . فالإنسان يعلم أن الأقدار تجرى بين الناس بخيرها وشرها ولا يستطيع الإنسان أن يقودها إلى مبتغاه وهذه حقيقة اعترف بها ، ولكنه محتاج كما قلنا إلى الشخصية التى تحمل عنه كل هذه الأثقال فيستطيع أن ينسب إليها ما يجب مثل إبليس وغيره . . .

٢- الشياطين والعفاريت والغول :

إن تصورات العامة عن الشياطين لا تختلف كثيرًا عن تصوراتهم عن إبليس وإذا كان إبليس يمثل الشر فإن الشيطان أيضًا يمثل الشر بل يدفع الإنسان إليه دفعًا «زعموا أن الجن حيوانٌ نارى مشفى ، الجرم من شأنه أن يتشكل بأشكال مختلفة واختلف الناس فى وجود الجن فمنهم من ذهب إلى أن الجن والشياطين مردة الأنس ، وهم قوم من المعتزلة ومنهم من ذهب إلى أن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار وخلق الجن من لهبها والشياطين من دخانها وأن هذه الأنواع لا يراها الناظر [١] . فلقد خلط العامة بين الشياطين والجن وإبليس والعفريت وغيرها لأنها أجسام تؤدى عملاً يكاد يكون واحدًا فهى أجسام وجدت لمضايقة الإنسان ، فالشيطان عند العامى لا يختلف عن إبليس

---

(١) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات - ٢١١ .

فهو يحرض الإنسان على الوقوع فى الشر وارتكاب الذنوب . وقد عبر عن ذلك المثل فقال : «كل ما أقول يا رب توبة يقول الشيطان بس النوبة» لقد وجد لكى يوقع الإنسان فى حبائله ومكائده لذلك فقد حاول العامى أن يحذره فهو إذا وجد نفسه تندفع إلى الشر حاول أن يوقفها فيقول : «اللهم أخزيك يا شيطان» ، والتصوير الشعبى يعتقد أن الشيطان يسحب الإنسان إلى الوقوع فى الشر والإنسان عندما يتنبه إلى ذلك فإنه بذلك قد فوت على الشيطان فرصة إيقاعه . .

والمصرى يعتقد بأن الشيطان قوة شريرة يرهب جانبها ولا يطيق ذكرها فإذا ذكرت فى الأحاديث أخذ يقول : «اللهم اجعل كلامنا خفيف عليهم» أى اجعل كلامنا هذا لا يثير الشياطين علينا وكأنه بذلك يحترس من ذمهم ، وكذلك فإنه يعتقد أن لكل إنسان شيطانًا يغويه فيقول : «كل واحد له شيطان» ، على أن الشيطان إذا كان يمثل الروح الشريرة التى تغوى الإنسان وتحرضه على الفساد فإن هناك أرواحًا تعمل لخدمة الإنسان وهى الملائكة . فهما على طرفى نقيض لذلك يقول المثل : «إذا حضرت الملائكة غابت الشياطين» فهى لا تظهر حيث توجد الملائكة . .

والحقيقة أن التصور العامى عن الشياطين لا يختلف عما يدور فى النفس الإنسانية من نوازع الشر ، إن الإنسان فى داخله

جانبان : أحدهما الخير والآخر يمثل نوازع الشر ، وليست هذه الرغبات المكبوتة التى تدفع الإنسان إلى الشر إلا الشيطان كما يتصورها العامة «وكل واحد له شيطان» إنما يفسر ما يدور فى النفس الإنسانية من رغبات تريد أن تقوم بدور فى الحياة ولكن الشعور يتغلب عليها فى بعض الفترات فيعبر عن ذلك العامى بقوله : «اللهم أخزيك يا شيطان» ؛ ذلك لأن الإنسان يتكون من مجموعة من الرغبات والمشاعر التى قد لا تتفق مع طبيعة المجتمع ومن ثم لا تجد مجالاً لكى تطفو على سطح العلاقات الاجتماعية ، فالإنسان تتحكم فيه العلاقات الاجتماعية إلى حد كبير . إن الرجل المثقف يستطيع أن يجد تفسيرًا علميًا لهذا ولكن العامى لا يستطيع إلا أن ينسبه إلى الشيطان باعتباره مسئولاً عن ألوان الشرور التى يندفع إليها الإنسان . . .

هذه التصورات السابقة لم يكن يختلف عليها العامة أيضًا فيما يختص بالعفاريت ، فالعفاريت أجسام غريبة موقفها من الإنسان موقف العدو ؛ لذلك خافها وقد عبر عن ذلك المثل العامى فقال : «اللى يخاف من العفريت يطلع له» أو قال : «له فى كل خرابة عفريت» والتصور العامى عن العفريت أنه كثير الحركة وسريع التنقل من مكان إلى آخر بصورة تخرج عن تصورات الإنسان لذلك يشبهون الإنسان النشط بقولهم «معجون بمية عفاريت» . .

أما الغول «فقد زعموا أنه حيوان شاذ مشوه لم تحكمه الطبيعة وأنه لما خرج مفردًا لم يستأنس وتوحش وطلب القفار وهو يناسب الإنسان والبهيمية وأنه يتراءى لمن يسافر وحده فى الليالى وأوقات الخلوات فيتوهمون أنه إنسان فيصد المسافر عن الطريق . وقال بعضهم أن الشياطين إذا أرادوا استراق السمع تصيبهم الشهب ، فمنهم من احترق ومنهم من وقع فى البحر فصار تمساحًا ، ومنهم من وقع فى البر فصار غولاً . وقال الجاحظ : الغول كل شيء من الجن يتعرض للفساد ويكون فى ضروب الصور والثياب ، وذكر جماعة من الصحابة أنهم رأوا الغول فى أسفارهم منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى الغول فى سفره إلى الشام قبل الإسلام فضربه بالسيف»[(١)] . .

إننا نستطيع أن نتبين تصورات العامة عن هذا المخلوق من خلال هذا النص فهو وحش هيئته مزيج من البهيم والآدمى ولكنه يأكل كثيرًا ، فقد ذكر المثل العامى «غولة عملت عرس قال إن شالله يكفيها ويكفى عيالها» . إن العامى يتصور عن الغولة كثرة الأكل والشره لذلك يقول العامة للشخص الأكول : «هو زى الغول فى الأكل» . . .

وكذا فإن الغولة مثل سابقيها مرهوبة الجانب تثير الرعب

---

(١) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات - ٦٨٢ .

والفزع للإنسان بما تعمله فرغم ما فيها من عيوب ، فالإنسان لا يستطيع أن يواجهها بعيوبها يعبر عن ذلك المثل بقوله : «محدش يقدر يقول يا غولة عينك حمرة» . . .

وهكذا تأتى الأمثال لتتحدث عن هذه الأجسام الغريبة حديثها عن الإنسان فهى تنسب إليها ما تنسبه إلى الإنسان ، وهى لا تختلف فى التصورات المثلية عن الإنسان إلا من حيث إنها تعبير كامل عن الشر أو الخير فمنها ما يضايق الإنسان ويضع أمامه العقبات ومنها ما يساعده على حل مشكلات حياته . ولقد أدت بذلك دورًا واضحًا فى الحياة الاجتماعية رغم أنها تصورات غامضة ليس لها أساس علمى أو منطقى يتفق مع العقل . .

الفلاح المصرى فى الأمثال

إن الذى يريد أن يعرف الشعب المصرى على حقيقته ، عليه أن يذهب إلى الريف أو إلى الصعيد ويعايش الفلاحين ليرى عن قرب حياتهم ومشاكلهم ومواقفهم من الحياة وخبرتهم التى اكتسبوها عبر القرون . ويخطئ من يعتقد أن الفلاح المصرى فى القرن العشرين يختلف عن جده زمن قدماء المصريين ، كيف يتغير المصرى فى الريف ولا تزال كل عناصر الحياة المحيطة به منذ أجداده تلازمه كظله . فلا يزال المصرى فى الصعيد والريف يستعمل الشادوف والفأس ولا يزال يسكن الأكواخ البدائية ولا يزال يعيش على ما تجود به الأرض ، غالبيتهم لا يعرفون شيئًا عما يدور خارج قراهم وإذا زادت معرفة أحدهم لم تتعد حدود المركز ، فالفلاح لا يزال يعيش فى بيئته المغلقة منذ آلاف السنين . .

والفلاح الذى عاش فى الوجه البحرى لا يختلف عن أخيه فى الوجه القبلى . فلقد خضعا لظروف واحدة وعاشا فى بيئة واحدة وتكون المصرى فى طول البلاد وعرضها من أنماط متشابهة قد يختلف أحدهما عن الآخر فى بعض الظروف وقد يتخلق أحدهما بأخلاق قد لا يعرفها الآخر فى فترة معينة من الزمن ولكن النتيجة العامة على مدى التاريخ هى النموذج الريفى الواحد بصبره وقدريته وبؤسه فى مواجهة الطبيعة والذى يعبر عنه المثل فيقول : «راح تروح فين الشمس عن قفا الحصاد» وكذا عاداته وأخلاقه ومعاشه . يقول أرمان : «فلقد غيرت تقلبات التاريخ لغة البلاد ودينها ولكنها لم تستطع أن تغير مظهر هذا الشعب القديم . إن مئات الآلاف من اليونان والعرب الذين استقروا فى البلاد لم يحدثوا فيها أثرًا ؛ لأن هذه البلاد قد امتصتهم ، وقد يكون من المحتمل أنهم تمكنوا من إحداث أثر فى المدن الكبيرة التى استقروا فيها مجتمعين ولكنهم فى سائر البلاد لم يحدثوا إلا أثرًا ضئيلاً جدًا . فالفلاح الحالى لا يزال يشبه أجداده الذين عاشوا منذ خمسة آلاف سنة تمام الشبه مع فارق بسيط هو أن الفلاح الحالى قد أصبح يتكلم اللغة العربية ويدين بالإسلام و المسيحية . والذى يتجول الآن فى قرية مصرية من قرى الوجه القبلى يستطيع أن يرى أشكالاً من الناس

يخيل للمرء أنها قد خرجت لساعتها من الرسوم والصور التى تغص بها المقابر المصرية القديمة . فكل بلد وكل ظرف من ظروف الحياة يطبع السكان بطابع خاص من المميزات المعينة . وهكذا فإن الشعب الذى عمل فى زرع الأرض المصرية تحت ظروف متماثلة وشروط فى العمل متشابهة يكون قد حافظ دائمًا - فيما يبدو - على صفات واحدة»[1] .

والواقع أن المصرى الذى بنى أقدم حضارات العالم لم يكن متخلفًا فى تفكيره بمعنى أنه لم يكن تقصر قدرته عن اكتشاف الشيء طالما امتلك وسائله ، لقد اعترف كثير من العلماء بذكاء المصرى وروحه العملية ونشاطه العظيم ، لقد ظهر ذلك عندما وجد الفرصة المناسبة ، ولكن سريعًا ما كانت تتوارى هذه المواهب وتخبوا جذوتها تحت ضغط الظروف وبفعل الحكام وتسلطهم على شئونه ومقدراته يقول جورج شوينفرت : «عن الفلاح المصرى فى صغره مطيع وذكى ونشيط ، ولكنه عندما يكبر يعضه الفقر بنابه وتحوطه الهموم ويمضه العمل المستمر فى استخراج الماء يفقد روح المرح والنضارة وحدة الذهن التى جعلت منه فى الصبا فتى لطيفًا فيه أمل وله رجاء . فهو يموت

---

(١) مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة - أدولف أرمان - هرمان زانكة - ترجمة د . عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ص ٢١ .

ويحصد وهو يعمل ويكسب ولكن نقوده لا تبقى له ، أنه يرى ثمرة تعبه وكده تنساب إلى أيدى رؤسائه وأسياده ، ولهذا فإن طبيعته وأخلاقه تصير كطبيعة الطفل الموهوب الذى تربى تربية خشنة قاسية وعندما قوى واشتد ساعده وجد الآخرين يستغلونه ويستحلون ثمرة عمله وكده»(١) . .

وفى التاريخ القريب قدم الجبرتى صورة تنبض بالظلم الذى عاشه الفلاح المصرى طوال عصور التاريخ فقال عند ذكر حوادث سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف . . أخذ حكام الأقاليم فى جمع الفلاحين للعمل فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم المراكب وتعطلوا عن زرع الدراوى الذى هو قوتهم وقاسوا شدة بعد رجوعهم من المرة الأولى بعد ما قاسوه ومات كثير منهم من البرد والتعب وكل من سقط أهالوا عليه من تراب الحفر ولو فيه الروح ، ولما رجعوا إلى بلادهم للحصيدة طولبوا بالمال وزيد عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن وكيلة قمح وكيلة فول وأخذ ما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون والكيل الوافر فما هم إلا والطلب للعود إلى الشغل فى الترعة ونزح الماء التى لا تنقطع نبعها من الأرض وهى فى غاية الملوحة والمرة الأولى

---

(١) مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة - د . عبد المنعم أبو بكر ص ٢٤ .

كانت من شدة البرد وهذه المرة فى شد الحر وقلة المياه العذبة فينقلونها بالروايا على الجمال مع بعد المسافة[1] . .

إن مثل هذه الصورة لم تكن تمضى دون أن يسجلها فى أمثاله وقد يحول المقاومة فيقول المثل «العونة يا فلاحين قال من كل بلد راجل»[2] لقد ذهب الحكام يطلبون للسخرة فوقف بعضهم موقف الذى لا يريد هذا العمل واستطاع أن يقول ما يراه . لقد كان هناك نوع من التحدى أو التذمر ولكنه لم يكن يخرج عن تحدى الرجل الضعيف اليائس الذى لا يرى فى نفسه القدرة على الدفاع عن مصالحه . .

إن هذه المحن الى عاشها الفلاح المصرى وطبيعة عمله من بذر للحب وانتظار للغيب وما يأتى به المستقبل قد أكسبته أخلاقيات تسمى عند المحدثين «أخلاقيات العمل» فقد تعود المصرى الصبر على البلاء حتى ليظن من لا يعرفه أنه يتسم بالبرود والتبلد ، وقد تولد ذلك عن صبره على العمل ، والمشقة فى الظروف غير الطبيعية «ولقد عودته المواسم الزراعية أن ينتظر

---

(١) الجبرتى ٤/ ٣٢٥ .

(٢) العونة وتسمى السخرة : يريدون بها اجتماع أهل القرى وخروجهم للعمل بلا أجرة كحفر الخلجان أو إصلاح الجروف وقد أبطلت الآن ، أى قيل هلموا إلى العونة أيها الفلاحون فقال قائل منهم : يخرج من كل بلد رجل فليس من العدل جمع العدد المطلوب من بلد واحد .

كل شيء فى أوانه ويربط كل أمل بأجله فهو صبور طويل البال فيه إثارة من «القدرية» وانتظار الغيب وقلة استعجال المقادير»[1] ، فهو يعمل «اللى عليه واللى على الله يكون» . .

ويخطئ من يدعى أن الفلاح كسول وغير منتج قد يكون فى ذلك شيء من الصحة بلغة الاقتصاديين ؛ لأنه يعانى من البطالة المقنعة ، ولكن ذلك لا يكون صحيحًا إذا لم تتيسر له الفرصة والظروف التى ينتج فيها ويبدع ، فالفلاح المصرى ما زال يعيش حتى الآن فى ظروفه المحدودة وتفكيره الضيق وبيئته التى لم يطرأ عليها تغيير ما ، هذا الفلاح لا يمكن أن يطالب بشيء إلا بعد أن نحرره فكريًا واجتماعيًا ونفك قيود السلبيات التى تشل تفكيره وتفقده الثقة بنفسه والتى تولدت على مر القرون . .

وعلاقة الفلاح المصرى بالحاكم تتسم بالعدواة ، فعلى مدى الزمن قام الفلاح المصرى باستنبات الأرض فى نشاط واجتهاد ولكنه كان دائمًا يصاب بالطفيليات البشرية التى تمتص جهده ، وهى طفيليات كانت ترد إلى مصر من الخارج لتنهب الثروات وتسلبه القوت ، ولقد عبر عن ذلك القول المأثور «من دخل مصر ولم يستغن فلا أغناه الله »[2] ، هذه المظالم كان يمارسها

(١) سعد زغلول - عباس العقاد - ٢٩ .

(٢) مجلة الهلال جـ ٤٤٦/٨ السنة ١٤ مايو سنة ١٩٠٦ .

الحكام والملوك وأشياعهم المستوردون من الخارج «وكثيرًا ما كان يقاوم هذه العوامل فيوقف تيارها حينًا ويتغلب عليها حينًا آخر ولكنه لا يكاد يفيق من أحدها حتى يأخذه آخر وكأنما كانت سباقًا مضطردًا لا فرجة فيه ، وأدى به هذا الصراع إلى ما يشبه الاستسلام والركون إلى اليأس»(١) .

ولقد كانت هذه الأحوال تدفع بعض الفلاحين إلى الثورة على ذلك عندما يجدون الفرصة المناسبة ، وقد أورد الجبرتى حادثًا يعبر بصدق عن طبيعة الفلاحين فيقول الجبرتى : «كان إبراهيم جريجى عسوفًا ظالمًا لا يرحمهم وله مقدم من أقبح خليقة الله من منية حلفة فيغرى بالفلاحين ويسجنهم ويعذبهم ويستخلص لمخدومه منهم الأموال ظلمًا وعدوانًا وحصلت حادثة هرب بسببها إبراهيم واجتمع الفلاحون على ذلك المقدم وقتلوه وحرقوه بالنار»(٢) لقد أقدم الفلاحون على ذلك بعد أن نفد صبرهم وهم يقومون بذلك وفى اعتقادهم ما يترتب على ذلك من مظالم أخرى . .

ولقد كان نتيجة هذه المظالم أن عاش الفلاح المصرى حياته فى بؤس وفقر ، وقد انعكس ذلك على حياته وحياة أسرته ولون

---

(١) مجتمعنا - د. عبد الحميد يونس ص ٧٧ « سلسلة اخترنا لك » .

(٢) الجبرتى ٢/٣٩ حوادث سنة ١١٩٢هـ .

تصرفاته حتى إنه قد يقوم بعمل ما يخالف طبيعته وعاداته ، «فكثيرا ما يحدث أن الفلاح يضطره الضنك الشديد إلى وضع ابنه مقابل مبلغ من المال وضعًا أسوأ بكثير من الرق وذلك عندما يطلب مجندون من القرية فإن شيخ البلد يعمد إلى الطريق الأسهل فيجند أولاد من يقتنون أملاكًا وهؤلاء يستطيعون أن يخلصوا أولادهم من الجندية بأن يعرضوا على الفلاحين الفقراء أن يجندوا أولادهم مقابل جنيه أو جنيهين لكل ولد ويفوزون بطلبهم عادة مع أن حب البنوه سائد عند المصريين بقدر حب الأبناء لوالديهم» [(١)] .

إن مثل هذه الظروف كانت تدفع الفلاح دفعًا إلى غير ما يرغب فكان يتحايل على الحياة لكى يعيش ، ولم يكن يعنيه شخصية من يحكمه بقدر ما يعنيه ما يأكله ، إنه يريد أن يأكل أولاً لكى يعيش وتعيش أسرته ، وقد صور لين فقر الفلاح فقال : «وقلما يذوق الفلاحون اللحم وكثيرًا ما لا يجد الفقراء غير الدقة» يغمسون فيها خبزهم بالرغم من بخس أثمان الأطعمة ، ومما يثير الدهشة أن يكون الفلاح قويًا صحيحًا مع بساطة طعامه وقلته وما يعانيه من كد» [(٢)] ولا شك فى أننا لا نستطيع أن نفهم طبيعة

(١) المصريون المحدثون - ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق - ١٢٨ .

المثل الريفى إلا من خلال ما تناثر من أحداث التاريخ مما سبق الإشارة إليه . . .

هذه الصورة دفعت الفلاح لكى يعبر عنها فى أمثاله فيقول : «إن حضر العيش يبقى المش شبرقة» ومن هنا نجده يحترم الخبز ويقول عليه «نعمة من الله» أو يقول «نعمة واللى يكرهها يعمى» ، وينتقد من لا يحافظ على خبزه ويأسف إذا وجد لقمة ملقاة على الأرض فيلتقطها ويركنها بعيدًا عن الطريق . كما أن الفلاح إذا استطاع أن يسدد مسئولياته دون أن ينكشف فإن المثل يصوره كأنه سلطان لا يدرى به أحد فيقول : «فلاح مكفى سلطان مخفى» . .

ولقد صورت الأمثال الفلاح المعدم أسوأ تصوير عندما قالت : «لو كانت الأسماء تباع وتشترى لكان الفلاح سمى ابنه خرا» أو «لو كان الاسم ينشرى لكان الفلاح سمى ابنه وحل» ، فلو حدث هذا المستحيل لكان أول من يسمى أردأ الأسماء هو الفلاح فالشعب ينظر إليه على أنه إنسان معدم لا يملك شيئًا وهو يعيش بصعوبة ويخرج منها بسهولة . .

إن الموقف الذى وقفه الحاكم والرؤساء من الفلاح قد دفع الناس إلى أن تصوغ حياة الفلاح فى أمثال بها كثير من السخرية وتبعث فى ذات الوقت على كثير من المرارة والألم ، لقد أخذت

بعض هذه الأمثال أسلوب الردح أو السخرية وبعضها صوره فى صورة الغبى الذى لا يمكن أن ينصلح حاله أو الذى لا يصلح لشيء ويكاد التصوير فى بعض الأمثال يدرجه فى زمرة الحيوانات وبعضها يحمل لونًا من ألوان التندر . وهذه الأمثال ولا شك تعكس وضعًا اجتماعيًا سيئًا عاشه الفلاح . .

إذا حاول الفلاح أن يناقش أو يتكلم أو يعبر أو حتى يجرؤ على أن ينتقد ، سريعًا ما يقأل له «نسيت يا فلاح اللى كنت فيه كعبك المشقق والخرا ماليه» فالمثل يعكس بعض الحقائق الاجتماعية فهناك فوارق لا ينبغى على الفلاح أن يتعداها ، وإذا حاول فإنه يخفق ؛ ذلك لأن المثل يلفته إلى قدمه المشقق من الشمس والماء الذى «يهريه» والوحل الذى يعيش فيه ليل نهار ، وعليه أن يحس بحاله ولا يجرؤ على نسيان طبيعته وحتى لو استطاع الفلاح أن يمتلك منزلاً ، سريعًا ما يقول له العامة : «بعد نومك ويا الجديان بقى لك مطل على الجيران» إنهم دائمًا يذكرونه بحاله حتى لو حاول أن يتخلص منه أو حاول أن يشعر الناس بذاته أو يضع نفسه فى وضع اجتماعى مقبول . .

وبعض هذه الأمثال صوره فى صورة المتبلد الذهن الذى يصعب عليه أن يتغير بل قد بالغ المثل فى بعض الحالات ونادى باستحالة تغيير الفلاح اجتماعيًا ، ومما لا شك فيه أن هناك كثيرًا

من العوامل التى كانت تلعب دورها فى ذيوع مثل هذه الأمثال التى لا يمكن أن تصدر إلا عن طبقات خاصة تحس بالاستعلاء الطبقى على جماهير الشعب الممثلة فى الفلاحين . فالمثل يقول : «الفلاح مهما اترقى ما ترحش منه الدقة»[1] فالفلاح لا يمكن أن يتخلى عن صفاته فتظل ملازمة له مثلها مثل الوشم الذى يلصق بالجسم ولا يمكن إزالته . إن مثل هذه الطبقات كانت تضع الفلاح فى هذا الوضع لكى تدفعه إلى الركون إلى اليأس والاستسلام ومن ثم مال إلى القدرية عندما يزاول عمله يعبر عن ذلك بقول «آهى أرض سوده والطاعم الله» ونزع إلى الإيمان بالغيبيات واعتقد فى الخرافات . .

لقد كان الحاكم يرى بفراسته أن قوة المصرى تكمن فى هذا الفلاح البسيط وأنه إذا ساعدته الظروف ربما أطاح به وأجهز على حكمه ؛ لذلك درج على استخدام منطق الإيحاء والتأثير النفسى والتحطيم المعنوى حتى يستطيع أن يقنعه بواقعه وبحياته ومن ذلك المثل الذى يقول : «عمر الفلاح إن فلح» فالفلاح لا يمكن

---

(١) الدقة : الوشم وهو كثير الشيوع بين القرويين والمراد أنه مهما يرتق فى المعالى ومهما تهذب فهيهات أن يزول عن جسمه أثر الوشم بل يبقى دالاً على أصله وبيئته أى هيهات أن يزول عنه ميسم الفلاحة وما انطوى عليه من جفاء الطبع وغلظ الفهم - الأمثال العامية - أحمد تيمور .

أن يصلح مهما عاش فهو لا يصلح لشيء أو أنه على هامش الحياة ولا يستطيع أن يجاريها ويعيشها . والمثل الذى يقول : «إن طلع من الخشب ماشه يطلع من الفلاح باشا»[١] .

لقد استخدم هذا المنطق كثيرًا كأسلوب من أساليب الحرب النفسية ، ولا شك فى أن الطبيعة قد خففت من أثر هذه الحرب النفسية على معنوياته بأن جعلته يفرغ طاقاته الحبيسة فى عمله كما جعلته يتلهف على اللقمة ولا يهمه ما عداها ، وكأننا بالطبيعة وقد ولدت عنده الصبر والسخرية فى هدوء لقد كان الحاكم يحس بأن هذا الفلاح كالمارد ينبغى أن يظل دائمًا فى القمقم كما عمل الحكام طوال عهود التاريخ على وضعه حبيس مشاكله الخاصة إن هذا الوضع يساعده - الحاكم - على امتصاص دمه . لقد كانت الصورة مزرية حقًا حينما « بلغت ثروة المالك مائة ألف فدان أو مائتين أو خمسمائة ألف فدان أو أكثر وألوف من العامة والفلاحين يتضورون جوعًا إذا شاء أعالهم كرمًا منه أو شاء أغفلهم وليس من يطالبه وما زال ذلك شأنهم إلى عهد

(١) الماشة : شبه كلابتين تقتبس بهما النار ، وتعمل عادة من الحديد والنحاس ، فإن عملت من الخشب لا تصلح لأنها تحترق ، أى لا يصلح الفلاح لأن يكون باشا ، كما لا يصلح عمل الماشة من الخشب - أحمد تيمور - الأمثال العامية .

غير بعيد»[1] ، لقد كانت مصر كما تقول الأمثال «من دخل مصر ولم يستغن فلا أغناه» لقد كانت مرتعًا خصبًا للحكام وكانوا يستخدمون أساليب التحطيم النفسى وغيرها من وسائل الإذلال . .

وبعض هذه الأمثال اتخذ أسلوب السخرية واستخدم ألوانًا من التهكم على الفلاح ، فالمثل يقول : «لو يكون الفلاح من ذهب لكان بيضه من خشب» على أن الفلاح عليه أن يظل هكذا ولا يحاول أن يتغير ؛ ذلك لأنه حينئذ سوف يكون مرتعًا خصبًا للتندر والسخرية «الفلاح يوم ما يتمدن يجيب لأهله نصيبة» فالفلاح «أول ما شطح نطح» وإذا واجه المدنية فإنه لا يستطيع أن يجاريها أو يستخدمها فهو يسىء التصرف فيما يعرض له ؛ ذلك لأنها لا تتفق مع طبيعته الغليظة وسلوكه الجاف الذى لا يتفق مع الذوق والإنسانية ، فالمثل يكاد يصوره فى صورة البهيم الذى لا يصلح إلا للأرض . والفلاح لا يمكنه أن يواجه حياة تغاير ما تعود عليه ، إنه يأكل الخبز الجاف أما المش فإنه يكون بشرقه فماذا يحدث لو أكل مما يأكله العظماء ؟ إنه يكون مجالاً خصبًا للسخرية والاستهزاء «أكل الفلاح تفاح قال الفجل أحسن» لقد

---

(١) مجلة الهلال ج ٨ من السنة ١٤ مايو سنة ١٩٠٦ .

تعود على الفجل لأنه مأكوله «يستطعمه» ويجد فيه لذة لم يتعودها من التفاح وكذلك المثل : «أكل الفلاح تفاح اضربه ينزل خراه جعضيض» . .

إن هذه الصورة لم تكن إلا نتيجة للاستعلاء الطبقى وكذلك كانت عملاً مقصودًا وسياسة مرسومة بذكاء ودقة حتى يستطيع الحكام أن يخدموا أغراضهم ويحققوا مآربهم . على أنه لا ينبغى أن يفوتنا ماذا كان يدور بين الفلاح والمالك صاحب الأرض أو صاحب الوسية كما يقال ، فلقد كان الفلاح فى الوسية لا يختلف عن باقى ممتلكات الإقطاعى فهو فى الوسية كالمواشى والآلات الزراعية بل قد يتمادى فى تعذيب الفلاح وتحطيم روحه فهو يدفع بالمثل تلو الآخر لكى يحيط الفلاح من كل الجوانب ويسد عليه المنافذ التى قد يستطيع أن يطرقها فقد يوحى إليه بالمثل : «إن فاتتك الوسية اتمرغ فى ترابها»[1] ، فمن الأصلح لك أن تقنع بما أنت فيه بل إن ما يعطيه لك الإقطاعى إنما هو تفضل منه وعطف لا يمكن لك ولا لمثلك من الفلاحين أن يعيشوا فيه . .

---

(١) وسية : محرفة عن الأوسية . وأصلها من اللغة المصرية القديمة وتطلق الآن على دسكرة صاحب المزرعة ، ومن فيها من المستخدمين ، وما فيها من الماشية ونحوها وكانت بمنزلة الحكومة للزراع - الأمثال العامية - أحمد تيمور - حرف الألف .

لقد عاش الفلاح عصورًا غاية فى السوء والظلام وأحس بها وتخلق بأخلاقيات تتوافق مع ذلك ولكنه لم يكن سلبيًا . حقًا لقد كان وهناك انفصال بين طبقة الحاكم وطبقته أدى إلى انفصام فى المجتمع ، ربما كان سلبيًا مع الحاكم ولكنه لم يكن سلبيًا مع نفسه لقد كان إيجابيًا مع حياته وواضحًا فى عمله بل إنه فى كثير من الحالات لم يكن سلبيًا أيضًا مع حاكمه ، لقد كان يقاومه بالغناء وكان يقاومه بالنكتة ، وكان يقاوم الحياة فى شخص الحاكم بالصبر والسخرية من نفسه وانتقاد وضعه وبالحفاظ على أسرته فهو على استعداد لأن يقدم حياته فى سبيل كيانه الأسرى ؛ ذلك لاعتقادهم بأن الأسرة خط الدفاع ضد الحياة ومستقبلها المجهول وضد الحاكم والمتسلطين على مقدراته . .

الزراعة :

الزراعة هى العماد الأساسى للحياة المصرية سواء فى القرى أو فى المدن ، وحتى الآن فإن الدخل الرئيس للبلاد يعتمد على الزراعة ، وعماد الزراعة القوة البشرية الممثلة فى الفلاح ، وقد احتوت الأمثال على مجموعة كبيرة من الأمثال الخاصة بالريف وهذه الأمثال تتحدث عن الزراعة ، وقد أعطى فيها الفلاح كل خبرته فالأمثال الريفية تقدم فى مجموعها خبرات وتجارب الآخرين فى العمل الزراعى . ومما لا شك فيه أن كل مهنة

تحتاج إلى خبرة ودراسة وتعليم ومعرفة بمشاكلها وظروفها ، والفلاحة كأى عمل آخر لها رجالها الذين يعرفون ظروفها وخير الطرق للإنتاج الجيد . .

وقد تختلف الزراعة عن أية مهنة أخرى ؛ لأنها تخضع للعوامل الجوية التى لا دخل فيها لذكاء الفلاح إلا بقدر محدود ، ولقد قدم المثل النصيحة فى هذا الشأن فحذر من زراعة الذرة فى النيروز فقال : «اللى يزرع درة فى الناروز يبقى قولحه من غير كوز»[1] ؛ ذلك لأن العوامل الجوية تتدخل فى إنبات الذرة وعندئذ فلن يكون هناك محصول وفير ، وكذلك توجد بعض الأوقات التى تحتاج فيها الأرض للمطر فلو حدث أن أمطرت السماء عندما يقوم الفلاح بحرت أرضه فإن هذا يبشر بمحصول وفير يقول المثل فى ذلك : «إن نطرت ع السلاح يا سعد الفلاح»[2] .

---

(١) هناك بعض الناس يزرعون الذرة فى الشتاء وفى هذه الحالة فإنه لا يصلح ولا يكون ذا فائدة والناروز يعنى الشتاء أو « السقعة » فالوقت الصالح لزراعة الذرة فى الصيف وحتى القولحة إذا زرعت فى الصيف تبقى كوز . . وهذا التفسير من أحد الفلاحين .

(٢) إذا نطرت السماء فى حالة حرث الأرض لزراعة القمح فإن هذا يكون نذيرًا بمحصول وفير ، ونذيرًا بالخير ، وعمومًا إذا بدر الشتاء تكون السنة عظيمة وتبشر بمحصول وفير - أحد الفلاحين .

وكذا فإن الأمثال تقوم بدور المرشد الزراعى فهى تقدم النصيحة تلو النصيحة وتضع التجارب السابقة أمام الغير فالمثل يقول : «ازرع البصل من عروقه» والمثل يقول : «إن سبقك جارك بالحرث اسبقه بالمحاياة»[1] أى لا تزرع بعد جارك لأن الزرع البدرى دائمًا وافر الإنتاج ويؤكد ذلك المثل «كل مية بدرى لما يخيب بدرى» وإذا أردت أن تزرع فليكن ما يمكنك أن تخدمه ، فالمثل يناقش نظرية الكم والكيف فيقول له : «قل من الأرض واخدم» أو «قل من الزرع واخدم وقل من المال واكرم» . إن المطلوب من الفلاح هو الاجتهاد والعناية أو يقول له المثل «كل شيء بالبخت إلا القلقاس ميه وفحت» ، أو يقول : «البطيخة ما تكبرش إلا فى لبانتها» ويقول : «الأرض تكبر البطيخ» أو يقول له إن الزراعة ليست بالرغبة ولكنها بالعمل وهى ليست عملاً سهلاً ولكنها كفاح وتعب وكد ، يعبر عن ذلك المثل بقوله : «الأرض موش شهاوى دى ضرب ع الكلاوى»[2] ، أو يضع أمامه تجربة لا يمكن أن تصدر إلا

---

(١) العادة أن يسقى الذرة فى أول مرة بعد الزرع بعشرين يومًا فإذا سبقك جارك بالحرث وتجهيز الذرة فاسبقه بالمحاياة (الماء الأول) أى اسق بعد ١٦ يومًا أو حول ، هذا فعندئذ يتساوى زرعك مع جارك وربما سبقه - أحد الفلاحين .

(٢) ليست الزراعة بالشهوة إلى الزرع فحسب وإنما زرع الأرض لا يكون إلا بالجهد والتعب الذى يشبه بالضرب الكلى .

عن فلاح محنك فيقول : «الزرع زى الأجاويد يشيل بعضه»[1] أو «الزرع واحد لكن الأرض محطات» فالزرع يبذر مع بعضه ولكن تكون الأرض قوية فى أماكن وضعيفة فى أخرى فهى كالمحطات تختلف عن بعضها . .

كما أن هناك بعض المزروعات والتى لا تظل كثيرًا فى الأرض وتدر عائدًا سريعًا . فكثير من الفلاحين وعلى وجه الخصوص القريبين من المدن يفضلون الخضراوات ؛ لأنها سريعة النماء سريعة العائد ، والمعروف عند الفلاحين أن الخضراوات لا تظل كثيرًا فى الأرض فبعضها كالفجل والكرات لا يزيد مدة نمائه فى الأرض عن عشرين يومًا أو أكثر قليلاً ، وكل يوم تدر دخلاً للفلاح على مدار السنة فيقول فى ذلك المثل «ازرع كل يوم تاكل كل يوم»[2] ، أى ازرع خضراوات تكسب كثيرًا . وهناك كثير من الخبرات التى ذكرها المثل منها «إن كان زرعك استوى بادر بحصده» أو «قرقر جرنك ولا تقرقر مخزنك» ، «اللى ما ينام فى جرنه يستلف قوته» ، «اللى يحرس مقاته ياكل خيار»[3] ، «اللى

---

(١) الزرع إن ضعف بعضه عند النمو وجاد بعضه الآخر يكون مجموعه مرضيًا - أحمد تيمور .

(٢) ينصح هذا المثل بزراعة الخضراوات ؛ لأنها تدر عائدًا سريعًا فتزرع كثير من أصنافها المتعددة على مدار السنة ، ومن ثم فإنها تدر دخلاً فى فترات متقاربة .

(٣) المقاتة : المقثأة ، أى : مزرعة القثاء والعامة تطلقها على مزرعة القثاء =

تزرعه تقلعه» ، «اللى ما يروح الكوم ويتعفر لما يروح الحلة يتحسر»[1] ، «الأرض تضرب ويا أصحابها» . .

وقد يضع المثل النصيحة أمام الفلاح فى صيغة تحذير فيقول له : «أكبر المصايب زرع البرايب على البرايب وعزومة المرة والراجل غايب»[2] ، أو ينصحه بعمل ما يعود عليه بالمنفعة فيقول له : «اداين وازرع ولا تداين وتبلع» ، «إن كنت فلاح ولك مقدرة علِّى على فحلك من ورا»[3] ، «بين اللبة واللبة أربعين يوم»[4] . .

= والبطيخ ونحوهما ، والخيار : نوع من القثاء . والمعنى من حرس مقثأته ولم ينم عنها بقيت له وأكل منها - الأمثال العامية - أحمد تيمور .

(١) المراد بالكوم كوم السباخ والمراد بالحلة بيدر الذرة خاصة وهو يحتاج إلى سماد كثير فى زرعه ، والمعنى من لم يشتغل بنقل السماد من الكوم ويصبر على التعفير فسوف يدركه الندم والحسرة حينما يرى قلة الحب فى البدير - الأمثال العامية - أحمد تيمور .

(٢) البرايب : الغلة أو القمح أى أنك إذا زرعت قمحًا وفى السنة الثانية فى نفس المكان قمحًا فإن الأرض تضعف ويقل محصولها . وعامة فإن أى محصول يأتى وراء نفس المحصول يضعف الأرض .

(٣) إن كنت فلاحًا مقتدرًا فاجعل أول الجدول فى مزرعتك أعلى من آخره ليسهل انحدار الماء فيه . والفحل : الجدول فى المزرعة - تيمور .

(٤) اللبة بكسر الأول وتشديد الموحدة : اللب ويريدون به عجم البطيخ ، وأراد أن بين زرع العجمة فى المقثأة وبين ظهور العجمة الجديدة أربعين يومًا ينبت فيها الزرع ويطيب ويصير له عجم ينزع ويزرع - تيمور .

والفلاح يؤمن بالعمل ويسوؤه أن يرى آلته مركونة لا تعمل فينظر إلى منجله بأسى ويقول «بكره تيجى أيامك يا عوجه» ، ومع إيمانه بالعمل يؤمن بالحظ فيقول : «قيراط بخت ولا فدان شطارة» ، ثم هو يسخر من الأعمال التافهة فيقول : «يا فرحة العولا بلم الزرع لأصحابه» أو يقول : «ما يموتش ع السد إلا قليل الفلاحة» ، على أن الفلاح وهو يقوم بعمله فى الزراعة يؤمن بأهميته فهو يقوم به وهو مقتنع بأنه عمل مثمر حتى لو أصابه التلف فإنه يمكن أن يستره وفى هذا يقول : «الزرع إن ما غنى ستر» . .

إن الأمثال السابقة لا يمكن أن تصدر إلا عن خبرة أو تجربة مارسها مجموعات متعددة من الفلاحين . إننا نلاحظ فيها كثيرًا من المصطلحات التى لا يمكن لابن المدينة أن يعرفها مثل البرايب ، نطرت ع السلاح ، والبدرى ، المحاياه . . إلخ . لذلك فإن كثيرًا من هذه الأمثال لا يمكن أن نعرفها أو نفسرها إلا من أفواه الفلاحين الذين يمارسون التجربة اليومية ولقد حاول أحمد تيمور أن يفسرر كثيرًا منها وقد استطاع ذلك ولكن لم يكن دقيقًا فى تفسير بعضها فالمثل : «ازرع كل يوم تاكل كل يوم» فسره بقوله : «وال العمل يتوال لك الكسب» ، ولكنه لم يشر إلى أن هذا المثل لا يقوله إلا الذين يزرعون الخضروات ، على

أن هذه الأمثال كانت تعطى التجربة فى ثوب النصيحة تارة وأخرى فى أسلوب التحذير وبعضها كان يدفع إلى النشاط والعمل والاعتماد على النفس فى إدارة شئون الزراعة . .

الشهور القبطية :

إن الحديث عن الزراعة فى الأمثال لا يمكن أن يتم دون النظر إلى الفصول الزراعية وكذا شهور الزراعة ، ولقد اهتم المصرى منذ القديم بالتفكير فى وضع تقويم يتفق مع فيضان النيل ومواعيد الزراعة والرى والحصاد ، ويقال إن الذى أوجد التقويم القبطى الذى يستعمله الفلاح المصرى إلى اليوم هو الملك مينا مؤسس الأسرة الأولى[1] ولئن كانت هناك حقيقتان فى حياة الفلاح المصرى متلازمتان وهما الزرع والماء فإن هناك حقيقة ثالثة لا تقل عنهما أهمية بل إنها تمثل ضابط الإيقاع فى العمل الريفى ، هذه الحقيقة تتمثل فى المناح ، فلقد اهتم المصرى بدراسة مواعيد الزراعة ومواعيد الحصاد ؛ لذلك فقد حاول أن يقسم العام إلى شهور يستطيع بها أن يضبط محاصيل الحقل ، ولقد كانت الخبرة الريفية هى العامل الأساسى فى تنظيم الزرع والرى والحصد وأخذ الفلاح يضبط أيام السنة على

---

(١) قاموس الكلمات المأثورة (متفرقات فى الحكم والنصائح) جمع وترتيب ناشد جورجى ط القاهرة ١٩٣٩م.

مواعيد الفيضان والرى والزرع والحصد فأوجد التقويم الذى يتفق مع عمله اتفاقًا تامًا وهو التقويم القبطى . .

وحتى تستطيع الأجيال أن تتعلم فن الفلاحة الذى يقولون عنه فى أمثالهم «الفلاحة فلاحة» (بكسر الفاء الأولى وفتح الثانية) أخذت تسجل هذه الخبرة فى أمثال قابلة للتداول والانتقال من جيل إلى جيل هذه الأمثال التى صدرت عن خبرة على مدى الأجيال قد اعترف بأهميتها رجال العلم وأصبحت مجالاً للدراسة والبحث وإجراء التجارب ودخلت فى مجال البحوث الأكاديمية والمعاهد العلمية المتخصصة مثل كليات الزراعة هذه الأمثال التى تتحدث عن الظواهر الزراعية فى كل شهر من الشهور القبطية قد أخذها أحد الأساتذة الزراعيين ليجرى عليها تجاربه التى انتهت به إلى النتائج التالية :

١- هاتور أبو الدهب المنثور :

يقصد الزراع بذلك أن شهر هاتور هو الذى تتم فيه زراعة محصول القمح . .

٢ - إن فاتك زرع هاتور ، اصبر لما السنة تدور :

يؤكد الزراعيون أن شهر هاتور هو الشهر الأمثل لزراعة محصول القمح وأن التأخير عن هذا الميعاد لا يعود عليهم بمحصول وفير . ولقد أكدت النتائج التجريبية الحديثة صحة خبرة الزراع فى اختيار الميعاد الأمثل لزراعة القمح . .

٣ - بابه زرعه يغلب النهابة :

يوافق شهر بابه فى الشهور الإفرنجية أوائل أكتوبر إلى أوائل نوفمبر وتنتج المحاصيل الشتوية كالفول والعدس والحمص والقمح المنزرعة فى بابه تدر كميات كبيرة من المحصول وذلك لما تمتازبه بادرات النباتات التى تزرع فى هذا الوقت من قوة فى النمو مما يؤدى إلى زيادة كمية المحصول . .

٤ - توت هات الأنتوت :

ويقصد بذلك استعداد الزراع لخدمة أرض المحاصيل الشتوية ؛ إذ يوافق شهر توت شهر سبتمبر من الشهور الإفرنجية . .

٥ - مسرى تجرى فيه كل ترعة عسرة :

ويوافق شهر مسرى شهر أغسطس وهو ميعاد وصول مياه فيضان النيل وتتوافر كمية المياه فى جميع أنحاء مصر ويرجأ فى هذا الوقت العمل بنظام المناوبات فى الرى . .

٦ - أبيب طباخ العنب والتين :

ينضج فى أبيب العنب والتين ، كما يؤخذ العسل من خلايا النحل . .

٧ - بئونة الحجر :

ويعبر الزراع عن شدة الحرارة خلال شهر يونيه (بئونة) بهذا التعبير . .

٨ - بشنس يكنس الغيط كنس :

تنضج المحاصيل الشتوية فى أثناء شهر إبريل ومايو . ويقوم الزراع بحصاد النباتات عند تمام نضجها ولا يتركونها طويلاً بالأرض خوفًا من رقاد النباتات أو انتثار الثمار وضياع جزء كبير من المحصول ، حتى إذا حل شهر بشنس (أوائل يونيه) يكون الزراع قد قاموا بحصاد ودراس محاصيلهم الشتوية ولا يبقى بالحقل نباتات شتوية قائمة ولقد دفعت هذه الظاهرة الزراع بالتعبير عنها فى هذا المثل . .

٩ - برمودة دق بالعمودة :

يقوم الزراع بدراس محاصيلهم الشتوية بعد حصادها وتتبع طرق مختلفة فى الدراس ، ولقد كانت الطريقة الشائعة هى الدق بالعصى الغليظة ويوافق دراس المحاصيل شهر برمودة حتى نرى انشغال الزراع بالدق بالعصى فى هذا الشهر مما عبر عنه الزراع بهذا المثل .

١٠ - برمهات روح الغيط وهات :

تقل الثمار بالحقول أثناء الشتاء لنمو المحاصيل الشتوية فى أثناء هذه الفترة (ديسمبر ويناير وفبراير) نموًا خضريًا حتى إذا بدأت الحرارة فى الارتفاع فى بداية الربيع أزهرت النباتات وأثمرت وتزداد النباتات المثمرة فى أثناء شهر برمهات وتزداد

المحاصيل الناضجة وتتاح الفرصة لمن يذهب إلى الحقل تخير ثمار ناضجة من أنواع مختلفة من النباتات كالفول والقمح لعمل الفريك والبصل وغيرها ويعبر الزراع عن ذلك بهذا المثل .

١١ - أمشير يقول للزرع سير ، الزرع القصير يحصل الطويل :

يزرع المزارع حاصلاته الشتوية فى أكتوبر ونوفمبر ، ويقابل النباتات المتأخرة فى الزراعة البرد الذى يؤثر على نموها ويضعفه وحين يحصل شهر أمشير ويصير الجو دافئًا نسبيًا تسرع النباتات الضعيفة فى النمو وتزداد قوتها حتى تتساوى مع النباتات المنزرعة مبكرًا فى الطول والسمك ويطلق الزراع على تأثير دفء شهر أمشير على نمو النباتات هذا المثل . .

١٢ - طوبة أبو البرد والعنوبة يخلى العجوزة كركوبة :

ويمتاز شهر طوبة ببرده القارس ودرجة حرارته المنخفضة ويعبر الزراع بهذا المثل عن شدة البرد التى تحدث فى هذا الشهر . .

١٣ - كياك صباحك مساك :

ويوافق هذا الشهر أواخر شهر ديسمبر ويحدث فى هذه الفترة أقصر طول للنهار طيلة العام كما أن العمل الزراعى يكاد يكون معدومًا كما يوافق هذا الشهر ميعاد السدة الشتوية فيقتصر

العمل الزراعى على تغذية المواشى بالبرسيم وتطهير الترع والمصارف .

١٤ - كل مائة بدرى لما يهيف بدرى وكل ألف وخرى لما يصح وخرى :

أى أن احتمال نجاح المحاصيل المنزرعة مبكرًا وإنتاجها لكمية وافرة من المحصول كبيرًا كما أن احتمال وفرة المحصول من المحاصيل المنزرعة متأخرًا يكون قليلاً جدًا ، ولقد أثبتت التجارب أن هناك ميعاد زراعة أمثل لكل محصول وأن التأخير عن هذا الميعاد يصيب المحصول بأضرار جسيمة وذلك لاختلاف الأنواع المختلفة من النباتات فى احتياجاتها من عوامل البيئة كالضوء والحرارة فى الأطوار المختلفة من نموها[١] .

على أن هناك عديدًا من الأمثال الأخرى التى تحدثت عن الشهور وهى تدور حول حقائق زراعية محدودة وتأثيرها على الناس والحيوان من حيث المناخ . تقول الأمثال :

١ - « توت رى وإلا فوت» ، «لا خير فى نيل يجى فى توت» .

---

(١) الحديث عن هذه الشهور من كتاب « محاصيل الحقل ج، ١ ص ٤٧١ . تأليف د . مصطفى على مرسى ، د. عبد العظيم عبد الجواد ط الأنجلو سنة ١٩٦٥ ، طبعة ثانية .

٢ - بابه : «بابه خش واقفل الدرابة» ، «إن صح زرع بابه غلب القوم النهابة وإن هاف زرع بابه ما بقى فيه ولا لبابة» .

٣ - هاتور : «هاتور أبو الدهب المنتور» ، «هاتور يقول للبرد دور» .

٤ - كياك : «كياك صباحك مساك» .

٥ - طوبة : «طوبة ما بلت لنا عرقوبة» ، «طوبة أبو البرد والعقوبة» ، «طوبه يخلى الصبية كركوبة» ، «قالت المعزة لطوبة فوتى يا طوبة ما بليتى لى عرقوبة ، فقال لها بكره استلف عشرة من أخويه أمشير يخلو جلدك على الكوم نشير» .

٦- أمشير : «أمشير يخلى العجوز تقيد الحصير» ، «أمشير يقول للزرع سير بلا تعسير» ، «فى أمشير الزرع القصير يحصل الطويل» ، «أمشير أبو الطبل الكبير» ، «أمشير أبو الزوابع الكثير» ، «أمشير يقول لبرمهات عشرة منى خد وعشرى منى هات تطير العجوز بين السكات» .

٧ - برمهات : «برمهات يخلى العجوز تقيد المحلات» ، «برمهات روح الغيط وهات» .

٨ - برمودة : «برمودة دق بالعمودة» كناية عن حصاد القمح .

٩- بشنس : (بشنس أبو الشمس يكنس الغيط كنس» .

١٠- بؤونة : «بؤونة فلاق الحجر» (من شدة الحرارة) .

١١- أبيب : «أبيب أبو الحرورات واللهيب» ، «أبيب طباخ العنب والزبيب» .

١٢ - مسرى : «مسرى تجرى فيها كل ترعة عسرة» ، «إن ما جت مسرى تعجعج بنيلها» .

على أن هذه الشهور ليست إلا أسماء لها دلالاتها الزراعية منذ قدماء المصريين فتوت وكيهك وبشنس منسوبة إلى الآلهة وكيهاك وخنس وأما هاتور فهو شهر هات هور وهو اسم البقرة المعبودة وهى الأم التى تشرف على الرى والزراعة ومعنى هذا الشهر بيت حوريس ، وكان التقديس فى هذا الشهر عظيمًا عند قدماء المصريين وكانوا يحتفلون بعمل أحواض شعير أوزوريس وأما طوبة فربما كان معناه إنبات الحبة أى حبة الشعير ، ويوجد بمعبد إدفو صورة للإله طيبى وبيده سنبلة قمح وأما برمودة أو فارموتى فهو الشهر الذى يقام فيه احتفال المعبودة أرموتيت وهى على هيئة ثعبان ، ومعنى اسمها سيدة الأهراء (شون الغلال) ، وينسب بعض العلماء أبيب أو أبيقى إلى الاسم السامى أبيب ومعناه القمح الناضج ولكنه لا يوجد قمح ناضج بمصر فى شهر أكتوبر ، وهذا يعلل تسمية طوبة وظهور السنابل فيها أى فى أول مارس وإبريل . والحصاد فى برمودة ، أما ميلاد رع إله

الشمس فهو عندما تكون الشمس فى أشد حرارتها فشهر أبيب إذن يكون شهر القمح الناضح[1] ..

ومن ناحية أخرى فهناك نصائح توجه وآراء تقال وحقائق تذكر عن هذه الشهور منها الأمثال «لا تخلى ندى الورد يفوتك ولا طل بابه ينزل عليك»[2] ، «لا خير فى زاد يجى مشحوت ولا نيل يجى فى توت»[3] ، «الاسم لطوبة والفعل لأمشير»[4] ، «زى روايح أمشير كل ساعة فى حال» ..

والواضح أن استعمال الشهور القبطية وإحلالها محل الإفرنجية والعربية كان ضرورة لثباتها فهى لا تزيد ولا تنقص فهى تتبع الشمس ومن ثم يمكن للفلاحين أن يرتبوا على أساسها زراعاتهم الصيفية والشتوية دون تعرض للخطأ

---

(١) هذا النص مأخوذ من كتاب «قاموس الكلمات المأثورة» (متفرقات فى الحكم والنصائح» جمع وترتيب ناشد جورجى ص ٩١ وما بعدها ط القاهرة ١٩٣٩ .

(٢) لا تبت فى شهر بابه فى العراء فينزل عليك الطل ويضربك ؛ لأنه من أشهر الشتاء ولا يفتك ندى الورد أى اخرج فى الصباح زمن الورد وذلك فى توت ، أى فى أواخر الصيف واستنشق النسيم العليل - تيمور .

(٣) لا خير فى زاد يكون قليلاً ولا فى النيل إذا فاض فى شهر توت ؛ لأنه يكون متأخرًا فيفوت سقى الذرة ومعول الزراع عليها فى قوتهم .

(٤) قد يأتى فى شهر طوبة أيام فيها دفء شهر أمشير ، والمعنى أن المفروض أن طوبة تمثل البرد ، أما الأيام الدفيئة فهى من أفعال أمشير التى قد تسبق أمشير . .

أو المفاجآت . والملاحظ أن استخدام الشهور للأمثال ليس ثابتًا فهناك اختلافات - وإن تكن قليلة إلا إنها موجودة ، ورغم أننا أشرنا إلى بعض الاستخدامات المختلفة للأمثال إلا إننا نحب أن نشير إلى بعض آخر قد يتفق مع السابق فى الدلالة أو المعنى ولكنه يختلف فى الأسلوب وطريقة الصياغة ومن ذلك الأمثال الآتية :

توت : الكتكوت ياكل ويموت .

ويقال أنه فى هذا الشهر تصاب فيه الكتاكيت بالأمراض . .

بابة : «ادخل واقفل البوابة» .

ذلك لأن الحب خزن فى البيت فيخشى عليه من اللصوص . .

كياك : صباحك مساك ، تقوم من فرشك تحضر عشاك .

برمودة : «دقوا الشعير بالعمودة ولا يبقى فى الغيط ولا عودة» .

بشنس : «اكنس البيت كنس» .

يصاغ المثل هكذا «اكنسى الغيط كنس» وقد سبق الإشارة إلى ذلك ، أما معنى هذا المثل فإن المخزون من المحصولات قد نفد واستعد المنزل لاستقبال المحصول الجديد .

أبيب «من يأكل الملوخية فى أبيب يجيب لبطنه طبيب .

ويقال ذلك ؛ لأن عودها يكون صغيرًا وقد يختلط بعيدان أخرى ضارة[1] .

والواضح من كل ذلك أن هذه الأمثال قد أدت دورًا كبيرًا للفلاح باعتبارها المعلم والمرشد الذى يقدم التجربة فى أسلوب لطيف موجز ومعبر . .

الحيوانات الريفية :

الواضح أن عوامل الإنتاج الرئيسة فى حياة الفلاح أو فى البيئة الريفية عامة يتمثل فى عنصرين أساسيين هما : الأرض والزراعة ، وقد تحدثت الأمثال فى هذا الشأن وأعطت «وجهة نظر» خاصة بالزراعة والعنصر الآخر والذى يبلغ فى أهميته فى الحياة الريفية مبلغ الزراعة هو تربية الحيوان والعناية به . والواقع أن الفلاح لا يسمى فلاحًا إذا قام بزراعة الأرض فحسب ، كما أنه لا يسمى فلاحًا إذا اقتصر فى حياته على تربية الحيوان ، فمن هذين العنصرين يتكون عناصر الإنتاج الريفى . فالفلاح كما يعرفه الفلاحون من يزرع الأرض أيًا كان مقدارها ولكنه لا يكون فلاحًا إلا إذا امتلك الجاموسة والحمار اللذين يساعدانه فى شئون الزراعة .

ومثلما تحدثت الأمثال عن الأرض والزراعة فقد تحدثت

---

(١) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية أحمد أمين - ٢٥٣ .

أيضًا عن الحيوان الريفى ، والواضح أن الأمثال الخاصة بذلك تأخذ عدة اتجاهات تبين كلها العلاقات القائمة بين الحيوان والفلاح ، فقد يأخذ المثل أسلوب النصيحة فى طريقة استخدام الحيوان فيقول له : «خف على بهيمك يطول عمره» أى لا تقس عليه فى العمل حتى لا تخسره أو يقول له : «حط فيه يبان حواليه»[1] أو «حط فى مدوده تلاقيه فى مرقده»[2] أو يقول له «خير الشبه يبان ع الضبة» أو يقول : «بيعة المندرة غندرة»[3] ، أو يقول : «قيد بهيمك يبقى لك نصه ، أربطه يبقى لك كله» ، «إن فاتك لبن الكندوز عليك بلبن الكوز»[4] ، «قص حمارك

---

(١) الغرض هو أن يضع الفلاح همه فى العناية بتغذية الماشية ومعنى « حط فيه » أى ضع كثيرًا من الأكل أمام البهيم وخاصة الماشية التى تحلب كالجاموسة والبقرة ، وعند ذلك تستفيد باللبن والسمن الوفير ومعنى « يبان حواليه » أى يظهر كثرة لبنه .

(٢) المدود : المكان الذى لوضع علف الحيوان فيه ليأكله أى أكثر من وضع الأكل أمام البهيم فى مدوده تحصل على الخيرات منه فى مرقده ، والمراد بالمرقد المكان الذى توضع فيه أوعية اللبن المملوءة فيتحول الحليب إلى قشدة تتحول بدورها إلى سمن .

(٣) المراد بالمندرة الحجرة فى منزل الفلاح والمراد ببيعة المندرة : أى أن بيع الحيوانات فى المنزل أكثر فائدة وأحسن للفلاح من بيعها فى السوق ؛ ذلك لأن السوق يكون بيعه مكشوفًا ويكون فيه تفاضل بين المواشى أما فى المندرة فليس هناك فرصة للاختيار فهى تكون دائمًا من صالح الفلاح .

(٤) الجاموسة إذا مر على ولادتها ستة أشهر فأكثر تسمى كندوز ولبنها =

يكبر وقص جملك يصغر» ، وأحيانًا يقوم المثل بدور الناقد لتصرفات الفلاح فهو يسخر من تسرعه فيقول : «حضروا المداود قبل حضور البقر» أو يقول للذى يقسو على الحيوان : «ظلم البهايم حرام» أو يسخر منه فيقول : «حمار ما هو لك عظمة من حديد» .

وقد تأخذ النصيحة أسلوب التوضيح لبعض الأشياء والمثل فى ذلك يضع الخبرات السابقة أمام الفلاح لكى يتمثلها ، ومن ذلك «ما ينفعك إلا عجلك ابن بقرتك»[1] أو يقول : «اللى ما تشبع برسيم فى كياك ادعو عليها بالهلاك»[2] ، أو يقول «طور

= يسمى لبن الكندوز ، والمقصود بلبن الكندوز أن هذا اللبن يمتاز بدسامته كما أن حصيلته من السمن تكون أكثرر من اللبن فى الفترة السابقة ، والمراد أن هذا اللبن كله خير فإذا لم يتيسر لك ذلك اللبن فعليك أن تهتم بلبن كيزان الذرة فهى مفيدة .

(١) لن تنتفع حقيقة إلا من الحيوانات التى ربيتها بنفسك واهتممت بها أما ما تشتريه من السوق أو تستعيره من جارك فقد لا يفيدك كثيرًا وربما كلفك كثيرًا .

(٢) يقال على لسان الفلاحين أن البرسيم فى شهر كيهك أى فى أوائل ظهوره يكون صغيرًا ورطبًا ولا تتحمله إلا معدة الحيوان السليم ، ويقولون عن ذلك ، « البرسيم بيعود بطن البهيم » فإذا أكله الحيوان السليم نما جسمه وترعرع أما إذا كان البهيم مريضاً أو « غاشش) على حد قولهم فإن هذا البرسيم لا يمكن أن يظهر على جسده بل يظل هزيلاً مريضًا عندئذ يستطيع الفلاح أن يتبين مرض الحيوان فإذا لم يشبع الحيوان من هذا البرسيم فالمظنون أنه سيموت . ويقول تيمور فى تفسير ذلك « أكل البرسيم فى كيهك يفيد الماشية » وواضح أنه تفسير أعطى المعنى ولكنه لم يعط الصورة الحقيقية التى يعرفها الفلاح . هذا الشرح من أحد الفلاحين .

الحرت ما يتكممش»[1] أو يقول : «اللى ولد معزته جابت اتنين وعاشوا واللى ما ولدهاش جابت واحد ومات» أو يقول «اللى مايقدر ع البقرة وعليقها يخلى من طريقها»، «المستعجل مايسوقش جمال»، «اللى يبيع الجمل ما يضورش على إيراده» ، «اللى يعمل به الجدى يعلق به الحمار» ، «اشبع البهايم ودبر البرسيم»[2] ، «الميه فى كعب البهيم»[3] ، «مقايضة الجحش ع الجحش حرفة»[4] . .

محتويات المقدمة والحيوان له أهمية كبرى فهو يوفر على الفلاح الحاجة ويقوم بعمله ، ولقد رصدت مجموعة من الأمثال

---

(١) ذلك لأن الأرض يكون بها شيء مزروع يغريه على أكله فهى خالية فلا حاجة لوضع الكمامة على فمه .

(٢) يقال فى تفسير ذلك أنه ينبغى أن تضع البرسيم أمام الحيوان بحيث لا يتمكن من أن يدور عليه برجله فيفسده ، ولا تضع البرسيم مبعثرًا حتى لا يدوسه الحيوان ، وعليك أن تشبع الحيوان بهذه الطريقة الاقتصادية وهذا معنى «دبر البرسيم» وتقول فائقة حسين فى حدائق الأمثال «يضرب فى رعاية الأمور والاحتياط لها» وهو معنى لا يعطى الصورة الحقيقية التى فى ذهن الفلاح .

(٣) المقصود بهذا المثل أن الماء موجود قريب من السطح فبمجرد أن تدور الساقية ويتحرك كعب البهيم باللف سريعًا ما تظهر المياه فى المجرى ، فالماء يأتى سريعًا فى كعب البهيم والمعنى عند تيمور قريب من هذا .

(٤) لا يكثر الغش عند بيع الحيوان إلا فى الحمير ، فلا يستطيع الفلاح أن يميز الحمار الهادئ من الحمار الخبيث وقد لا يستطيع أن يميز الحمار القوى من الضعيف لذلك قيل أن بيع الحمير حرفة .

أهمية الحيوان كما أن بعضها عبر عن رأى الفلاح فى تفضيل بعضها فى الأعمال وغير ذلك فمن ذلك «حمارك الأعرج ولا جمل ابن عمك» ، «السروح بالبقرة ولا السحب بالبكرة» [(١)] ، ولكن رغم أهمية الحيوان عند الفلاح فإنه يفضل أن يمتلك منزلاً ؛ ذلك لأن الحيوان عرضة للموت فى كل لحظة أما العقار فإنه ثابت فيقول فى ذلك المثل : «طوبة فى بيت ولا جاموسة فى غيط» . .

على أن هناك بعض الأمثال التى تعنى بالشئون المنزلية فى بيت الفلاح وهى أمثال لا يقدر على تفسيرها إلا الفلاحون ومن ذلك المثل الذى يقول : «صيف يا لبن حليب يا قشطة» [(٢)] ، «عمر الرايب ما يرجعش حليب» [(٣)] ، والمثل : «الزبدة

---

(١) يفضل الفلاح أن يرعى الحيوان ويسرح به عن العمل على الشادوف ؛ لأنه عمل شاق .

(٢) المعروف من الفلاحين أن اللبن الحليب يمكن أن يتحول إلى قشدة فى الصيف ؛ ذلك لأن الحرارة لا تساعد على تجمد اللبن ، والمقصود من المثل أن اللبن الذى ينتج فى الصيف تكون قشطته حليب أى لا يمكن أن يكون قشدة . من تفسير الفلاحين .

(٣) يختلف اللبن الرايب عن الحليب كثيرًا ، فالرايب هو اللبن المتجمد الذى فصلت عن القشدة ويعمل منه الجبن « القريش » ، والمقصود أن الرايب المتجمد الذى فصلت منه قشدته يستحيل أن تعود إليه القشدة ثم يتحول سائلاً ، كاللبن الحليب مرة ثانية . وقد شرح تيمور المعنى فقط فقال « اللبن الرائب لا يعود حليبًا » .

ما تطلعش إلا بالخض» [1] ، «اتطلع فى وش البقرة قبل ما تحلبها» [2] .

والحق أن الأمثال الريفية تعكس بصدق ووضوح طبيعة الحياة الريفية بكل ما فيها من عناصر تتكون منها ، والواقع أن كثيرًا من هذه الأمثال لا يستطيع الحضرى أن يتبين حقيقتها دون الاستعانة بالفلاح ؛ ذلك لأنها تعبر عن مهنة الفلاح بدقة كما أنها مرتبطة بطبيعة المهنة وظروفها مما يخفى على الحضرى معرفته ، ولقد رأينا أن كثيرًا من الأمثال واضحة المعنى يستطيع القارئ أن يعرف معناها ولكنه فى الواقع لا يستطيع أن يعرف طبيعتها أو ظروفها ؛ لأنها تحتوى كما يقول المهنيون «على سر المهنة» .

فالناظر إلى هذه الأمثال من زاوية أنها جملة مفيدة تعبر عن تجربة ريفية لا يستطيع أن يعرف ما يريده المثل الريفى إنها تكون

---

(١) يقول فى ذلك تيمور «الزبد لا يخرج من اللبن لا بالخض» ويقول الفلاحون : إن الخض ينتج من تحريك اللبن الحليب فى قربة مصنوعة من الجلد وهزه لمدة من الوقت ويسمى هذا خض اللبن أى تحريكه حتى تتجمد الزبدة ويخرج منها سائل لبنى يسمى عند الفلاحين بالخض ويلقى هذا الخض فى «زلع» الجبنة ليعمل منه المش .

(٢) يقول الفلاحون ذلك لأن التطلع فى وجه البقرة يجعله يعرف هل البقرة مريضة أم لا فإذا كانت مريضة ووضح فى وجهها ذلك فإن لبنها يكون مضرًا بالصحة .

للمدنى كالألغاز التى تحتاج إلى حل ولكنها عند الفلاح تعبر عن حياته وتجربته وعمله اليومى فالمثل : «أشبع البهايم ودبر البرسيم» ، فما معنى «دبر البرسيم» ؟ هنا قد يتبادر إلى ذهن الرجل المدنى معنى يخالف ما يريده الفلاح ؛ ودليلنا على ذلك الشروح التى أوردها تيمور لبعض الأمثال الريفية والتى اعتمد على ظاهر المعنى دون معرفة حقيقة المثل . إن المدنى لا يعرف - حكم الصيغة وطبيعتها وأصولها وكذلك المثل . «الميه فى كعب البهيم» ربما اعتبر ذلك من الألغاز وكذلك المثل «اللى ما تشبع برسيم فى كياك ادعو عليها بالهلاك» إن الذى يحكم بذلك هو طبيعة العمل أو «حكم الصنعة» ومن هنا نستطيع أن نقول إن المثل الريفى يؤدى دورًا مهمًا فى الحياة الريفية فى تعليم الفلاحة وفى التحذير من مصاعبها ومشاكلها وفى التوجيه والإرشاد . .

ولقد رفعت الأمثال فى بعض الأحوال راية النصح وأدت دور التحذير ودور التوجيه وتوسلت فى بعض الأحيان بأسلوب السخرية وقامت بدور المعلم الذى يشرح الحقيقة ويضعها أمام الناس ، تلك الحقيقة التى استمدها الفلاح من تجاربه اليومية والممارسة العملية التى لم تعتمد على الأسلوب النظرى . فقد يلفت المثل بأسلوبه السهل إلى الحقيقة الموجودة ولكن لماذا

يذكرها المثل ما دامت موجودة ؟ إنه يذكرها لكى يلقى ضوءًا عليها ولكى ينبه إليها . فالمثل «طور الحرث ما يتكممش» إنها حقيقة لا تحتاج إلا إلى أن ينظر الإنسان إليها ويتدبر حقيقتها وأهميتها . .

إن المثل الريفى به كثير من «بعد النظر» حتى ليمكن أن يدرج فى قاموس الحكمة أو الفلسفة ، وهى فى الواقع ليست حكمة الكتب أو الأفكار المجردة ولكنها حكمة الممارسة اليومية أو الحكمة المستمدة من الحياة التى تشبه المادة الخام . إن الحياة الريفية بسيطة التركيب لم تصلها بعد تعقيدات المدنية أو المشاكل الحضرية ، والحياة الريفية كما رصدتها الأمثال لم تخرج عن تعامل الفلاحين مع بعضهم ، كما أنها تتكون من الأرض والزرع والوسائل التى يعتمد عليها الفلاح فى عمله سواء أكانت حيوانًا أم جمادًا . إن المادة المثلية لم تخرج عن ذلك ، لذلك فقد عبرت عن الطبيعة الريفية أصدق تعبير ولمست تكوين المفهوم الريفى عن الحياة كما أنها عبرت عن تجارب الأجيال السابقة ووضعتها أمام الأجيال اللاحقة فى صدق وإخلاص . .

العمل

تتحدد قيمة الإنسان - إلى حد كبير - بمقدار ما يقدمه لنفسه ولمجتمعه من أعمال ، وكذلك فإن الوضع الاجتماعى والمالى يعتمد إلى حد كبير - على ما يقوم به الشخص من أعمال ونشاطات واجتهاد . وهناك عوامل كثيرة تدفع الشخص إلى الاجتهاد وبذل المزيد من الجد والعمل ، وقد تكون هذه العوامل متناقضة إلى حد كبير فقد تدفع الثروة والمال إلى مزيد من الجهد لزيادتها وكذا قد يدفع الفقر إلى بذل المزيد من الجهد للهروب من مشاكله وهناك عوامل أخرى غير هذا وذاك ، منها الطموح الشخصى والتنافس والغيرة ووجود الفرص المناسبة والتحدى وغير ذلك . كل هذه عوامل تدفع إلى النشاط والعمل والإنتاج .

والشعب المصرى الذى عاش مطحونًا طوال عصور التاريخ مشغولاً فى الدرجة

الأولى بمشكلات اللقمة والحياة وتكلف فى سبيلها أقسى أنواع العذاب والقسوة لم يكن ينظر إلى العمل إلا على أساس أنه الورد الأول للحياة ؛ لذلك نراه يمجد العمل ويحث فى كل مناسبة على العمل فينبغى على الشخص أن يخلق الفرص للعمل وألا ينتظر حتى تأتى إليه .

والناظر إلى أمثال المصريين فى هذا المجال يجد أنها كما لو كانت أسواطًا تلهب ظهور الناس فى كل وقت حتى فى أوقات الفراغ ، فكانت تذكر الشخص بالعمل والحركة والنشاط وبأن عليه ألا ينام يقول المثل «اعمل عركة من غير أصل ولا تنامش بعد العصر» ، «اشتغل الجمعة والعيد ولا تتحوجش لأخوك السعيد» ، «اعمل بطالتك لعدوك» ، «اللى ماله أشغال يعاير الأرطال» ، «اللى ماله شغلة تشغله يفتح الباب ويقفله» فالتجربة كما يشير إليها المثل قد أكدت قيمة العمل والحركة حتى وإن وقفت بعض العقبات حائلاً دون ذلك ، وأكدت أيضًا أنه لكى يتغلب الإنسان على واقعه عليه أن يعمل ؛ لأن الزمن غادر ومع الإنسان أن يأمن غدراته بالعمل . ويقول المثل «إذا دار عليك الزمان ديره على أكتفك» ، «إن مال عليك الزمان ديره على أكتفك» ، «إن مال عليك الزمن ميل على ذراعيك» ، «إن نام لك الدهر ما تناملوش» . .

والأمثال فى حثها على العمل لا تنصح بالإسراع فى طلب الجزاء ، فعلى الإنسان أن يعمل دون نظر إلى النتيجة ؛ ذلك لأن التجربة قد أكدت أن الإنسان إذا انشغل بالنتيجة قبل البدء فى العمل ربما أدى ذلك إلى عدم الجودة ، ومن ناحية أخرى فإن المجتمع الدينى الذى تسيطر عليه التقاليد الدينية يرى أن المستقبل فى علم الغيب . ومن ثم كان الاعتماد على الله . وبالنسبة للعمل فإن الإنسان يعمل والله هو الذى يكافئ ويمنح ، يقول المثل : «إحنا ساعيين والرب يعين» ، «اعمل أنت وأنا المجازى فى السما» ، «اعمل اللى عليك والباقى على الله» ، «اسع يا عبد وأنا أسعى معك وإن نمت يا عبد مين ينفعك» ؟ .

وعندما يعبر المثل عن تجارب السابقين ويضعها أمام اللاحقين نجد أنه يستخدم أسلوب الحث على العمل وقد يستخدم أسلوب النصيحة وقد يميل إلى التحذير وقد يضع الحقيقة المجردة وهو فى كل ذلك يعايش الحياة اليومية ، يقول المثل وهو ينصح «اتعب ترتاح» ، «اتعب على الشىء تلاقيه» ، «اركب الأهوال تكتسب أموال» وفى خلال النصيحة يرسم طريقة العمل فيقول : «اتعب لسانك ولا تتعب أقدامك» ، «اشتغل بقلبك ولو كان سخرة» ، «اشمر واتحزم» ، «اشتغل لحد ما تكل ولا تستحمل الذل» . .

كما يدعو إلى المثابرة واحتمال الصعاب فيقول : «اعمل بالميدى لما يجى لك البندقى» ، «العب بالمقصوص لما يجيك الديوانى» ، «قشش على ميتك تسخن» ، «إذا كان رزقك ضيق حطه فى ماعون واسع» ، «إللى ثبت نبت» ، كما يدعو إلى الحث على المبادرة والطاعة فيقول : «اللى وراه الطلق ما ينامش» ، «أكل العيش يحب الخفية» ، «اضرب عصاتك واجرى وراها» ، «الجرى نص الشطارة» ، «اللى ما يقعد فى الكوم ويتعفر يجى فى الجرن ويتحسر»[(١)] . .

على أن المال وهو شيء مطلوب فى كل الأوقات إلا أنه إذا كان نتيجة الكد والعمل والجهد فإن الإنسان يكون أكثر حرصًا على الحفاظ عليه يقول المثل : «المال اللى ما تتعب فيه اليد ما يحزن عليه القلب» وأيضًا فإن المال لا يمكن أن يكون عوضًا عن العمل ؛ ذلك لأن المال «ظل زائل» أما العمل فهو القيمة الباقية يقول المثل : «يا طالب المال لوقف الحال العمل عمال والمال همال»[(٢)] .

---

(١) قالت العرب - من لم يحضر الكيل والميزان فليتحمل تبعه الخسران - حدائق الأمثال .

(٢) العمل عمال : العمل هو العمل وهو الذى يأتى بالمال . والمعنى أن المال لا يمكن أن يكون هو أساس العمل ، ومن ثم فلا يمكن الاعتماد عليه ، =

والواقع أن المثل وهو يحض على العمل والإنتاج لا يحمل الدعوة بصورة تجريدية ولكنه يرسم الخطوط الواضحة فى ذلك كما يضع التجربة المرتبطة بحقائق الحياة من إيمان بالله والمستقبل إلى إيمان بالواقع ومحاولة التفرقة بين قيمة المال وقيمة العمل ، وهى تفرقة تؤكد - كما أشار إليها المثل - أن المال رغم أنه أساسى فى الحياة إلا أن القيمة الحقيقية تتمثل فى الجهد الإنسانى ، والحياة ذاتها ليست إلا جهدًا متواصلاً قامت به البشرية منذ عصورها الأولى حتى الآن كما أن المال ليس إلا نتيجة لذلك ومن ثم فإنه لا يمكن أن يرقى فى قيمته إلى أهمية العمل والجهد . لذلك رأينا المثل يلح على الإنتاج والعمل ويحث على التعب والكفاح والمثابرة والمبادرة . .

وإذا كان المثل قد حث على العمل والإنتاج من ناحية فقد اتجه فى ناحية أخرى إلى محاولة تأكيد أفضلية العمل باعتباره القيمة الحقيقية للحياة ، فالناس يتفاضلون بالعمل يقول المثل : «اللى بيشتغل أحسن من الواقف» ، «عملك عمالك» ، «حجر داير ولا سبع نايم»[1] . وكذلك فإن العمل يمنح صاحبه

= ؛ ذلك لأن وجود المال يدفع إلى الإهمال والتكاسل ، أما العمل فهو المورد الحقيقى والدائم للمال .

(١) للمثل صورة أخرى هى « كلب داير ولا سبع نايم » .

إحساسًا بالأهمية وأحقية بالحياة يقول المثل : «الأيد التعبانة شبعانة» ، «الرغيف المقمر للصاحب اللى يدور»[1] ، «اعمل وافتخر وإلا اقعد واتعفر» ، والمجتمع الشعبى لا يرى فى العمل وسيلة للعيش فحسب ولكنه أيضًا يرى فيه وسيلة للكرامة والإحساس بالذات يقول المثل : «أعمل حاجتى بإيدى ولا أقول للكلب يا سيدى» ، «اللى تعب وبان عليه سيدين عليه واللى تعب وما بانش عليه أخيه عليه» ، «اللى من إيده الله يزيده» . .

على أنه إذا كان للعمل اعتبار دنيوى فإن له أيضًا قيمة أخروية لا تقل أهمية عن السابقة يقول المثل : «العمل عبادة» ، ويقول آخر : «الاجتهاد نص العبادة» . ومن هنا يمكن القول بأن النظرة الشعبية للعمل تعتمد على عنصرين : عنصر الفائدة الدنيوية والفائدة الأخروية . .

وفى الوجه الآخر فقد حذر من الكسل والبطالة فيقول : «اعمل بخمسة وحاسب البطال»[2]، «اللعب بالقطط

---

(١) يقول تيمور فى تفسير المثل « الرغيف المقمر للصاحب الذى يتفقد أصحابه فهو الذى يخص بالطيبات . وأرى أن المعنى القريب إلى الواقع هو أن هذا الرغيف يستحقه الإنسان الذى يبحث عنه ، أى الإنسان الذى يسعة للحصول على رزقه فهو بذلك يستحق أن يأكل أطيب الطعام لأنه تعب فيه ، ومعنى يدور عند العامة أى يبحث .

(٢) قد يستخدم بدل « خمسة » الكلمات « صولدى ، جديد ، مصري ، حبة ، عشرة ، نص ، ميدى ، قرش ، وقد يستخدم بدل كلمة « اعمل » كلمة « اشتغل » .

ولا البطالة» ، «الأيد البطالة نجسة» ، وقد يهاجم الكسل ومحترفيه فيقول : «خايب أمل وغشيم عمل» ، «عويل الشغل شاطر الكرا» ، «رأس الكسلان بيت الشيطان» ، «اللى يأكل بلاش ما يشبعش» ، «اخدم تتقدم اقعد تتندم» ، «اللى ما يقضى حاجته بإيده يا كتر تنكيده» ، وقد يستخدم أسلوب السخرية من الكسالى فيقول : «أكل ومرعى وقلة صنعة» ، «قاعدة على قاعدة فات النهار واتشمتت الأعدا» ، «اللى يتكلم عليه قفل الباب»(١) .

والملاحظ أنه لا توجد أمثال تحرض على الكسل وتشجع على البطالة وإذا كانت هناك أمثال تدفع إلى العمل وتحث على بذل الجهد فإن هناك أيضًا أمثالاً تهاجم الكسل وتستخدم كل الوسائل اللغوية لتعرية المهمل وتحطيمه . وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مدى ما يحسه الشعب نحو العمل والإنتاج ، ويبدو أن وجود فئات كثيرة من المجتمع على حافة الفقر والهلاك قد دفعهم إلى المزيد من الكفاح فى سبيل الحياة

---

(١) للمثل قصة : ذلك أن جماعة من الكسالى اجتمعوا على طعام فى غرفة بابها مفتوح فأرادوا أن يغلقوا الباب فقالوا إن أول من يتكلم منا عليه أن يغلقه ، فجلسوا صموتًا والطعام بين أيديهم فدخل سقاء ، فأراد أن يحادثهم فلم ينطقوا بحرف واحد فعمد إلى الطعام فأكله ثم مسح يده فى ذقن أحدهم وخرج ودخل بعد ذلك كلب فتشمم الحضور حتى اشتم الدسم فى ذقن الممسوح فيه فعضه فتأوه فقالوا جميعًا « عليك أن تقفل الباب » / حدائق الأمثال / فايقة حسين . .

ولقد كان إحساس هذه الطبقات بقيمة العمل يتساوى مع إحساسهم بالحياة نفسها . .

ويبدو أنه لم يكن أمامهم خيار فى ذلك فمطالب الحياة اليومية العاجلة والرغبة فى البقاء والإحساس الصارخ بوطأة المسئوليات الحياتية كل ذلك دفعهم إلى الإلحاح على العمل والنشاط وانعكس ذلك فى الأمثال بصورة واضحة . يقول لين «يعم الكسل جميع طبقات المصريين ما عدا الذين يضطرون إلى كسب حياتهم بالأشغال اليدوية الشاقة وهذا الكسل نتيجة المناخ وخصوبة الأرض . . . ويهمل أكثر الأعمال ربما ليصرف وقته فى التدخين»[1] ، وليس هذا صحيحًا إذا نظرنا إلى ذلك بوجه عام . فالفلاح الذى يعمل تحت حرارة الشمس طوال يومه ، والعامل اليدوى الذى يكسب حياته وقوته من جهده فيربط نفسه إلى إحدى العربات يجرها كالحيوان طوال اليوم ، والتاجر الذى يظل فى محله منذ الصباح حتى الساعات الأخيرة من الليل أو الذى يجرى وراء دابته متنقلاً بين القرى والبلدان ، هذه القطاعات التى تكون الغالبية العظمى من الشعب لا يصح أن توصم بالكسل والتبلد . .

حقيقة قد يكون العائد من هذا الجهد لا يتناسب مع ما يبذل

---

(١) المصريون المحدثون - إدوارد لين - ٢٦١ .

فى سبيله مما يطلق عليه فى عرف الاقتصاديين «البطالة المقنعة» ، ولكن الشعب الذى ظل طوال عصور التاريخ حتى الآن يعانى من الجهل والفقر والذى كانت تحكمه حتى الآن عناصر غريبة على تكوينه ، هذا الشعب لم يكن فى استطاعته أن يطور إنتاجه الفردى ويتغلب على هذا اللون المقنع من البطالة فقد شدته مشاكله الصغيرة عن النظر إلى تطوير حياته وعمله ولا يمكن أن ينهض ذلك دليلاً على كسله وضيق تفكيره ، إننا نستطيع أن نتهم هذا الشعب أو ذاك بالكسل عندما يتيسر له الفرصة ولا يستغلها ولكن الشعب المصرى لم يكن أمامه وسيلة ما لتغيير حياته . فلقد استغل الجهد الفردى بكفاءة نادرة واعتمد على الجهد الجسمانى فى حياته إلى حد كبير وكانت أمثاله صورة حقيقية لطبيعة حياته بكل ما فيها من فردية . ولكنه كان يفتقد العقلية التى ترشد حياته الفردية وتدرجها فى حياة الجماعة أو بمعنى آخر كان يفتقد أسلوب التنظيم والإدارة لذلك انعدمت لديه روح الجماعة وأسلوبها . .

أسلوب العمل :

والمصرى يعرف أن العمل أيّا كان يحتاج إلى جهد ويصاحبه مصاعب ، عليه أن يتغلب عليها بأن يتحملها ، وإذا كان عليه أن يعيش فيجب عليه أن يتذوق المر وأن يتحمل النار ويمضغ

الصعب ، تقول الأمثال «اللى يأكل حلوتها يتحمل مرتها» ، «مفيش حلاوة من غير نار» ، «اللى ما يدوق المر ما يعرف حلو» ، «اللى يأكل العسل يصبر لقرص النحل» ، «اللى ما تتعب فيه الأيادى ما تحزن عليه القلوب» ، «اللى ما يشقى ما يلقى» ، «اللى يعمل جمل ما يبعبعش من العمل» ، «من تعب ارتاح» ، «تعب ساعة ولا كل ساعة » ، «آخر التعب راحة» ، هذه الأمثال تشير إلى أن العمل قد ارتبط عند المصرى بالتعب والجهد والكفاح ؛ لذلك قال فى أحد أمثاله «الكار محنة» ، فالكار عند المصرى لون من ألوان التعب والإجهاد ، ورغم ذلك فهو ضرورة للحياة يقول المثل : «اللى ما يتعب ويبان عليه نيموه وابكوا عليه» فهذه المصاعب لا ينبغى الهروب أمامها ولكن يجب مواجهتها واستعذاب آلامها يقول المثل : «ما حد مستريح ولا ابن الجريح» . .

وإذا كان المصرى قد توصل إلى الحقيقة القائلة بأن العمل إرهاق وتعب وكفاح كما تشير إلى ذلك أمثاله فإنه فى أمثاله أيضًا قد رسم الأسلوب الذى يجب أن يتخذ فى هذا المجال . فالمجتمع الشعبى كان - فى غالب الأحيان - أعمالاً يدوية تعتمد على القوة البدنية والحركة ومن ثم فقد جاءت أمثاله لتعبر عن طبيعة العمل التى تعتمد على القوة وبذل الطاقة فيقول فى أمثاله

راسمًا الأسلوب الأمثل لمواجهة هذا العمل : «إن كتر عليك الشغل فرقه على الأيام» ، «حط قبل ما تتعب وشيل قبل ما تستريح»[1] . «خف تشيل» ، «ابطى ولا تخطى» ، «اتعب جسمك ولا تتعب قلبك» ، «فرق شمله يخف حمله» . .

ومن ناحية أخرى فقد رسم المثل طريقة التلمذة المهنية كما ذكر الوسائل التى كان يتخذها الشعب فى ذلك ، فالمجتمع الشعبى يعرف أن «كل شىء فى أوله صعب» ؛ لذلك فقد نادى بالتلمذة المهنية فى بعض الأمثال فيقول : «صنعة بلا أستاذ يدركها الفساد» ، «شغل القرارى وياك ولو ياكل غداك» ، «اللى له عين وراس يعمل زى ما تعمل الناس» ، «اجتهد وفتح عينيك» ، «اللى ما يخدم فى صغره ما يشوف خير فى كبره» . .

كما أشار إلى الوراثة المهنية وحث عليها فيقول : «من يترك صنعة أبوه وجده يلقى وعده» ، «ابن الوز عوام» ، وفى كل ذلك كان المثل يرسم الأسلوب الأخلاقى فى تنفيذ ذلك فيقول : «الاعتماد على النفس أساس النجاح» ، «الاستقامة رأس النجاح» ، «اتق الله فى صنعتك ولو كنت حرامى» ، كما رسم

---

(١) المعنى : ضع حملك قبل أن يبلغ التعب بك مبلغه لئلا يضربك الجهد فتعجز ثم احمله قبل أن تستريح لئلا تستطيبها فتذهب بنشاطك - الأمثال العامية - أحمد تيمور .

أسلوب التنفيذ والتعامل فيقول : «ابط فى الوعد واسرع فى التتميم» ، «قبل ما تعمل شىء اقر عواقبه» ، «اللى وراه المشى الجرى أحسن له» ، «اللى يحسب الحسابات فى الهنا يبات» ، «اللى يخاف من العرسة ما يربيش كتاكيت» ، «طولة البال تهد الجبال»[1] ، «طولة العمر تقطع الشدايد»[2] ، «إن فاتك عام اترجى غيره»[3] ، «اللى ابتدا بده يكمل» ، «صاحب بالين كداب» ، «إن طاب لك طاب لك وإن ما طاب لك حول طبلك» . .

والواقع أن هذه الأمثال قد حوت من التقاليد المهنية كثيرًا من عاداتها وطرائقها وظروفها التى اعتمدت على التجربة اليومية . وإذا كانت هذه الأمثال قد رسمت أسلوب العمل فإن هناك من الأمثال ما تشرح دقائق المهنة ووسائلها وعناصرها مما سنشير إليه فى الفصل القادم . .

---

(١) للمثل صورة أخرى هى : طولة البال ما تخسرش . .
(٢) للمثل صورة أخرى هى : طولة العمر تبلغ الأمل - تيمور . .
(٣) يضرب لعدم اليأس عند فوات المقصود - تيمور .

المهن والطوائف

المهن :

ويلاحظ أن كل أوجه النشاط فى المجتمع المصرى قد تحدثت عنها الأمثال أو استخدمتها بصورة أو بأخرى ، وعندما نقول المجتمع المصرى إنما نعنى المجتمع الشعبى التى كانت تظهر فيه بعض صور الانغلاق والتأخر . فلقد تحدثت الأمثال عن المهن المختلفة التى كانت شائعة قديمًا - بعضها قد اندثر والآخر يقاوم التطور والحضارة ولكنه فى سبيله إلى الاندثار أيضًا .

فلقد تحدثت الأمثال عن الإسكافى ، والسقا ، الجناينى ، الحلاق - وهو ما يسمى فى البيئات الشعبية بالمزين ، الصباغ ، الزبال ، الغوازى ، الخياط ، المسحراتى ، الفقى ، الصائغ ، البنا ، الحاوى ، المكارى ، النجار ، الحداد ، الجزار ، الطحان ، المحتسب ،

القبانى ، الكاتب ، المراكبى ، الصياد ، الصراف ، المغسل ، اللحاد ، الزمار ، الغسالة ، الحانوتى ، التربى .

وكذا فلقد تحدثت أيضًا عن مختلف الطوائف التى يتركب منها المجتمع : كالصعايدة ، الأقباط ، اليهود ، الغز ، الشوام ، الأغوات ، البخلاء ، المنوفيين[1] ، الغجر ، العرب ، أهل البادية . .

ويكره المجتمع مهنة الإسكافى ؛ لأنها تتعلق بما يعده أحقر الأشياء التى يستعملها الإنسان وهو الحذاء فيقول المثل «اسمك إيه قال اسمى عنبر وصنعتك إيه قال سرباتى قالوا خسرت الاسم بالصنعة» ، وطائفة السقائين تشتهر ببيع المياه للمنازل والمحلات ويقول المثل عنهم ساخرًا من ذلك الذى يحاول احتراف مهنتهم «يبيع الميه فى حارة السقايين» أو يقول : «اللى يشيل قربة مخروقة تخر على ظهره» وكذلك مع الجناينى فهو الذى يعرف الكثير عن الورد يقول المثل بأسلوبه الساخر أيضًا : «يبيع الورد على جناينيه» .

وتشتهر طائفة الحلاقين بكثرة الكلام مع الزبائن والبرود عند الحديث ، والمجتمع يعرف لهم ذلك فيقول فى المثل «أبرد من

---

(١) نسبة إلى محافظة المنوفية من محافظات الوجه البحرى وعاصمتها شبين الكوم وهى من محافظات وسط الدلتا وقريبة من القاهرة .

المزين اللى يحلق ولا يدفعش أجره» ، وقد يحدث منهم بعض الأعمال التى تكون موضع انتقاد يقول المثل : «زى المزين يضحك على الأقرع بطقطقة المقص» ، أو يعطى صورة ساخرة للمزين الذى يفاجأ بغير ما يتوقع فيقول : «جه المزين يفتح بأقرع استفتح» ، ومهنة الحلاقة من المهن التى لا تدر دخلاً كبيرًا ؛ لذلك يعيش الحلاق فقيرًا ويعرف المجتمع له ذلك فيقول فى أمثاله مبينًا تعاسته : «ملوخية وعيش لين يا خرابك يا مزين»(١) .

أما طائفة الصباغين فإنها تكون معروفة دائمًا ؛ لأن عملية الصباغة تظهر فى لون الأيدى فيقول المثل عنهم : «زى الصباغ تناه على ضهر إيده» ، وكذا فإن مهنة الزبالين من المهن القذرة الحقيرة ومن ثم يكونون محلاً للتندر بين الناس يقول المثل : «زبال وفى إيده وردة» أما الغوازى فإنهن لا يستطعن التخلص من الحركة فى حياتهن العادية ؛ ذلك لأن الطبيعة تغلب عليهن ، يقول المثل : «تموت الرقاصة وصباعها يرقص» . .

أما طائفة المكارية فقد انقرضت ولم يعد لهم وجود فى الحياة الحاضرة إلا فى الأماكن السياحية وخاصة حول الأهرام

---

(١) الملوخية من الأطعمة المشهورة فى مصر وهى تحتاج إلى كثير من الخبز وخاصة إذا كان الخبز لينًا ولما كان الحلاق فقيرًا فإن هذه الأكلة تسبب له كثيرًا من الخراب . وهذا المثل يدل على « حلاق الرجال » .

حيث إنها ما زالت من المهن التى تدر ربحًا معقولاً ، أما هذه الطائفة فقد كانت تقوم بدور كبير فى الحياة المصرية قبل ظهور السيارات والسكك الحديدية وغيرها من وسائل المواصلات ، ولم يكن هناك وسيلة للمواصلات غير الحمار ، ومن ثم شاعت الأمثال التى تعبر عن هذا الوضع تقول الأمثال «إذا عز المركوب فارض بحكم المكارى» ، «إذا تزاحمت الحمارة بفايدة الزباين»[1] ، «اتقاتلوا المكارية من حظ الركاب» ، «آهى ليلة يا مكارى» ، «اتقاتلت البغال طلعت من كيس المكارى» . .

والخياطة من المهن الشائعة ولئن دخلها الأسلوب الحضارى كاستعمال الماكينات وغيرها إلا إنها ظلت حتى الآن تقوم بدور فى النشاط المهنى تقول الأمثال : «إذا اتبطر الخياط يشترى بدال العيش رمان» ، والخياط لابد من أن يجيد القياس ؛ لأنه الخطوة الأولى فى تعلم الخياطة يقول المثل «اللى ما يعرفش يقيس ما يعرفش يفصل» وغالبًا ما تكون أجرة الخياط تحت طلبه ، فالزبون هو الذى يكون مضطرًا للثوب ، ومن ثم عليه أن يدفع قبل أن يأخذ ثوبه يقول المثل : «أجرة الخياط تحت إيده» أما المسحراتى فمن المهن التى فى سبيلها إلى الانقراض ؛ ذلك

---

(١) للمثل صور أخرى : « إذا تعاركت الحمارة من سعد الركاب » ، « إذا تعاندت الحمارة يكون بسعد الركاب » ، « خناق الحمارة يسعد الركاب » .

لأنها من المهن الموسمية كما أن الأساليب الحضارية قد أعفت الناس من الحاجة إلى المسحراتى الذى يقول عنه المثل «عملوك مسحراتى قال فرغ رمضان» . .

والفقى من المهن الشائعة فى المجتمع الشعبى ، فهو الذى يقرأ القرآن فى المحلات والبيوت كل يوم نظير أجر معلوم ، وهذا الأجر لا يتعدى القروش القليلة ؛ لذلك يسيطر عليهم الفقر والجشع والبخل وينظر إليهم بازدراء لطباعهم وخلقهم ، ولقد تحدثت الأمثال وأجادت تصويرهم فيقول المثل مشيًا إلى جشعهم وبخلهم : «الفقى يقيس الميه فى الزير» ، «عيش الفقى فى الأنجم ما يطولوش الفار ولو عمى» ، «الفقى ياكل ويتلدد والميت ينشف ويقدد» ، «الفقى لما يسعد يجيله عشوتين فى ليلة واحدة» ، «يا سيدنا الشيخ ضربه تكسر لوحك قبل ما تعدل على الناس عدل على روحك» ، «اللى تعمله يا فقى فى البناية تلتقى» ، «اتعلم آيتين ادعى إنك مقرئ» . .

أما البناء فله دور ضرورى فى المجتمع ، ولقد تحدثت الأمثال عن الجانب «التكنيكى» فى عملية البناء ، فقد اعتمدت على ذكر الحقائق التى ينبغى أن تؤخذ عند البناء ، فعملية البناء ليست سهلة ولكنها صناعة يقول المثل : «أصل البناية صناعة مش بكتر الجبس » ويرصد المثل حقيقة أخرى من حقائق البناء

فيقول : «ضيق تسقف»[1] ، وكذا يرصد هذه الحقيقة ففى يوم الهدم لا يمكن البناء «يوم الهدد ما فيهش بناية» . وكذلك «الأرض بفلوس والسما ببلاش»[2] .

ومن المهن الشعبية مهنة الحاوى الذى ينتقل من مكان إلى آخر عارضًا ألعابه المتنوعة ، وقد أخذت الأمثال ترصد هذا اللون من المهن الشعبية فقالت : «ولسه يا ما فى الجراب يا حاوى»[3] ، وقد يتعرض الحاوى لمصاعب المهنة ؛ ذلك لأنه قد يستخدم فى ألعابه الثعابين وغيرها وقد يكلفه ذلك حياته أو حياة أبنائه ويعبر المثل عن ذلك فيقول : «الحاوى ما ينساش موت ابنه والحية ما تنساش قطع ديلها»[4] ، «الحاوى ما يمتش إلا بالتعبان» . .

---

(١) كلما تقاربت الجدران من بعضها تستطيع أن تضع السقف بأمان دون أن يتعرض ذلك للخلل أو السقوط .

(٢) من المناسب اقتصاديًا أن ينبنى دورًا ثانيًا ورابعًا دون أن يكلفك ذلك ثمنًا للأرض لأن السماء لا ثمن لها .

(٣) لقد عرض الحاوى ألعابًا مختلفة وما زال عنده فى جرابه الكثير الذى لم يعرضه مما يثير الدهشة .

(٤) مما وضع على هذا المثل القصة التالية : قتلت حية رجلًا ثم تعاهدت مع أخيه على أن تعطيه كل يومين دينارًا ، ولا يقتلها فوفت له ووفى لها ، ثم تذكر أخاه يومًا فضربها بفأسه فأخطأها ووقعت الفأس فوق حجرها فأثرت فيه ، وأراد بعد ذلك العود إلى ما كان عليه فأجابته بهذا المثل - تيمور . .

والحديث عن النجار يظهر طبيعة عمله . فأدوات النجار كثيرة فإذا لم يستطع أن ينفذ عمله بإحدى الأدوات استخدم غيرها يقول المثل : «اللى ما يقدر عليه القدوم يقدر عليه المنشار» ، وكذلك فللمهنة مشكلاتها ومنها العقد التى تظهر فى الخشب يقول المثل : «العقدة تغلب النجار» أو يقول : «عند العقدة يوحل النجار» وقد يسهو النجار عن مصلحته فيقول المثل : «باب النجار مخلع» ، وكذا يهتم المثل بذكر طرق تعليم المهنة فيقول ناصحًا «ستين مقاس ولا قطعية منشار» ، «اللى تقطه أحسن من اللى تمطه» . .

والحديث عن مهنة الحدادة يشبه الحديث عن مهنة النجارة . فالأمثال عندما تتحدث عن الحداد تتحدث عن طبيعة الصنعة وتستخدم أدواتها . فالمهنة تتعلق بالسندال والنار والفحم والمطرقة وغيرها ، كما أن الصنعة مثل غيرها من الصناعات تحتاج إلى خبرة و «حرفنة» فدقة المعلم تكون متقنة ؛ لأنها نتيجة خبرة وتعلم يقول المثل : «دقة المعلم بألف ولو تروح بلاش» ، كما أن صناعة الحديد وطرقه تحتاج إلى هدوء عند العمل فقد لا يصلح الطرق المستمر ، ومن هنا يقول المثل : «دقة ع السندال ودقة ع الوتد» والحداد يعطى أهمية كبرى للجهد الإنسانى فى الصنعة ؛ ذلك لأن النار لن تعمل على تشكيل

الحديدة ولكن الجهد البشرى هو الذى يقوم بالعمل لهذا يقول المثل : «كف لحم ولا كف فحم»[1] ..

ولقد عكست الأمثال بعض أخلاق الجزارين فتقول : «الجزار ما يخفش من كتر الغنم» ، «زى الجزار كريهه اللى يشتر» ، «مال لحمتك مشغته قال جزارى معرفة» . والجزار عنيف فى تعامله مع الزبائن فيقول المثل : «صبرى على نفسى ولا صبر الجزار على» ..

وكذلك عكست الأمثال بعض الصور عن التسول ، وهو طبع درج عليه المتسول ، وليس الدافع إليه الحاجة . إنها تبدأ بالحاجة والعوز ثم تتحول إلى حرفة تدر على صاحبها الكثير من المال ، فيقول المثل «الشحاته طبع» ، «الشحاته كيميا» ، ولقد تعود المتسول على الأخذ ، ومن ثم لا يستطيع أن يعطى ، يقول المثل : «الإيد اللى تاخد ما تديش» ولقد ركز المثل حقيقة المتسول فى قوله : «الشحات له نص الدنيا» فهو يجمع من هنا ومن هناك ولا حرج عليه ..

---

(١) معنى « كف لحم » أى الجهد والقوة الناتجة من يد الإنسان الذى يمسك المطرقة أحسن للصنعة من « كف الفحم » . والمقصود بكف الفحم ما يساوى مقدار كف من الفحم يوضع فى الكير على الحديدة ليزيد النار وليساعد على ليونتها فكف اللحم أسرع فى قضاء العمل من كف الفحم - أحد أبناء الصنعة .

وكذا فإن المجتمع يعرف أن الشحاته أصبحت من المهن المعروفة ومن ثم تستعير أخلاقياتها فكما أن التاجر يكره زميله للتنافس على الربح وكما أن الصانع يكره زميله للتنافس على الصنعة ، فكذلك فإن الشحات يكره الشحات ؛ لأنه ينافسه فى التسول يقول المثل : «شحات يكره شحات وصاحب البيت يكره الاتنين» ، وكذلك فإن من أخلاقيات الشحاته اللجاجة والاستجداء وإراقة ماء الوجه ، وكثيرًا ما يضايق الناس ، يقول المثل : «من عرف الشحات بابه يا طول عذابه» ومن أخلاقياتها أيضًا الصبر يقول المثل : «الشحات قلبه وجعه وصاحب البيت على مهله» . .

وقد تحدثت الأمثال عن مهنة الطحن فتناولت الجانب الحرفى ، وهى فى ذلك مثل مهنة الحدادة والنجارة وغيرها من الحرف ، وقد استخدمت المواد المستعملة كالحجر والقاعدة والعمود الذى يدور بالحجر فيقول المثل «إن كان فى العمود عيب يكون الأساس فى القاعدة» [١] ، «الرقاص بيشخشخ

---

(١) المعروف فى مهنة الطحن أن الحب يطحن بين حجرين : أحدهم ثابت لا يتحرك وهو الأسفل ومثبت فى صندوق الطاحونة والثانى وهو الأعلى يدور على عمود له طارة فى أسفله متصلة بالماكينة التى تديرها بواسطة السير فيدور الحجر الأعلى ويظل الأسفل ثابتًا ، فإذا كان العيب فى العمود كأن يكون به كما يقول الميكانيكيون « رفه » يكون الأصل فيها أو عيبها من الحجر الثابت فربما كان غير موزون / هذا الشرح مأخوذ من أصحاب المهنة .

والحجر واقف» ، «إن خسع الحجر يكون العيب من القاعدة» ، والمعروف عن الطحان أنه يتغبر من الدقيق ومثله فى ذلك مثل الذى يعمل «بالمجيرة» فكلاهما مغبر يقول المثل : «طحان ما يغبر على كلاس» وأيضًا فإن الطحان قد يسرق دون أن يحس الناس كأن يثقب فى «الداير» ثقبًا صغيرًا فيسقط الدقيق فى داخل الطاحونة فيلقاه ، وهذه عملية لا يفطن إليها إلا أبناء المهنة ولكن المثل الذى يمثل واقع المجتمع وتجاربه يشير إلى ذلك فيقول : «الطحان يسرق حفان بحفان وربنا ياخد حصان بحصان » (١) .

والمعروف أن عملية نقش الحجر يقوم بها الطحان يوميًا حتى يكون الحجر صالحًا لليوم التالى ، وفى اليوم التالى عندما يدور الحجر لأول مرة يعلق به بعض الزلط والرمل الناتج عن النقش فيختلط بأول حب يطحنه الحجر فيمتنع الزبائن عن إلقاء الحب حتى لا تدخل النقاشة فى الدقيق ولكن أمام الحاجة يضطر أحد الزبائن إلى المجازفة يعبر عن هذه الصورة المثل فيقول : «المحتاج يقلب ع النقاشة» (٢) . .

---

(١) هذه الطريقة يتحدث عنها أصحاب المهنة ، ومعنى المثل أن الله لايمكن أن يترك الطحان دون جزاء قد يكلفه أكثر مما يسرق .

(٢) حضرت كثيرًا من هذه المشاكل اليومية التى تعترض الطحان وحيرته فى من يلقى بحبه إلى الحجر فى أول العمل ، ويظل الطحان يحاور النساء ويقنع هذه وتلك ويقسم أيمانًا كثيرة بأنه لم ينقشه الليلة الماضية حتى تقتنع إحداهن وتوافق .

أما الخباز فقد أشارت إليه الأمثال فى تواطؤه مع المحتسب فتقول «الخباز شريك المحتسب» ، وقد يقول المثل : «خباز ومحتسب» ، كما أشارت إلى حرفته باعتبارها تحتاج إلى خبرة يقول المثل : «إدى العيش لخبازينه ولو ياكلوا نصه»[1] . .

أما حرفة المراكبية فهى ترتبط بالمواد التى تستخدم فيها وهذه المهنة تتعلق بالرحى والصارى والمركب والمربس والطياب والعوم ولقد استخدمت الأمثال هذه العناصر لتعبر عن طبيعة العمل مع البحر والماء فتقول : «احسب حساب المريس وإن جاك طياب من الله»[2] ، وتقول : «خف أحمالها تطول أعمارها» ، «خفها تعوم» ، «المريس يرمى الريس محل ما يكره» والمفروض فى العمل البحرى أن يكون هناك ربان للسفينة يسمى «ريس» وعليه يعتمد العمل تقول الأمثال : «الريس فى حساب والنوتى فى حساب» ، «اللى يعمل ريس يجيب الريح من قرونه» ، «المركب اللى فيها ريسين تغرق» . .

---

(١) للمثل عدة صور هى : «إدى خبزك للخباز ولو أكل نصه» ، «إدى خبزك للخبازين ولو ياكلوا نصه» ، «إدى العيش لخبازينه» . والمعنى أخبز خبزك عند من يجيدون صناعته ولو سرقوا نصفه وأكلوه ؛ لأن الباقى منه ينتفع به لجودة خبزه ، أما إذا خبزته عند أمين جاهل أفسده وضاع عليك كله ، فمن الأصلح أن تحصل على جزء منه جيد الخبيز دون أن تضار فيه كله / تيمور . والصور المختلفة للمثل من المخطوط ومن الحدائق .

(٢) المريس : الرياح القبلية ،والطياب : الرياح البحرية والمعنى أنه ينبغى عمل حساب الريح القبلية أما الريح البحرية فإنها مما يساعد فى الإبحار والعمل .

وكذا فلقد كان العمل البحرى يعتمد على الريح ومن ثم يكون الجميع تحت رحمته وقد لا يستطيعون مقاومة العواصف والتيارات ، وقد صورت الأمثال هذا الموقف فى أسلوب فكاهى فقالت : «اتخانق المريس مع الطياب جه الكسر على النوتية» ، «اختلف البحر والريح طلع الصلح على البحرية» ، «زى المراكبية ما يفتكروش ربنا إلا وقت الغرق» والعمل على ظهر المركب يعتمد على الإنتاج ؛ ذلك لأن كل شيء على ظهرها محسوب فقد يمثلْ النوتى الجاهل ثقلاً لا مبرر له فيقول المثل : «زى النوتى الغشيم تقله ع الخشب» وأيضًا فالذى يأكل ، عليه أن يقدم فى مقابله العمل «اللى ياكل الفتة يطلع الصارى» . .

وكذا فإن مهن الصيد قد تأخذ دورًا فى الأمثال ، وقد استخدمت فيها العناصر التى تشارك فيها كالشبكة والعصفور أو السمك وكما هو واضح فإن المثل لا يقف عند حد معين فى استخداماته ؛ ذلك لارتباطه بأوجه النشاط الشعبى واتصاله الوثيق بالأعمال اليومية ، يقول المثل معبرًا عن صبر الصياد «العصفور بيتفلى والصياد بيتقلى» (١) ، ويقول : «يا صياد اصطدتشى اللى اصطادته أهو مشى» ، «لو كانت أم قويق فيها خير ما كانت

---

(١) للمثل صورة أخرى : « الصياد بيتقلى والعصفور بيتسلى » . .

سابتها الصيادين» ، «عصفور فى اليد ولا عشرة فى الشجر» ، «قالوا للصياد اصطدت إيه قال اللى فى الشبكة راح» ، «السمك لا يشبع اللى ياكله ولا يغنى اللى بيصطاده» ، «اللى هون على الصياد يهون على القلا» . .

ومن ناحية أخرى فهناك بعض المهن المقبولة ، وبعضها الآخر مكروهًا وبعضها أكثر أهمية ، والآخر أقل أهمية وهناك من المهن التى لا تروج إلا بمصائب الناس ، وبعضها يعكس مفارقات الحياة . مثل هذه المهن تعد حقلاً خصبًا للمثل الذى يهتم بذلك ، ومن هذه المهن «بائع المدمس» والعطار فيقول المثل «صباح الفوال ولا صباح العطار» ، ومنها «الخضرجية» الذين يقول عنهم المثل : «ضربوا بتاع التوم شخ بتاع الكسبرة» ، والصائغ يقول عنه المثل «ابن السايغ اشتهى على أبوه خاتم» والفرارجى يقول عنه المثل : «زى الفرارجى له فروج لا يموت» ، «زى سلام الموارد على الفسخانى» ، «الميكانيكية باشوات مدارية» ، «إيش تعمل الماشطة فى الوش العكر» ، (غسله واعمل له عمة» ، «قال أنا مغسل وضامن جنة» ، «زى المحتسب الغشيم ناقص ارمى زايد ارمى» ، «زى ضرابين الطوب يعد بالألف وينام على الإبراشى» ، «زى صيارف الريف يعدوا بالألف وينامو على

الانخاخ» ، «اتنين يحبوا الموت : حانوتى وتربى» ، «اقعد بين خبازتين ولا تقعد بين غسالتين»[1] . .

الطوائف :

تحدثت الأمثال عن مختلف الطوائف التى قامت بدور ما فى تركيب المجتمع ، والأمثال حينما تتحدث عن هذه الطوائف إنما توضح : «وجهة نظر» تكونت على مر الأجيال وترسبت فى صميم الوجدان الشعبى حتى أصبحت تكون اتجاهًا عامًا بين الناس . .

فلقد ابتلى المصريون فى فترة ما من تاريخهم «بطبقة من الترك أو المتتركين ترفعوا عن الفلاح المصرى وحسبوا أنفسهم جنسًا أكرم وأعظم من جنسه العريق فى المدينة فشاعت هذه النزعة بين المترفين وأصحاب المناصب ، وكان لها أثر ليس بالهين ولا بالمحمود فى تربية الأمة وعقيدتها القومية»[1] ، هذه العلاقات التى قامت بين الترك وباقى فئات الشعب قد انعكست بدقة فى الأمثال فيقول المثل مشيرًا إلى جور الترك وظلمهم : «آخر خدمة الغز علقة» ، وكذلك فقد انتقدت الأمثال أعمالهم

---

(١) لعله يضرب لثرثرة الغسالات ، وقد يريد أن المرء يستفيد من الخبازات ولا ينال من الغسالات غير البلل .

(٢) سعد زغلول - عباس العقاد ص ١٦ .

فقالت : «غز الكرا ما يحاربوش» ، «زى التركى المرفوت يصلى على ما يستخدم» ، «زى شحات الترك جعان ويقول موش لازم» ، «زى غز الجيزة تملى السجادة ع البحر» ، «زى غز الططر لا يوحشه من غاب ولا يؤنسه من حضر» ، «زى كديش الططر القمشة وراه وحامل الهم على قفاه» ، «زى بعجر أغا ما فيه إلا شنبات» . .

ومن الطوائف التى أدت دورًا واضحًا فى المجتمع المصرى طائفة اليهود وهم يشتهرون بالمال والتجارة والربا كما أنهم يشتهرون ببعض العادات التى تميزهم عن غيرهم ، ولقد رصدت الأمثال ذلك فقالت : «أفلس من اليهودى نهار السبت»[١] ، «زى فقرا اليهود دنيا ولا أخرى»[٢] «احتاجوا ليهودى قال اليوم عيدى»[٣] ، «لما يفلس اليهودى يدور فى دفاتره القديمة»[٤] . .

---

(١) المعروف أن اليهود لا يتعاملون بالنقود يوم السبت - تيمور . .

(٢) المعروف عند العوام : أن اليهود من أهل النار وأنهم يشتهرون بجمع المال فهم من أهل الدنيا وليسوا من أهل الآخرة ؛ لذلك فاليهودى الفقير قد خسر الدنيا والآخرة . .

(٣) للمثل معنيان : أحدهما أنه عندما احتاجوا إليه فقد اعتبر هذا اليوم عيده ؛ لأنه يستطيع بذلك أن يملى إرادته فهو مثل يوم عيده . والثانى أنه اعتذر لأنه فى يوم عيده وهو لا يتعامل فى عيده . .

(٤) خصوا اليهود بالذكر ؛ لأن أكثر المقرضين منهم ومن أمثال فصحاء المولدين (إذا افتقر اليهودى نظر فى حسابه العتيق) - تيمور . .

ومن العادات التى رصدها المثل تظهر منها أخلاقهم ومعاملاتهم ، زى قراية اليهود تلتينها كدب» ، «زى ساعى اليهود ما يودى خبر ولا يجيب خبر» ، «زى اليهود وش نضيف وجبه زى الكنيف» ، «اتسمر الحد فى . . . اليهودى» . .

وكذلك نجد طائفة الكفار وكلمة الكافر تطلق عند المجتمع الشعبى على كل ما هو غير مسلم وإن كانت تخالف الحقيقة ، وقد تحدثت الأمثال عن هذه الطائفة وهى تظهر نفورًا اجتماعيًا منها فتقول : «إذا دخلوا الكفار البلاد اخرج منها واسكن حد الواد» وهم يرون أن الكافر آخرته فى النار فكيف يكون حال الحداد الكافر ؟ يقول المثل «زى حداد الكفار حياته وموته فى النار» وكذلك يتهمون القبطى بالمكر وهى عادة مقترنة بالقبطى يقول المثل مشيرًا إلى الدهاء الذى يلازمه : «قبطى بلا مكر شجرة بلا طرح»[1] . .

أما طائفة العسكر فقد كانت العلاقة بينهم وبين الشعب (العامة) سيئة لعدة اعتبارات ليس هنا مجال لذكرها ولكننا نكتفى بإحدى إشارات الجبرتى الذى يقول عند حديثه عن حوادث سنة

---

(١) يتهم الناس الأقباط بالمكر والدهاء ولا يرون لهم فضية فى غير ذلك فإذا خلا من المكر فهو فى نظرهم كشجرة غير مثمرة ، وبعضهم يروى (صرمة بلا نعل) والصرمة : النعل البلية ويريدون بالنعل ما يكون تحت القدم / تيمور . .

سبع عشرة ومائتين وألف ، تسلط العسكر على خطف الناس وسلبهم وقتلهم وخصوصًا فى أواخر هذه السنة حتى امتنعت الناس من المرور فى جهات سكنهم إلا أن يكونوا فى عزوة ومنعة وقوة ولا تكاد ترى شخصًا يمر فى الأسواق السلطانية من بعد المغرب وقبيل العشاء ، وإذا اضطر الإنسان إلى المرور فى تلك الأوقات فلا يمر إلا كالمجازف على نفسه وكأنما على رأسه الطير فيقال أن فعلهم هذه الفعائل من عوائدهم الخبيثة إذا تأخرت نفقاتهم فعلوا ذلك مع العامة على حد قول القائل : «خلص تارك من جارك» ، وتأتى الأمثال لتعبر عن سوء العلاقات بينهما فتقول : «إذا كان دراعك عسكرى اقطعه»[١] ، «حد يقدر يقول للجندى غطى بتاعك»[٢] ، «اعمل الطيبة فى الكلب ولا تعملهاش فى الجندى» ، «جندى ما عجب شيع طرطوره»[٣] ، «عساكر الكرا ما تضربش بارود» . .

وكما كانت نظرة المدنى أو الإقطاعى إلى الفلاح وكذلك كانت نظرة المدنى إلى طائفة الصعايدة والمعروف أن أراضى

---

(١) للمثل صورة أخرى « إذا كان صباعك عسكرى اقطعه » - الحدائق .

(٢) للمثل صورة أخرى « حد يقول للجندى غطى . . . » - الحدائق .

(٣) الجندى يريدون به العظيم من الترك وكانت الجنود منهم فى مصر ، وشيع معناه : أرسل والطرطور : قلنسوة طويلة دقيقة الطرف أى لم يعجبهم حضوره لبعضهم له فأرسل من حماقته قلنسوته إليهم فكيف تعجبهم ؟ - تيمور .

الصعيد من عوامل الطرد البشرى نظرًا لفقر الموارد وضيق الرقعة الزراعية التى تمثل شريطًا ضيقًا ، هذا مع شدة الحرارة ، وقد انعكس هذا الوضع على أخلاق أهل الصعيد الذين انتشروا فى القاهرة ومدن الوجه البحرى فهم يشتهرون بالغلظة وجفاف الطبع والعنف فى التعامل والتزمت ولا شك فى أن قسوة الطبيعة قد وضحت فى أخلاقهم وعاداتهم كما أن انتشارهم بهذه الأخلاقيات بين أهل الوجه البحرى فى المدن قد كون انطباعات خاصة فى المجتمعات الشعبية ، وقد وضح ذلك فى الأمثال التى تقول عنهم :

«كل يوم يجى من الصعيد مليح إلا رجالها والريح» ، «بحر سنة ولا تقبل يوم» ، «اللى يجى من الصعايدة فايدة» ، «إن علا واترقى علامته الدقة» ، «عليك يا صعيدى ولو بات» ، « يا صعيدية جوزك قبل ، قالت قلبى على الفراق اتدبل» .

والآن وبعد أن تغير وجه الحياة فى الصعيد بعد السد العالى وانتشار المصانع وغزوات الكهرباء للقرى والنجوع فكيف سيكون الحال بعد فترة من الزمن ؟ وهل سيكون هناك مكان لمثل هذه الأمثال ؟

المال والتجارة

المال :

المال عصب الحياة به يتمكن الإنسان من أن يذلل كثيرًا من العقبات التى تعترضه فى الحياة ، حقيقة أن المال لا يمكن أن يساعد الإنسان على التغلب على كل العقبات ، ولكنه يقوم بدور كبير فى إسعاد الإنسان وحل كثير من مشاكله ، كما أنه يعطى قيمة لكل الأشياء بل إنه يعطى قيمة للإنسان نفسه ويدعم علاقات الإنسان مع غيره وربما رفع صاحبه درجات فى السلم الاجتماعى ، وقد أشار المثل إلى ذلك كثيرًا عند الحديث عن الغنى والفقير أو بلغة المال عند الحديث عن صاحب المال وغيره . إن المال بلا شك يعطى لصاحبه وضعًا اجتماعيًا مختلفًا عن غيره ؛ لذلك كان هدفًا لكثير من الناس . ويظهر ذلك بوضوح فى المجتمعات الرأسمالية التى تعتمد على التنافس

الحر والتى تعتمد على النمو الرأسمالى العفوى غير المخطط ومن الممكن اعتباره فى هذه المجتمعات غاية ينبغى الوصول إليها بكافة السبل المشروعة وغير المشروعة ، أما فى المجتمعات الاشتراكية فإن النظرة إلى المال تجعله وسيلة لتحقيق السعادة للجماعة .

والواقع أن الأمثال العامية المصرية تعبر عن طبيعة التركيب الاجتماعى 'طبقات الشعب هى حينما تعبر عن الواقع اليومى الذى يعيشه الناس إنما تعكس النظرة الاجتماعية العامة . والمجتمع المصرى - مجتمع النصف فى المائة - كان يعانى من المال ويجد أنه لا يستطيع أن يتغلب على مشكلة المال ، فقد كان يجد أن المال فى أيدى الأغنياء وسيلة لإخضاع غيرهم من الفقراء ، كما أنه في أيديهم وسيلة للوصول إلى العز والجاه ، والسيطرة ؛ لذلك نرى فى بعض الأمثال الإحساس العنيف بقيمة المال حتى إنه يفضل الإنسان فى بعض الأحيان ، يقول المثل : «الاعتبار للمال مش للرجال» إن الوضع الاجتماعى يعطى الأهمية للمال قبل الإنسان وفى مثل آخر : «أصلك فلوسك وجنسك ملبوسك» ، «الفلوس على كل شيء تدوس» إنها تستطيع أن تحرك الحجر ويقول المثل الإنجليزى «النقود تتكلم» . .

كما أن الإحساس الاجتماعى يؤكد أن قيمة الإنسان مستمدة مما يملكه من مال «اللى ما عنده فلس ما يساوى فلس» ، «اللى

مامعاهش قرش ما يسواش قرش» ، وقديمًا قالت العرب : «ما المرء إلا بدرهمه» ، «اللى معاه باره يساوى باره واللى معاه قرش يسوى قرش» ، أى أن قيمة الإنسان تتأكد بمقدار ما معه من مال وما يملكه من عقارات وغيرها من مظاهر العز . .

وإذا كانت النقود عند الإنجليز تتكلم فإنها عند المصريين «صيادة» فالقرش يصطاد به الإنسان كل شيء فيقول فى أمثال «القرش صياد» «المال له كلاليب من حديد» يستطيع أن يحصل بها الإنسان على كل ما يريده ، كما أنها دواء للوضع الإنسانى فى المجتمع ، إنها تستطيع أن تغير الوضع الاجتماعى للإنسان فيقول المثل «اللى معاه مال يفعل ما بداله» فالمال يعطى الإنسان الحرية فى أن يزاول أى شيء ويقول[1] «الدراهم مراهم تخلى للعويل مقدار وبعد ما كان بكر سموه الحاج بكار» ويقول : «افتح جيبك ينقفل عيبك»[2] . .

---

(١) أى الدراهم كالمراهم تداوى علل الوضاعة وتسترها وتعلى قدر الوضيع بين الناس وتحملهم على الزيادة فى اسمه وألقابه كما وقر فى نفوسهم من تعظيم الغنى . وأصله قول قدماء المولدين فى أمثالهم « الدراهم مراهم » فزادت العامة فيه هذه الزيادة لتوضيحه - الأمثال العامية - أحمد تيمور . .

(٢) قالت العرب : « بالسخاء تستر عيوبك » وقال الشاعر :

تستر بالسخاء كل عيب   يغطيه كما قيل السخاء

حدائق الأمثال - فائقة حسين .

كما أن الوجدان لا يفوته أن يعقد المقارنات بين الغنى والمفلس فالأول يستطيع أن يحقق مطالبه ويتغلب على الصعاب أما المفلس فهو إنسان مقيد لا يستطيع الحركة ؛ ذلك لأنه يفتقد الوسيلة المهمة التى تجعله يعيش بين الناس ويتحرك فيقول المثل : «اللى معاه مال يمشى فى الطريق ويمد واللى بلا مال يمشى فى الطريق ويجض»[1] ، ويقول : «اللى معاه مال ياكل لحم بالصفيحة واللى ما معاه مال يشنك على الريحة» ويقول : «اللى معاه مال بدر واشترى العالى واللى بلا مال كوع للضحى العالى» ويقول : «اللى معاه مال بيتنزه بالجمالات واللى بلا مال صده البين لما مات» . .

فالمال فى كثير من الأحوال يغطى عيوب الإنسان ويسترها فالمثل يقول : «مكسح طلع يتفسح قال بفلوسه» أو يقول : «الأقرع بياكل حلاوة قال بفلوسه» فالمال عامل مهم فى إضفاء كثير من القيمة على الإنسان ولعل ذلك ما دفع الوجدان الاجتماعى إلى أن يركز حقيقة المال فى المثل الذى يقول : «قرشك فى جيبك ساتر عيبك وخيره عليك»[2] ، وإذا كانت

---

(١) أحيانًا يقال بدلاً من (يمشى فى الطريق ويجض» يقال : «قطعة ردا يتسد» . .

(٢) أحيانًا يقال بصيغة «قرشك فى جيبك صاين عيبك وفضله عليك» . .

النقود تقوم بهذا الدور المهم فى حياة الناس ، فإن المثل قد صور بدقة وصدق موقف الناس من المال فقال : «اتنين ما يشبعوش طالب علم وطالب مال»[1] .

وإذا كانت هذه هى الصورة الحقيقية للمال عند الوجدان الشعبى فإن ذلك قد دفعهم إلى الحث على المحافظة عليه والاحتياط للزمن الذى لا يؤمن عواقبه ، فالمال يذلل الكثير من الصعاب لذلك ينبغى على الإنسان أن يسعى إلى جمعه كما يسعى للمحافظة عليه بكل ما يستطيع ؛ ذلك لأنه يستر عيبه ويعطيه قيمة اجتماعية ، لذلك فقد كثرت الأمثال التى تدعو إلى الحرص على المال والاقتصاد فى الإنفاق . إن هذه الوسيلة تحافظ على وضع الإنسان فى مجتمعه كما تدفع عنه الأذى وتحميه من التقلبات والمستقبل المجهول فيقول المثل : « من وفر غداه لعشاه ما شمتت فيه عداه» ويقول : «الميه فى البير تحب التدبير» ، إن الاقتصاد ضرورى فى كل شيء ويقول : «القرش الأبيض ينفع فى النهار الأسود»[2] ، ويقول : «دبر غداك تلقى عشاك» .

---

(١) فى حدائق الأمثال أن أصل هذا المثل عربى وهو « اثنان لا يشبعان طالب علم وطالب مال » .

(٢) يقال بدلاً من « القرش » « الميدى » وأحيانًا « الدراهم » والميدى قطعة =

والإنسان لا يمكنه أن يأمن الزمن ؛ لذلك عليه أن يحتاط ويقتصد فى الإنفاق يقول المثل : «من وفر شيء قال له الزمان هاته» ، إن المستقبل مجهول وينبغى أن يحسب حسابه يقول المثل : «خسر سوقك ولا تخسر فلوسك» ، كما يدعو إلى التحذير من التفريط فى إنفاقه أو إهماله يقول المثل : «المال السايب يعلم السرقة» لذلك فإن صاحب المال دائمًا مشغول يقول المثل : «صاحب المال تعبان» .

والوجدان الشعبى يعلم حقيقة المال فهو وسيلة للسعادة أو للراحة من عناء الحياة ، وعلى ذلك فإنه يرى فى أمثاله أن القرش يجب أن يخدم صاحبه ولا يستعبده فيقول : «هز فلوسك ولا تهز دقنك» ويقول : «هين قرشك ولا تهين نفسك» فالعامى ينكر أن يسعى الإنسان فى جمع المال ولا يسعد به فيقول : «يبقى مالى ولا يهنالى» أو يقول : (ما عاش مالى بعد حالى» أو يقول : «مال كسبته كلته» . .

على أنه إذا كان المال وسيلة للإسعاد والمتعة فإنه أيضًا

= من الفضة وهى أصغر النقود المصرية وهى تساوى واحدا على أربعة عشر من القرش والميدى بفتح الميم وتشديد الياء المفتوحة هو اختصار مؤيدى وكانت هذه تطلق أصلًا على نصف الدرهم الذى كان يضرب فى عهد السلطان المؤيد فى أوائل القرن التاسع للهجرة أو الخامس عشر الميلادى - المصريون المحدثون - لين - ٤٤٤ .

وسيلة للشطط فى الحياة والبذخ والإتلاف ، تقول الحكمة القديمة «الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده» هذه الحقيقة يمكن أن تكون أكثر دلالة على المال ، وإذا كان المال وسيلة للسعادة فى الحياة فإنه لا يمكن أن يكون وسيلة للإضرار بالنفس وبالناس ، حقيقة أن هناك بعض الأمثال القليلة التى تدعو إلى الإنفاق بلا حساب أو دراسة للعواقب ، ومع ذلك فهى قليلة لا يمكن أن تدل على طبيعة المجتمع الذى وجدت فيه ، وربما كانت هذه الأمثال من الشواذ التى تؤكد القاعدة . فالقاعدة هى المحافظة على المال واستخدام العقل فى توجيهه وتكوينه بل والمحافظة عليه يقول المثل : «اللى من مالك ما يهون عليك» وليس من القاعدة أو الشائع الأمثال : «اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب» ، «مال الكنزى للنزهى» أو «هاتى يا مدره ودى يا سدرة» أو «الفلوس زى العصافير تروح وتيجى» . .

إن المجتمع الفقير الذى يسعى وراء العيش أو وراء القرش الذى يدفع به أحداث الزمن لا يعتمد مثل الأمثال السابقة ولا يصدرها ؛ ذلك لأنه يفتقده وليست لديه النقود التى يصرفها دون حساب انتظارًا لما يأتى به الغيب ولكن أغلب الظن أن هذه العملة من الأمثال قد صدرت عن مجتمع النصف فى المائة الذى أشار إليهم الرئيس جمال عبد الناصر . .

والمجتمع الشعبى فى محاولته تمجيد المال وإبراز أهميته فى العلاقات يحذر دائمًا من استخدام الوسائل غير المشروعة فى جمعه ، وإذا كان للمال أهمية لدى الناس فإنه ينبغى ألا يكون ذلك وسيلة لهدم القيم الاجتماعية والأخلاقية فهو يضع أمام الناس تجارب السابقين لكى يتمثلوها فيقول : «مال تجيبه الريح تأخذه الزوابع» فالمال الذى يتكون دون أساس يزول ويقول : «المال اللى ما يشبه أصحابه حرام»[1] ، ويقول : «مال الوقف يهد السقف»[2] ، أو يقول : «المال اللى ما تتعب فيه اليد ما يحزن عليه القلب»[3] ، أو يقول : «مال الناس كناس وقليل الغنى»[4] . .

وقد ينبه المجتمع الشعبى إلى أهمية المال الحلال وأثره فى حياة الإنسان وإذا كان المال الذى يأتى مع الريح يضيع فى الزوابع ، فإن المال الحلال لا يضيع يقول المثل : «عمر المال

---

(١) يقول تيمور هو مثل قديم فى العامية أورده الأبشهى فى المستطرف برواية «كل شيء لا يشبه قانية حرام» .

(٢) أى من اغتال مال وقف وخص به نفسه ولم ينفقه فيما حبس له فعاقبته هدم سقف داره ، أى الخراب - الأمثال العامية - أحمد تيمور .

(٣) أى المال الذى لا يكد المرء فى تحصيله لا يحزنه فقده فيسرف فيه - المصدر السابق .

(٤) أحيانًا يذكر المثل «مال الناس كناس» فقط .

الحلال ما يضيع» ثم نراه يضع الوسيلة التى ينبغى أن يسير عليها الإنسان لكى يصبح من أصحاب المال فنراه يقول له فى أحد الأمثال «الألف تجر ألوف» أى أن المال ينمى نفسه بنفسه وكما قال سابقًا : «القرش صياد» ثم هو يسخر من الساعى وراء المال دون أن يستعد لذلك فيقول : «طالب المال بلا مال زى حامل الميه فى الغربال» . .

والمجتمع الشعبى يعلم أن العلاقات المالية بين مختلف الناس قائمة على الأخذ والعطاء وبين هذا وذاك يتحرك المال فى كل الاتجاهات ونتيجة لذلك فقد يكون هناك دائن ومدين وهى ظاهرة طبيعية تتواجد حيث تكون العلاقات المالية ، والمجتمع الشعبى يعرف هذه الحقيقة ويعرف المشاكل التى تتكون نتيجة لذلك ، ولقد تحدث عن ذلك فى أمثاله فأشار إلى أثر ذلك فى العلاقات الإنسانية فقال : «السلف يربى العداوة» وذلك لما يتبعه من تأخر فى السداد أو مشاكل مترتبة على ذلك ويقول : «الدين سواد الخدين» أو يقول : «الدين ينسد والعدو ينهد» . .

وفى بعض الأحيان تعكس الأمثال موقف كل من الدائن والمدين فقد يكون هناك من المدينين من يستهينون بأموال الدائنين ويرفضون دفعها وقد عبر المثل على لسانهم فقال : «كل دين واشرب دين وإن جه صاحب الدين فخت له عين فى عين»

أو يقول : «السلف تلف والرد خسارة» أو ينصح الدائن فيقول له : «ما يموتش حق وراه مطالب» ، وقد يرسم العلاقة المثلى بينهما فيقول : «من خد وادى صار المال ماله» إن العلاقة الإنسانية التى تعتمد على الأخذ والعطاء لا ينبغى أن تعيش على الاستهتار بالحقوق بل ينبغى أن يسود الحق والعدل . على أن الإنسان عامة مجبول على أن يكره الدين ويحب أن يكون له لا عليه يعبر عن ذلك المثل : «ألف لنا ولا علينا» . .

وينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار أن العلاقات بين الناس تعتمد على المال فحسب ، حقيقة أن المال قد يكون من العوامل المهمة فى إقامة العلاقات بين الناس بل إن هناك من الناس من يقول فى الأمثال : «أبويا وأبوك القرش» ، ولكن الواقع الاجتماعى يفرض على الناس نوعًا آخر من العلاقات الإنسانية التى ينبغى أن تطغى على سيطرة المال وتحكمه فى العلاقات . لقد عبر بعض الأمثال عن هذه الرغبة فقال المثل «اللى ح يعرف ناس ما يعرفش فلوس» أى أن الفلوس لا ينبغى أن تسيطر على علاقات الناس ، ويقول مثل آخر : «اللى يحبنى على مالى لا عاش ولا بقى لى» . .

إن مثل هذه الأمثال تعكس بلا شك الروح التى ينبغى أن تسود وهى دعوى لتغليب العلاقات الإنسانية . يقول المثل : «يا واخد القرد على كتر ماله بكره يروح لمال ويفضل القرد على

حاله» أى أن المال يذهب ويأتى ، ويروح ويجىء ، ولكن العلاقات بين الناس باقية ويمكن لها أن تقوم بدور فعال فى حل كثير من المشاكل التى تثور بل يمكن أن تكون بديلاً عن كثير من أنواع التعامل المالى . الواقع أن هذه الدعوة يصوغها المجتمع المتكامل للحد من السيطرة غير الأخلاقية للمال ، والمال بطبيعته من العناصر التى تغرى بالخروج على قوانين المجتمع ، بل إنه يدفع فى بعض الأحيان إلى الجريمة ولكن المجتمع الذى يعيش فى مناخ صحى ولا تحكمه المادة يستطيع عن طريق هذه الأمثال أن يحد من هذا الاتجاه . ولذلك يمكننا أن نقول أن الأمثال قد قامت فى هذا المجال بدور أخلاقى . .

التجارة :

لم يمارس المجتمع المصرى التعامل الجماعى فى التجارة حتى الآن ، فهو يكره الشركة وينفر من ذلك فيقول : «قطع الشرك ولو فى الغدا» ، لذلك فقد سيطر رأس المال الفردى على التجارة طوال عصور التاريخ ، وبطبيعة الحال فإن مثل هذه السيطرة تفرض على محترفى التجارة أخلاقيات خاصة فى البيع والشراء والمكسب والخسارة بين التاجر والزبون ، كما تفرض تعاملاً خاصًا بالنسبة للسلع . والواقع أن التجارة القائمة على الحرية الفردية فى الاختيار وفى البيع وكذلك القائمة على

الاجتهاد فى الشراء قد تخلق بالضرورة نوعًا من التنافس والمضاربة وربما كان ذلك فى صالح المشترى وربما كان غير ذلك . وتعيش التجارة على التعامل اليومى المستمر ، على أنها فى الغالب ربما تخضع للسوق ولكنها من ناحية أخرى تخضع للحرية الشخصية فى البيع والشراء . .

والأمثال التى تسجل العلاقات اليومية للمجتمع المصرى كما تسجل التجربة الإنسانية فى التعامل لم تترك شيئًا عندما سجلت الجانب التجارى بل إنها غطت كل العوامل والعناصر التى تتكون منها الحركة التجارية وأبدت رأيًا واضحًا فى كل ذلك ، وهى - كما هو معروف عن طبيعة المثل - تسجل خبرات الآخرين وتجاربهم على مدى التاريخ . فقد سجلت الأمثال حركة البيع والشراء كما تحدثت عن السوق والسلع والتجار وكذلك الطبيعة الإنسانية التى تتحكم فى التفكير التجارى ، وهى الخاصة بالرزق والمكسب والخسارة . لقد غطت الأمثال هذه العناصر فى دقة واقتدار . .

ولقد يقال أن هذه الأمثال تعبر عن الجانب البدائى فى التعامل التجارى إذا قيست بما عليه الحركة التجارية الآن القائمة على التفكير العلمى الجماعى والتى دخلت فيها تعقيدات المدنية ومشاكل الحضارة ، ولكنها رغم ذلك تعطى بلا شك وجهة نظر

كانت لها قيمتها قديمًا وما زالت تؤدى دورها المحدود الآن . والحديث عن التجارة يقتضى الحديث عن عناصرها ومن كل هذه العناصر يتكون المفهوم التجارى كما تشير إليه المادة المثلية . .

البيع والشراء :

يسجل المثل حركة البيع والشراء ، فيقدم مجموعة من النصائح التى لا ينبغى أن تفوت المشترى ، أولى هذه النصائح أن يشترى البضاعة الجيدة ويحذر من البضاعة الرديئة وعلى الشارى ألا يميل إلى البضاعة الرخيصة ؛ ذلك لأنها فى واقع الأمر غالية فيقول : «الرخيص غالى» ويقول : «الغالى ثمنه فيه»، ويقول : «اللى اشترى الدون رجع لبيته مغبون»[1] ، ويقول : «إذا لقيت الغالى فى السوق تمنه»[2] ، والبضاعة الجيدة رغم ارتفاع ثمنها تصلح للبيع فى كل مكان وزمان ، وينصح المثل المشترى فيقول له : «اشترى لنفسك وللسوق»

(١) من حصل الغث التافه ، رجع بصفقة المغبون ، ويضرب للزهاد فى السلع الرخيصة - حدائق الأمثال العامية - فايقة حسين .

(٢) قد يقال بدلاً من « تمنه » « زوده » وقد يقال بدلاً من « الغالى » « المليح » وقد يقال المثل بهذه الصيغة « إن لقيت الغالى فى السوق تمنه والبيعة الرخيصة ما فيهاش مكسب » .

أى إنك قد لا تحتاج إلى ما اشتريته مستقبلاً فينبغى عليك أن تشترى البضاعة الجيدة التى يمكنك بيعها مستقبلاً حتى لا تخسرها ، كما ينصح عند الشراء أن يشترى الصغير من الحيوان ؛ ذلك لأنه مع تقدم الزمن يرتفع سعره ويربح صاحبه فيقول : «اشترى الصغير وشاور الكبير» ، وعليك أيضًا عند الشراء أن تأخذ رأى من هم أكثر منك خبرة بالبضاعة .

والنصيحة الثانية التى يقدمها المثل عند الشراء هو أن يفاضل المشترى بين أنواع المشتريات ، وخير هذه الأنواع هو الممتلكات الثابتة وربما كان ذلك أكثر أمانًا وحماية للإنسان ضد تقلبات الدهر . . إن المثل يحث على شراء العقارات فيقول : «بيع الدهب واشترى العتب»[1] ، ويقول : «يا شارى بيت مبنى يا لاقى كيس مرمى» . .

والنصيحة الثالثة وهى خاصة بالتجارة اليومية ، فحركة البيع والشراء فى آخر اليوم غالبًا ما تكون راكدة ، ولذلك فإن الشراء غالبًا ما يعتمد على الاختيار بين مختلف البضائع ويقول المثل فى ذلك : «آخر النهار اختيار» . .

والنصيحة الرابعة هو ألا يشترى الإنسان إلا ما يحتاج إليه

---

(١) يضرب فى تفضيل ابتياع العقار لما فيه من الفائدة على اقتناء الحلى / أحمد تيمور .

فعلاً فيقول المثل : «اللى اشترى ما لا يحتاج إليه باع ما يحتاج إليه»[1] . .

على أن عملية البيع والشراء تحكمها تقاليد شائعة بين مختلف الأوساط فالتعامل التجارى معروف بين مختلف الناس ، وتكون على أساس من المساواة فى الإنفاق والبيع والشراء ، وكثيرًا ما يدور بين الناس هذا التعبير «خلينا تجارى» أى نتعامل مع بعضنا كما يتعامل التجار مع بعضهم ، والمجتمع يجزع من الرهن ؛ ذلك لأنه يخالف الشريعة الإسلامية لذلك يقول المثل : «اللى بدك ترهنه بيعه» . .

ومن التقاليد التجارية حرية البيع والشراء ، ويقول المثل «البيع والشرا حرية» فالبائع حر فيما يبيعه والشارى حر فيما يشتريه ويحكم ذلك شروط يتفق عليها من كلا الطرفين يعبر عن ذلك المثل بقوله : «الشرط نور» ، «بين البائع والشارى يفتح الله» ، «على قد زيته كيل له» فليس هناك مجاملة فى العلاقة بين التاجر والشارى ؛ ذلك لأن التاجر يعتمد على ما يكسبه من نقود قليلة ، فإذا فرط فى ذلك كان إيذانًا بضياع تجارته ؛ لذلك فإن على البائع والشارى أن يتعاملا كالأجانب يقول المثل : «اتعاشروا زى الأخوان واتعاملوا زى الأجانب» . .

---

(١) من أولع بالترف والظهور استنفد ذلك ماله وفاته ما يحتاج إليه من الضرورات حدائق الأمثال – فايقة حسين .

وإذا كانت الأمثال قد تحدثت عن حركة الشراء كما تحدثت عن التقاليد الشائعة التى تحكم عملية البيع والشراء ، فإنها قد تحدثت أيضًا عن عملية البيع باعتبارها أحد طرفى المعادلة التجارية ، والأمثال كما قدمت مجموعة من التجارب والخبرات بالنسبة للشراء ، فإنها تشير أيضًا إلى مجموعة من الخبرات والتجارب بالنسبة للبيع ، فعملية البيع ينبغى أن تعتمد على الفرصة ، فإذا سنحت الفرصة للبيع فلا ينبغى التأخر «فالبيع فرص» ويقول المثل : «إن عجبك مالك بيعه» ، وقد تأتى الفرصة مع أول مشتر ، عندئذ يقدم المثل نصيحته بقوله : «أول بيعة من دهب» ، وقد تأتى البيعة مع بعض التنازلات فيعبر عن ذلك المثل بقوله : «أفوت لك دى البيعة» . .

والتقاليد التجارية تفرض على التاجر أن يكون سريع الحركة لا ينتظر المكسب أو الخسارة ، فقد لا يكسب من بيعة وربما عوضها من بيعة أخرى ، فعليه ألا يتباطأ فى اغتنام الفرصة ، ولكن عليه أن يتاجر فيقول المثل : « بيع واشترى ولا تنكرى» ويقول : «بيع بخمسة واشترى بخمسة ، يزرقك الله من بين الخمستين» . والواقع أن البائع وخاصة الذى يبيع عقارًا يصاب بالثراء ؛ ذلك لأن ثمن ما باعه فى يده حر التصرف فيه ، أما الشارى - وخاصة الذى يشترى عقارًا - فإنه يعيش فقيرًا ويحرم

نفسه لكى يجمع ثمن ما اشتراه ، إنها طبيعة البيع والشراء ، طبيعة تخضع للسوق والظروف ، ولاعتبارات تجارية . حاول المثل أن يشير إليها فقال : اللى يبيع يغتنى سنة واللى يشترى يفتقر سنة» . .

المكسب والخسارة :

هذا الموضوع من الظواهر الواضحة فى الحركة التجارية فالتاجر يذهب إلى السوق ولا يستطيع أن يعرف المستقبل ، والبضاعة تخضع لموضوع العرض والطلب فإذا ازداد الطلب كسب التاجر وإذا قل الطلب بارت تجارته وأصيب بالخسارة ، والواقع أن الحظ يلعب فى هذه التجارة دورًا مهمًا ؛ ذلك لأن حركة البيع والشراء لم تكن تخضع - كما هو الآن - لعملية التخطيط والتوجيه ولكن الحركة التجارية كانت تسير بأسلوب عفوى قابل للتغيير من حين لآخر ؛ لذلك فقد قام المثل برصد عملية المكسب والخسارة ، وسجل الانطباعات الجماهيرية على هذا اللون من النشاط التجارى . .

فالتاجر لا يهتم بنوعية ما يتاجر فيه ، ولكنه يهتم بالمكسب فلو تيسر له الكسب من أردأ أنواع التجارة ، فإنه لا يتراجع عن ذلك ، يقول المثل : «المكسب فى الجلة ولا الخسارة فى المسك» ، ويقول : «ألذ شيء فى الدنيا المكسب» ، «ما يشكر السوق إلى من

كسب» ، «ما يمدح السوق إلا من كسب فيه» ، أو يقول «اللى كسب قال المساحة صحيحة واللى خسر قال جت على ناس ناس»[١] . .

وكذلك فقد تحدثت الأمثال عن ظاهرة الخسارة ، فهناك من الأسباب ما يؤدى إلى الخسارة ، فالتاجر الذى يوزع بضائعه على الناس بالأجل لاشك فى أنه سوف يفاجأ بأنه قد أفلس ؛ إذ إنه لايستطيع أن يحصل أثمانها بسهولة ، يقول فى ذلك المثل : «الشكك يفلس التاجر الألفى»[٢] ومال التاجر هو الذى يعيش منه وأسرته ، فإذا خسر حياته ؛ لذلك يقول المثل : «اللى يخسرك مالك يخرسك روحك» . .

والواقع أن الخسارة عند التاجر قد تكلفه حياته ، وكثيرًا ما سمعنا عن وفاة أحد التجار لضياع صفقة مربحة أو خسارته فى صفقة أضاعت ماله ، ويشير المثل إلى حالة التجار فى مثل هذه الظروف فيقول : «أبغض من وجوه التجار يوم الكساد» ، والتاجر - فى حياته - يتعرض لمثل هذه الأحوال كثيرًا ، وعليه أن يستفيد من تجاربه فى السوق بل ويستفيد من خسارته ، يقول المثل : «الخسارة تعلم الشطارة» أو «الخسارة اللى تعلم مكسب»

---

(١) قد يكتب هذا المثل هكذا : «واللى كسب يقول الساحة مبحبحة» . .

(٢) إذا كثر هذا النوع من الشراء على التاجر سبب له الإفلاس ولو كان ألفيًا أى صاحب ألوف (الأمثال العامية) أحمد تيمور . .

والذى ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار هو الاستفادة من ذلك واستخلاص النتائج والحذر ومحاولة التخفيف من أثر الصدمات والمفاجآت . .

والتجارة تعتمد فى الدرجة الأولى على الأخذ والعطاء - البيع والشراء - فعلى التاجر أن يبيع عندما يجد أن السوق ليس فى صالحه أو عندما يجد أن البضاعة راكدة ، عليه أن يبيع ولو كان فى ذلك خسارته ؛ لأن الثمن سوف يفيده فى شراء غيرها من البضائع التى قد تعود عليه بالكسب ، فعليه أن يبيع ويشترى ويخلق الحركة فى محله ويتحدث المثل فيقول : «الخسارة المستعجلة ولا الكسب البطىء» ، ويقول : «خسارة قريبة ولا مكسب بعيد» فالنقود فى يد التاجر أهم من البضاعة ؛ لأنه يعلم أن «القرش صياد» به يشترى البيعة الرخيصة و «البيع والشرا فرص» . .

البضاعة والسوق :

إن الحركة التجارية تعتمد على عناصر ثلاثة يتكون منها مفهوم التجارة ، هذه العناصر هى : البائع والشارى والبضاعة ، هذه الأطراف الثلاثة بتعاونها مع بعضها تنشط الحركة التجارية ، وهناك عوامل أخرى تتدخل فى تيار العلاقات بين هذه العناصر منها البيع والشراء ذاته والسوق والقيمة المادية للبضاعة وأهمية ذلك للشارى والبائع . .

والواقع أن السوق وما فيه من بضائع يكون أهمية خاصة فى الحركة التجارية ، فالسوق ذلك المكان المخصص للبيع والشراء، وبه مختلف أنواع البضائع اليومية ، وقد فرضت الأسواق نوعًا من الأخلاقيات على كل من البائع والشارى ، وقد زخرت الأمثال بالحديث عما يفرضه السوق من تأثير على الحركة ، فالسوق بما فيه من مختلف البضائع وطريقة عرضها يغرى المشترى على الإكثار من الشراء ، وقد يذكره بصنف من البضاعة يحتاج إليه فالمثل يقول : «اللى يروح السوق يسوق» ويقول : «اللى يحضر السوق يبيع ويشترى» فالسوق بما فيه من تنوع فى السلع من العوامل المهمة فى ترويج البضائع ، والسوق أيضًا يفرض على كل من البائع والمشترى نوعًا من سرعة البداهة والذكاء والقدرة على التمييز بين الحسن والردىء . . إن هذه العناصر تنسب لابن السوق الذى يعيش على التعامل فيه ، وقد فطن المثل العامى إلى ذلك فأطلق على الرجل الذى يحسن التصرف بأنه «ابن سوق» . .

وربما لا تكون للبضاعة أهمية كبيرة فى حركة البيع والشراء ولكن الذى يتحكم فى الحركة التجارية هو العرض والطلب ، وهذا ما عبر عنه المثل بقوله : «حسن السوق ولا حسن البضاعة» كما يجب على المشترى أن يبكر إلى السوق ؛ ذلك لأن البضاعة

الجيدة سريعًا ما تنفد ، ولعل ذلك ما جعل المثل يؤكد ذلك فيقول : «كن فى أول السوق يا جحا ولو بقص اللحى»[1] . .

والسوق الذى فيه مختلف البضائع نجد فيه أيضًا مختلف فئات الشعب وطوائفه ، وكل منها تذهب لشراء حاجتها من البضائع ، ويبدو أن الأسواق كانت قديمًا مكان للقاءات أخرى قد لا تكون تجارية ؛ لأنها تحوى مختلف قطاعات الشعب ، يعبر عن ذلك المثل بقوله «قابل القرع على سوق الطواقى»[2] . .

على أن المثل العامى يقدم خبرته لمرتدى السوق من المشترين والبائعين . إنه ينصحهم بالتأنى والحذر فلا ينبغى أن تندفع فى الشراء لما قد يسببه ذلك من خسارة وكذلك على البائع ألا يندفع فى البيع حتى لا يخسر ، ومن الأفضل أن يضيع السوق ولا تضيع الفلوس يقول المثل : «ضيع سوقك ولا تضيعش فلوسك» أو يقول له : «إذا اشتريت افتكر السوق» أى تذكر أنك ربما تحتاج إلى أن تبيع ما اشتريته ثانية ، فيجب أن تكون البضاعة صالحة أيضًا للبيع وليست مستهلكة . .

---

(١) كن أول داخل للسوق ؛ لأنك تغتنم أطايب السلع قبل غيرك - الأمثال العامية - أحمد تيمور .

(٢) لتيمور تفسير آخر هو قوله « القرع لا يلبسون الطواقى من الجلد أو اللبد فهم لا يوجدون فى سوق الطواقى المعروفة » . ويضرب للشيء المستبعد حصوله (الأمثال العامية) أحمد تيمور .

وكذا فإن البضاعة فى السوق تكسب حسنًا ؛ ذلك لأن السوق مكشوف تظهر فيه البضاعة ، كما أن أسعارها واضحة فليس هناك إذن ظلم لكلا الطرفين يقول المثل : «غالى السوق ولا رخيص البيت» فالمشترى يفضل أن يشترى البضاعة غالية من السوق على أن يشتريها من البيت ؛ لأنها فى السوق تكون مأمونة من الغش أو الخداع ، والسوق لكونه يحتوى على كثير من الأصناف للنوع الواحد دفع التاجر إلى أن يتخلق بأخلاق تجارية فهو يعرض وينادى على البضاعة ويعلن عنها ويصبر فى تعامله مع الزبون ويتحدى ببضاعته فيقول : «على عينك يا تاجر» ، «العينة بينة يا زباين» ، «آدى العينة» ، «اللى ما يعجبكش خد غيره» ، «اللى ما يشترى يتفرج» ، ويقول : «اللى ما يدلل على بضاعته تبور» . .

فالأمثال فى الحقيقة تعكس ما يدور فى السوق من حركة تجارية بكل جزئياتها وتفاصيلها . ويقول : «ده فى السوق وده فى السوق والرك على النصيب» ، «اللى فى السوق منه ما تحمل همه» ، والبضاعة وإن كانت قليلة القيمة فإنها تعود بالفائدة على صاحبها ؛ لأنها قد تدر ربحًا يعيش منه التاجر يعبر عن ذلك المثل بقوله : «رطل نحاس بيغنى ناس» . .

وأحيانًا تتحدث الأمثال عن البضائع غاليها ورخيصها ،

والمجتمع الشعبى فى كثير من أمثاله يفضل البضاعة الغالية كما يحذر من البضاعة الرخيصة فيقول : «ما يعجبك رخصه ترمى نصه» ، ويقول : «الغالى تمنه فيه» ، ويقول : «إن لقيت المليح فى السوق تمنه » ، ولقد عبر المثل عن سخريته من الخايب الذى يتقدم لشرائها فقال : «الحاجة فى السوق تقول نينى نينى لما يجى المردى يشترينى يشترينى» ، وقال : «خلى العسل فى جراره لما تجى أسعاره» أو «خليه فى قنانيه لما يجى الخايب يشتريه» ، والواقع أن البضاعة الرخيصة لها مكان أيضًا فى نفوس الناس ، فكثير من الناس يفضلها ويقوم التاجر من جانبه بترغيب الزبون فيقول المثل على لسان التاجر : «كويس ورخيص وابن ناس» .

التاجر :

إن التاجر هو العنصر الرئيس فى العمليات التجارية ، فهو الوسيط بين المصنع والمستهلك ومهنة التاجر رغم أنها تعتمد على الحركة والتعامل وتمتاز عن غيرها بالتجديد والجاذبية إلا أنها فى الواقع من أشق المهن وأصعبها ، فهى تحتاج إلى الرجل القوى المثابر الذى يخاطر بماله ، الذكى الذى يعرف كيف يستغل الفرص ويستفيد منها ، والتاجر الناجح يحتاج إلى سرعة فى الحركة وهدوء فى الأعصاب لدرجة البرود ، ويقظة دائمة للسوق والتقلبات وقدرة على التنبؤ بما يمكن أن يكون عليه

الغد ، فقد اعتبر المثل أن التجارة من المهن التى تحتاج إلى الجهد والاجتهاد فقال : «التجارة شطارة»[1] ؛ ذلك لأنها تعتمد على التنافس الحر والمخاطرة فيها شيء من الحظ مع كثير من الجد والاجتهاد ، فالتاجر يعلم كما يقول له المثل أن «الأرزاق تيجى بالمزاحمة»[2] . .

والواقع أن هذه المهنة مثل غيرها قد فرضت أخلاقيات خاصة على المشتغلين بها - هذه الأخلاقيات التى تحدث عنها المثل الشعبى وأحاط بعناصرها حتى إننا نستطيع أن نخرج بمميزات يتخلق بها التاجر ويختلف بها عن غيره من ذوى المهن الأخرى فالمثل يضع أمام التاجر الطرق التى تؤمنه فى مهنته فيقول : «شرط الأخذ العكا» ، ويقول : «المعاملة بالمفارقة» ، «الحيا فى الرجال يورث الفقر» ، «ما تبعش رخيص قال ما توصيش حريص» ، «إذا وصلت وسلم الله بيع بما قسم الله» ، «اشترى بخمسة وبيه بخمسة يرزقك بين الخمستين» ، «حط رجلك مطرح رجل السعيد تسعد» ، «من سرح بدرى روح بدرى» ، «خليك فى حالك يزيد رسمالك» ، «مال تودعه

---

(١) التجارة تعتمد على الجد والاجتهاد وعنوانها الشطارة . .

(٢) المقصود بالمزاحمة هو التنافس على البيع والشراء والمخاطرة وليس المقصود بوجود غنيمة يتكالبون عليها .

بيعه»[1] ، إن هذه المجموعة من الأمثال تكمل بعضها بحيث يمكن أن يتكون من مجموعها أخلاق التاجر المتكامل الناجح فى تجارته . .

على أن التجارة تعتمد على الفرصة فقد توجد هذه الفرصة فى سفرة قد لا تكون مخصصة لذلك يعبر عن ذلك المثل بقوله : «زيارة وتجارة» وعلى التاجر أن يعطى لكل زبون حقه يقول المثل : «الخواجة قال لابنه كل زبون واديه شكله» كما أن التجارة لا تنمو إلا إذا مارسها التاجر بنفسه ، فالتجارة لا تقوم إلا على أكتاف التاجر يقول المثل : «اللى بده الناس تتاجر له بده خوازيق تتنجر له» ، ويؤكد ذلك المثل الذى يقول : «احضر مالك يزيد خروبه» . . .

وإذا كانت التجارة تعتمد على الفرص والمخاطرة فإن ذلك قد يؤدى فى بعض الأحوال إلى الإفلاس أو وقف الحال ، والمثل يصف هذه الحالة فيقول : «ما تبكيش على اللى فرغ ماله إبكى على اللى وقف حاله » ووقف الحال قد يكون نتيجة لسوء الحظ ، فيقول المثل : «رحت اتاجر فى الكتان ماتت النسوان ، رحت اتاجر فى الحنة كترت الأحزان» وعندما يصل التاجر إلى

(١) أى مال تودعه إنسانًا وتتركه عنده مهملاً له ، بعه وانتفع بثمنه فإنه قد يتلف عنده - تيمور .

حالة الإفلاس فإنه يبحث عن أى شيء لكى يعيش ويعبر عن ذلك المثل : «التاجر لما يفلس يدور فى دفاتره القديمة» ، وقد يكون من عوامل إفلاس التاجر شكله أو غبائه يقول المثل : «قرد يبيع أم الخلول غارت البضاعة من وش التاجر» أو يقول : «العطار الزفت يضيع المستكه ويستحرس على الورق» وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن المظهر من عوامل الرواج التجارى . .

وهناك من التجار من يتاجر فى السلع الرديئة وهو فى الحقيقة لا يذكرها للناس كما هى ولكنه يحاول أن يوهمهم بجودتها أو حسنها فيقول عن ذلك المثل «ما حدش يقول عن عسله حامض» ، ويقول : «ما حد بينادى على زيته عكر» ، وهناك من التجار من يستغل السوق فيحجز البضاعة ويساعد فى اختلاق الغلاء رغبة فى المكسب ، إن المثل يقف من هذا موقف الساخر الناقد فيقول : «عنده بضاعة والناس جواعة» ، وهذا ما دفع المجتمع الشعبى إلى أن يسيء تصوير التجار فيقول فى أمثاله «اكتر التجار فجار» ذلك لشراهتهم وجشعهم واستغلالهم . .

والحديث عن التاجر يفرض بالضرورة الحديث عن الزبون وهو العنصر الثالث فى الحركة التجارية ، والواقع أن الأمثال التى بها إشارات عن المشترى قد سبق الحديث عنها عند رصد

حركة البيع والشراء . حقيقة أن عملية الشراء قد يقوم بها الزبون وهو المستهلك الفعلى للبضاعة وقد يقوم بها التاجر نفسه باعتباره وسيطًا فى حركة البضاعة أو حلقة فى سلسلة حلقات التجارة ، ولكن عملية الشراء السابقة والتى أشارت إليها مجموعة الأمثال يمكن أن يكون حديثها عن المشترى ونعنى به المستهلك الحقيقى للسلعة ورغم ذلك فإن الأمثال قد سجلت من ناحية أخرى بعض وجهات النظر الخاصة بالبائع والمشترى ، فالتاجر وهو فى ذات الوقت البائع يضيق ببعض أعمال الزبون يعبر عن ذلك فى أمثاله فيقول : «الزبون الزفت يا يبدر يا يوخر» ، «اللى ما معاهوش ما يلزموش» ، «الأخذ حلو العطا مر» ، «الفاجر ياكل مال التاجر» وهى أمثال خاصة بعملية البيع بالأجل ، وبالمثل فإن الزبون ينفر من بعض أعمال التاجر فيقول فى أمثاله «غلا وسو كيل» ، «قطع الغلا وكياله» ، أو يقول : «الله لا يرجع الغلا ولا كياله» . .

وكذا فإن موقف الزبون من البضاعة يتسم بالحرية فى الاختيار فقد يشترى أو لا يشترى وعملية البيع ذاتها خاضعة لميل الزبون ورغبته يعبر عن ذلك المثل بقوله : «الطايبة لحنكك والنية لصاحبها» . .

الأرزاق :

يتحكم فى الحياة التجارية أسلوب المغامرة وقد يلعب الحظ دورًا واضحًا فى حياة التاجر ، حقيقة أن هناك عوامل أخرى قد تجعل من التاجر رجلاً ناجحًا وقد تجعل منه إنسانًا فاشلاً وهى حقائق موضوعية ، ولكن التجارة تكاد تختلف عن غيرها من المهن فى أنها تخضع إلى حد كبير لعنصر المفاجأة والحظ ، كما تعتمد على ما يأتى به المستقبل . .

وإذا كانت هذه هى العناصر التى تتحكم فى نجاح التاجر وفشله فإن التاجر قد وعى هذه الحقائق التى لا دخل للاجتهاد أو الذكاء فى سيرها - قد اتخذ لنفسه أسلوب الصوفى الذى يعتمد فى حياته على الله . فالتاجر يعرف حقيقة الأرزاق وأنها بالنسبة له ليست حقائق رياضية لا يدخلها الخطأ ، ويعرف أن الأرزاق قد لا تخضع لعملية الاجتهاد أو غيرها مما يمكن أن يدخل تحت إمكانيات البشرية ؛ لذلك نراه قد استسلم لقضاء الله منتظرًا لما قد يأتى به الغيب . .

والحقيقة أن الأمثال التى تعبر عن هذه الحقيقة قد توحى بأن التاجر رجل سلبى ينتظر ما تجود به الأيام ، ولكن الواقع يخالف ذلك ؛ لأن طبيعة التجارة تفرض على التجار كفاءات فوق المستوى بالنسبة لغيرها من المهن ، والتاجر الذى يتخلق

بالتواكلية لا يمكن أن يعيش فى بيئة التجار ؛ ذلك لأن المثل يقول على لسان التجار «الأرزاق تيجى بالمزاحمة» «الرزق يحب الخفي» ، هذان المثلان يدلان على طبيعة التجارة . ولكن دخول عنصر المفاجأة والحظ فى المعاملات جعل التجار يلجأون إلى الله ويعتمدون عليه فى أرزاقهم فهم يقولون فى أمثالهم «الأرزاق على الخلاق» ، «الرزق يوم بيوم والأرزاق على الله» ، «ربنا بيرزق الكتف بطوبة صحيحة» ، «آدى الباب وآدى الباب والرزق ع الرحمن» ، «يرزق الهاجع والناجع واللى نايم على ودنه»[1] ، «ما يروحش من رزقك حاجة» ، «اللى لك محرم على غيرك» ، «القناعة مال وبضاعة»[2] .

والحقيقة أن هذه الأمثال لا تعبر عن سلبية أو تواكلية بقدر ما تعبر عن طبيعة الظروف التجارية ، ومن ناحية أخرى فإنها تنفس عن مشاكل التجار ، كما أنها من العوامل المهدئة لعصبيتهم إزاء خسائرهم وما قد يصادفهم فى معاملاتهم ، ومما يؤكد ذلك وجود مجموعة من الأمثال التى تدعو إلى الاعتماد

---

(١) الهاجع : النائم ، الناجع : الذى خرج ينتجع ويسعى . أى أن الله تعالى متكفل بأرزاق الناس على اختلاف أحوالهم - الأمثال العامية .

(٢) هو من مثل قديم رواه صاحب العقد الفريد بلفظ « القناعة مال لا ينفذ » / الأمثال العامية .

على الله وفى ذات الوقت تدعو إلى الحركة والعمل والنشاط والحرص وتؤكد هذه المعانى . تقول الأمثال «الرزق يحب الخفية، والمبدر رزقه اكتر» ، «استقنع بالقليل يأتيك بالكثير» ، «إذا كان الرزق بالقوة ما كانش ينول العصفور حاجة مع النسر» . .

والذى يمكن استنتاجه من هذا العرض السريع لأمثال التجارة هو أن هذه الأمثال تتحدث عن عناصر التجارة البدائية أو الريفية أو بمعنى أدق الأعمال التجارية الصغيرة التى رسمتها الأمثال للحياة التجارية وهى تعبر عن الحقيقة التى كانت تسيطر على الحياة التجارية فى مصر ، فلقد كانت التجارة المصرية وخاصة الخارجية فى يد الأجانب ومن يدور فى فلكهم من عناصر رأسمالية ولم يكن يتركون لعامة الشعب إلا بعض الأعمال التجارية الصغيرة ، ومن هنا جاءت الأمثال معبرة عن هذا الوضع الذى سيطرت عليه الرأسمالية الأجنبية . .

خاتمة :

والآن وبعد هذه السياحة المتشعبة خلال الجملة المثلية محاولين اكتشاف جوانبها الأدبية والاجتماعية نستطيع أن نقول إننا - فى الواقع - قد قمنا بمحاولة اكتشاف الشعب المصرى من خلال أمثاله ، ولقد أمدتنا الأمثال بكل ما يمكن حول شخصية المصرى - الرجل الشعبى الذى لم يتأثر بالمدنية - بحيث نستطيع إن نقول إن هذه الأمثال رغم ما يبدو فيها من ميل إلى العالمية من حيث إنها تعالج فى كثير منها مشاكل إنسانية - نستطيع أن نقول إنها أمثال محلية تشير بصدق واقتدار إلى شخصية الرجل المصرى بكل ما قد يكون فيها من تناقضات ، الطيب والخبيث ، السلبى والإيجابى ، البخيل والكريم .. إلخ ، ولقد كانت هذه الإفرازات تعبيرًا عن مجتمع فقير محروم من أبسط الضرورات فى حياته ، تكاد تقتله الرغبة فى الحصول على المال كنتيجة منطقية لظروفه التى فرضها حاكم ظالم أو مسئول مستبد ، كما كانت تعبيرًا عن اندفاعات هوجاء نحو العمل دون نظر إلى قيمة الإنتاج ونوعيته ، ولكنها تكشف عن معدن المصرى الذى يتميز بالصبر وقوة التحمل والقدرة على مواجهة الواقع بأسلوب خاص ، وليفسره العلماء حسب هواهم ولكنه يسير فى حياته حسب طبيعته وظروفه ..

والواضح بعد كل ذلك أننا لم نقل كل ما تحدثت عنه الأمثال ؛ لأنها أشارت إلى كل دقائق حياة الشعب المصرى - الأصيل - على وجه التقريب ، ومن هنا فإن الموضوع أكبر من أن يستوعبه كتاب كهذا ؛ لأنه يتعلق بحياة شعب عريق قديم قدم الحضارة التى عثر عليها الإنسان . ولعلنا بذلك نكون قد بدأنا الطريق . .

الشخصية المصرية

واضح من الكتابات التى ظهرت فى غضون الأحداث الأخيرة أن هناك نقصًا كبيرًا فى فهم الشخصية المصرية وطباعها . . . وأعتقد أن الدراسات التى تمت فى هذا الميدان إما سطحية . وإما غير متوافرة لمن يريد الاطلاع .

وكنت قد حصلت على نسخة من كتاب مهم فى هذا الميدان عنوانه «الشعب المصرى فى أمثاله العامية» وهو دراسة للشخصية المصرية من خلال الأمثال الشعبية . . والجهد المبذول فى الكتاب كبير للباحث المتخصص ، ولكن لكل مثقف بل لكل مصرى .

وللأسف الكتاب توقفت الهيئة المصرية العامة للكتاب عن طبعه ، فهل يساعدنا بريد الأهرام فى الوصول إلى مؤلفه د. إبراهيم أحمد شعلان . . لأننى سمعت أنه قام بطبعه فى دار أخرى فهل هذا صحيح ؟ وأين هو المؤلف ؟

لقد بحثت عن نسخ من الكتاب فى الأسواق . . . وحاولت الوصول إلى المؤلف نفسه دون جدوى ، وأطمع فى الاهتمام بهذا الكتاب والوصول - مبدئيًا - إلى مؤلفه أو ناشره الحالى إن وجد .

والسلام عليكم

بريد الأهرام ١٩٩٢ م

د. أحمد محمد عبد الله

طبيب نفسى

فهرس بأوائل الأمثال الموجودة بالكتاب حسب الموضوعات

البانى طالع والفاحت نازل

الخير يخير والشر يغير

العلم فى كل زمن له قيمة

وثمن

دود المش منه فيه

اللى تقطه أحسن . . .

ستين مقاس ولا . . .

كف لحم ولا كف فحم

ايش جمع الشامى . . .

٢ - الشعب المصرى والحكام

بنت ساعتها

السلطان اللى ما . . .

اللى ما (يأخذوش) الحاكم .

خلص تارك من جارك (مكرر)

ما حدش يقول يا جندى . . .

اكمن أبوك جندى . . .

الحيطة لها ودان

اتكلم بإحسان

حاكمك غريمك . . .

سيف السلطة طويل

زى الحاكم مالوش . . .

زى كرابيج الحاكم . . .

اللى ياكل مرقة السلطان . . .

فر من السلطان . . .

يا فرعون ايش فرعنك . . .

حاميها حراميها

افتكرنا الباشا باشا . . .

إذا كانت الشطارة . . .

المخوزق يشتم السلطان

ما تفرحوش فى . . .

افرحوا واتهنوا . . .

اللى تقول عليه موسى . . .

اللى ما يرضى بحكم موسى

اتوصوا علينا يا للى . . .

الملك من هيبته . . .

إن كان لك عند الكلب . . .

ارشفوا تشفوا . . .

البرطيل شيخ كبير

ضرب الحاكم شرف

الأسد الميت . . .

المنصب روح . . .

إن فاتك الميرى . . . (مكرر)

الحياة سنة ومسح . . .

اسجد لقرد السوء . . .

إذا دخلت بلد تعبد . . .

إذا دخلت بلد احلف . . .

حط راسك فى وسط . . .

اربط الحمار مطرح . . .

أنا أول المنطاعين . . .

لا أرى ولا أسمع . . .

اللى ياكل عيش . . .

اللى يتحامى فى غزية . . .

أكل الملوك شرف . . .

اللى تجيله المصايب . . .

إذا ابتليت بالشحاته . . .

اللى يخش بيت الإمارة . . .

إذا عدل الحاكم . . .

اضرب البرىء . . .

ابن الحاكم يتيم . . .

إذا أردت أن تطاع . . .

إصلاح الرعية . . .

حكم البلد . . .

ده العين ما تعلاش . . .

اللى يبص لفوق يتعب . . .

اللى يبص لفوق توجعه رقبته

رايح فين يا زعلوك . . .

أبو معيكة عاوز . . .

اللى أمه الطين . . .

ايش جاب التنين للتنتين . . .

ايش عرف الحمير . . .

الأصيل يحلف ويصدق . . .

الأصول ضاعت

الأصل الردى يردى . . .

الأصل يرد على صاحبه

إذا غاب عليك أصله

أصله ينبى عنه

الأصيل قلبك معاه مستريح

الصيل ما يعبش

الأصيل يتنخى . . .

الأصيل يجود

العشرة ما تهونش إلا . . .

فخر المرء بفضله . . .

أكل فوله ورجع لأصوله

اكرم ابن الإمارة . . .

ابن فلان على سن . . .

الناس مقامات

لما أنا كبير وأنت كبير . . .

اللى ياكله الكلب . . .

اللى له ظهر ما . . .

إذا عرفت أعرف الخيار . . .

اللى ما يسمع كلام كباره . . .

الميه تجرى فى الواطى

عادي أمير ولا تعادى غفير

اللى يقول أبويا وجدى . . .

ماشى ندك . . .

مش كل من لبس . . .

آخر الزمان تظهر . . .

الغلب ما هواش . . .

الله يلعنك يا زمان . . .
النخالة قامت والعلامة نامت
القوالب نامت . . .

٣ - الفقير والغنى

الأرض فرشة . . .
الجوع ما بيخليش مرابط
المفلس غلب السلطان
المفلس فى أمان الله
الكسبة عند الفقرا حلاوة
الكرشة عند المقلين زفر
خلقنه لركبته . . .
فقرا ويمشوا مشى الأمرا
الفقير ريحته وحشة (مكرر)
الفقير صيفه الغنى
إذا لقيت عريان . . .
فقير ونقير
بعد ما كان بينام . . .
بياكلوا بصار . . .
يربطوا حمارهم . . .
الفقير يقول قرش . . .
فقر المرء فى وطنه غربة
الفقر حزام العتريس
الفقير لا يتهادى . . . (مكرر)

اللى ياكل فول يمشى عرض . . .
اقتل الفقير ولا تمزع ثوبه
الفقير ريحته وحشة (مكرر)
إذا رأيت الفقير بيجرى . . .
الفقير قال الفار قرض . . .
الغنى شكته شوكة . . .
غنى مات جروا الخبر . . .
الغنى إذا أكل حية . . .
طلب الغنى شقفة . . .
الغنى غنوا له والفقير . . .
إذا مشيت على قبر الكبار . . .
السعيد كل الناس تخدمه
السعد وعد
خذوا من فقرهم . . .
عصا سليمان
غنى المرء فى الغربة وطن
إدى مالك للى عنده مال . . .

٤ - السادة والعبيد

الفقير لا يتهادى . . . (مكرر)
يا يموت العبد . . .
العب مع العبد يوريك شقه
ابعت الخدام للسوق والحقه
ما التقاش العيش ينتشه . . .

زى العبد تناه . . .

اعملنى عبد واشترينى

شرا العبد ولا تربيته

طنبورة العبد تسليه على حاله

جارية تخدم جارية . . .

اعمل حاجتى بإيدى ولا . . .

إذا كترت الخدامين . . .

حسنة يا سيدى . . .

قالوا للعبد سيدك راح . . .

عبد ما هو لك حر مثلك

٥ - القضاء

كل شيء وله قانون

يفتى على الإبره ويبلع الميير

يفتى على الإبره ويبلع المدره

القاضى إن مد إيده . . .

قالوا للقاضى يا سيدنا . . .

اللى القاضى غريمه . . .

ياما فى الحبس مظاليم

لو كان القاضى ينصف . . .

القادر عايب

صاحب الحق نطاح

ما يموتش حق وراه مطالب

يغور الحبس ولو فى بستان

اللى يربط رقبته فى محبل . . .

٦ - المقاومة

كل إنسان فى نفسه سلطان

الضرب بالسيف ولا حكم

العويل فى

القعدة على الكوم . . .

أبو جوخة وأبو فلة . . .

كلنا ولاد تسعة

الأقرع حصل أبو تاج

ربنا ما سوانا إلا بالموت

العين ما تكرهش إلا الأحسن منها

عش بيضحك أفضل من قصر بيبكى

اللى رشنا بالميه نرشه بالدم

اللى يشخ عليك شخ . . .

افطر بيه قبل ما يتغدى بك

العرق فى التدريب يوفر الدم فى المعركة

عند الطعن يبان الفارس من الجبان

الكترة تغلب الشجاعة

الضرب بالطوب ولا الهروب

٧ - الغربة والاعتزاز بالوطن

بلدك تلك

عويل بلاده عويل بلاد الناس

يا رايح مصر على اسم باشا . . .

اللى يعيش يشوف كتير . . .

اترك بلادك تبلغ مرادك

الغربة تعلم

البلاد بلاد الله والخلق عبيد الله

خد لك من كل بلد صاحب . . .

الغريب لازم يكون أديب

الغريب أعمى ولو كان بصير

غربة ودلاعة

ما نابه من غربته إلا عوجة ضبته

اقتل الغريب وعل فؤاده . . .

٨ - الإقدام على الزواج عند المرأة

أصيلة وعلى الحصيرة . . .

المهر تقلية الرك على . . .

آخذ الغندور ولا سكنى . . .

اللى تغوى الشاب الجميل لها . . .

خدى شايب يدلعك . . .

اختيار يدلل ولا شاب يذلل

العزوبية ولا الجوازة العار

قعاد الخزانة ولا الجوازة الندامة

البسى خف واقلعى خف . . .

اللى ما يجى وياله مشروح . . .

اللى كتب كتابى يحله . . .

لا اتجوزت ولا خلى بالى . . . .

من كتر خطابها بارت . . .

خطبوها اتعززت . . .

ساعة ما تنكتب فى السما . . .

يا كمون هاتو مجنون . . .

عريس الغفلة والباب بلا قفلة

اللى عاجبه شاربها ما حد مثلها

اقرصينى فى ركبتى . . .

يا رتنى بيضة ولى ضب . . .

اقعدى فى عشك لما . . .

ألف كتاب ولا زلة

جوزوها له مالها إلا له

آخذ ابن عمى واتنشر عليه بكمى . .

أحب ابن عمى ولو يسفك دمى

ولا تاخد ابن الأرملة . . .

١٠ - الإقدام على الزواج عند

الرجل

خد ندك على قدك

اللى يتجوز بالدين يبيع

اولاده بالفايظ

قرد موافق ولا غزال شارد

ادينى الحرة النقية . . .

خدوهم فقرا يغنيكو الله

خد الأصيلة ولو كانت

على الحصيرة

أدب المرة مذهبها لا ذهبها

استعدل ولا تستعجل

من عملهم تجارته يا خسارته

يا واخد القرد على كتر ماله . . .

إذا كنت عاوز تتجوز حط

الحبأ . . .

العريش الهنى يبان من نفقته

اللى ما يقدر على الحمرا

وعليقها . . .

بفلوسط بنت السلطان عروسك

اللى بده الملاح يبيع السلاح

اللى ما يقدر على الجواز يصوم

اللى يتجوز أكبر منه يا كتر همه

اللى ياخد الندامة مالوش ذكرى

يا واخد المرة يا مسخرة

من همه اتجوز قد أمه

خد رعنتهم ولا تاخدش ساهيتهم

اللى يتجوز فى سوق الصير . . .

اللى ما ياخد من ملته يموت . . .

اللى يتجوز اتنين يا قادر يا فاجر

إذا كان بدك غراب البين اتجوز اتنين

اتجوز غازية ولا تتجوزش

غمراوية

اللى يتجوز رفيقته . . .

اشترى حمارة الفقى ولا . . .

إن كنت عايز تمص قصب . . .

خد الجميل واقعد فى ظله

خد الغندور ونام قدام الكانون

خد المليح واستريح

خد الحلو واقعد قباله . . .

يا واخد البيض يا مقضى

الزمان . . .

الطول على الحور والتخن

على الجميز

يا واخد الصغير يا حرامى السوق

اللى بعرقوبها تدبح الطير

اهرب منها . . .

ما يعجبكش طولها الزين

ولا لفتها . . .

يا واخد السود يا مقضى

الزمان حزين . . .

جوز القصيرة يحسبها صغيرة
ما يعجبكش حمار الخد
يا شارى . . .
بيع الجمال واشترى خفة . . .
ادبح بسك ليلة عرسك
اخفوا طهوركم واشهروا جوازكم

١٠ – النسب

اسأل قبل ما تناسب يبان . . .
قبل ما تناسب حاسب
النسب أهلية
النسب حسب وإن صح يكون
أهلية
النسب إما حمى وإما درا
إن ما كانش لك أهل ناسب
اللى بلا أهل يناسب
خد من الزرايب ولا تاخد . . .
ازرع قريب وناسب بعيد
اللى واخد من الخرابات . . .
إن كان لك صاحب
لا تعامله . . .
النسب زى اللبن . . .
اسكن فى جبل كفرى . . .
اتجوز بنت اللى يقيد . . .
دور مع الأيام إذا دارت . . .
خد بنت الندل وخاصمه
بيت ينشرى وبيت ينكرى

١١ – بين الزوج والزوجة

النسوان هديات ورزيات
أفكار مراتى لى ولقلبى . . .
اللى مراته مفرفشة يرجع البيت
من العشا
لا تأمن للمرة إذا صلت . . .
إذا كان المرأة لها كانون . . .
إن كان لسان المرة جهر اقطعه
الرجالة غابت والستات سابت
من يريحهم يتعبوه . . .
إن حبوك يا ويلك . . .
مرة بن مرة اللى يطاوع مرة
اللى مالوش مرة . . .
من أعطى سره لامرأته . . .
آمن للحية ولا تآمن للمرة
يا ويل اللى علته مرته
شاورهم واخلفوا شورهم
الراجل بن الراجل اللى
عمره . . .
بدال خطوطك والحمرة . . .

مال طاقيتك مقورة . . .
أقول لها أنت طالق تقول . . .
اللى مراته خايبة . . .
الزمان ده يالله هده . . .
اللى اتجوز رخرة . . .
زانى ما يأمن على مراته
إذا كان صاحب البيت بيزمر . . .
يا مزكى على أهل بره زكى . . .
يا مجامل الغرب تفتخر بيهم . . .
اكسر جاه ميه ولا تكسر . . .
البس أنت تعجب مراتك
اللى يقول لمراته يا هانم . . .
حرمه من غير راجل زى
الطربوس من غير زر
آكل كياد فى الدار ولا . . .
يا سوق بلا رجالة . . .
اللى جوزها يقول لها
يا عورة . . .
ضل راجل ولا ضل حيط
اللى جوزها يحبها الشمس
تطلع لها
اسم الجوز ولا طعم الترمل
اللى جوزها معها . . .
الى ما عندهاش رجالة . . .
اللى ما تحنى كعبها . . .

اللى يرضى عليها بعلها . . .
أقل الرجال يغنى النسا
أخذتنى لحم ورمتنى عضم
عيب الرجال قلتهم . . .
خدوا جوز الخرسة اتكلمت
خدوا جوز العاقلة اتجننت
عيش يا حبيبى ولا تبكينى
بلاش توكلنى فرخة . . .
لا حصيرة ولا مخدة وكمان . . .
كانوا بيحسبوا الجواز هدية . . .
جت العازبة تشكى . . .
يخش من العتبة ينشف الرقبة . . .
بيجى من بر يكسر الجرة
يدخل العتبة يقطم الرقبة
يا مآمنة للرجال يا مآمنة . . .
قصقصى طيرك ليلوف بغيرك . . .
إذا كان الرجل بحر . . .
العاقلة والمجنونة عند
الراجل بالمونة
الراجل ما يعيبه إلا جيبه
اللى ما فيش فى بيته طعام . . .
الندب بالطار ولا قعاد . . .
إن كان البيت للعمامة روح . . .
خدتك على كبر شالك . . .
خدتك عواز خدتك لواز . . .

برا وجوا فرشت لك وأنت
مايل . . .
أخذتك يا سنبلة روحى . . .
لقمة الرجل مقمرة ما تأكلها . . .
حرة صبرت فى بيتها عمرت
الأصيلة تنام مع جوزها . . .
خدى لك راجل يبقى لك . . .
قلوب الرجال صناديق مقفولة
جرى الرجالة زى بحر النيل . . .
يا بخت الناس برجالنا . . .
يا صعيدية جوزك قبل . . .
أول سبوع يا عروسة خوخة . . .
عروس الدار ليس لها مقدار
ما تعرف خيرى إلا لما
تشوف غيرى
آدينى حية لما أشوف اللى جية
اللى ما يستعنانيش ورد . . .
اللى ما يخدنى كحل فى عينه

١٢ - المرأة فى منزلها

لقمة الراجل مقمرة ما . . .
قوى نارك تسبقى جارك
اغسلى حلتك من دمعتك . . .
قومى لها جارية واقعدى لها ست
افرم الجلة وأقور القوالح
المية فى الزير نحب التدبير
الشاطرة تقول للفرن قود من غير وقود
العيش مخبوز والميه فى الكوز
الشاطرة تغزل برجل حمار
العرس يبان من لم الجلة
الموفرة غلبت المشورة
اللى قبلنا قال البركة فى الحبتين
من قلة حيلها ومروتها . . .
اللى تولع قنديلها . . .
اللى مالوش غرض يعجن . . .
فاتت عجينها فى الماجور . . .
مالك بتجرى وتشلحى . . .
العلامة انكبت والنخالة قبت
الدهوانة تضيع مفتاح الخزانة
البحر غربال الخايبة
اللى كواها البين نطبخ محشى
هى كل من نفخت طبخت؟
كل دار ولها مدار وكل . . .
اللى يطلع من داره يتقل مقداره
يا دارى يا ساترة عارى . . .
قعدتى بين أعتابى ولا . . .
اغسلى تفوقى واكنسى تروقى
ما تخرج الحسنة إلا بعد كفو البيت
اكنس بيتك ورشه . . .

ما غسيل إلا بعد عصير

المرة الطهاية تكفى الفرح بوزة

الشاطرة تقضى حاجتها . . .

اللى تطبخه العمشة لجوزها يتعشى

لقمة غيرى ما تشبعنى وعارها يتبعنى

يا إبرتى إنتى غرامى وغيتى

قعدة على قعدة راح النهار . . .

المرة المفرطة عليها قطة مسلطة

نغسل غسيل هلس . . .

مرة تضحك على مرة وتقول لها . . .

آكل ميه وعند الشغل مالى نيه

١٣ - الزوجة مع أهلها

غربة وكربة وقلة حبيبة

لا حبيبة ولا جارة قريبة

والنبى يا امه ما تجوزينى غريبة . . .

جوزها بديك تناديها تجيك

إذا بكت على كل الحبايب . . .

جوزتها تتأخر راحت وجابت راخر

يادى الشيلة يادى الحطة . . .

رحت بيت أبويا استريح . . .

يحرم على بيت الأهلية . . .

نار جوزى ولا جنة أبويا

أبويا الكلب وطابى . . .

أبوياْ وطانى وجوزى علانى

١٤ - الزوجة مع أهل الزوج

قالت يا بنتى خايفة أجوزك فى بيت . . .

الكى بالنار ولا حماتى فى الدار

طول عمرك يا خالة . . .

بريه ياما من الحمه . . .

من يوم ما ولدونى فى الهم حطونى

يا دخلتى على اللى ما يريدونى . . .

حطوا على كلكم لما الهم خلانى لكم

يا اشخ فى زيركم يا اروح . . .

ما دام معاى القمر ما على بالى من النجوم

مطرود الدار ساكنها

عرق ورا الودن ما يحبش . . .

إذا كانت الغلة تيجى قد التبن

ما تيجى منقوله إلا الخربة المزقوله

عدوتى وعملت مغسلتى

أخذت الغريبة عملتها خيه . . .

اتلفت بملايتها وراحت . . .

١٥ - المرأة وضرتها

الضرة مرة ولو كانت حلق جرة

يا كاتبة يا ساحرة لا نايبك . . .

تاخدى جوزى وتغيرى ما تخيلى

يا ميلتى جاتنى دريرتى

اصبرى يا ستيت لما يخلى لك البيت

الضرة تعدل العصبة

ألف رفيقة ولا لزيقة

يا واخدة جوز المرة يا مسخرة

السلفة داهية مختلفة

مركب الضراير سارت . . .

لا ضرة ولا سلفة دى داهية مختلفة

١٦ - المرأة وجارتها

الجار أولى بالشفعة

النبى وصى على سابع جار

الجار ولو جار

لولاكى يا جارتى لاتفقعت مرارتى

جارك قدامك ووراك إن ما شاف . . .

الجار السوء يحسب الداخل . . .

الحسد عند الجيران . . .

حسدتنى جارتى على طول رجليه

لقمة جارى ما تشبعنى . . .

جارنا السوء ما أراده . . .

القبيحة ست جيرانها

صباح الخير يا جارى . . .

قعدتى على أعتابى ولا قعدتى . . .

زعل جارتى ولا خسارتى

الطويلة قضت حاجتها . . .

أدت سترتها لجارتها وقعدت . . .

١٧ - الولادة

اللى تاكليه فى نفاسك . . .

ولادة كل يوم ولا سقط كل سنة

الست مامنهاش . . .

الطلق حرب الصبايا

أسى الولادة منسى

ما تبان البضاعة إلا بعد . . .

البكرية زى العروسة المجلية

شهر وشهير والثانى قصير

الحبلة تمشى وتمايل . . .

الدنية تتمنى وحمتها . . .

من ولد ولد والتانى . . .

١٨ - التربية

اللى خلف ما ماتش

اللى خلف ما مات يلف العمامة . . .

اللى يخلف ويموت كأنه ما ماتش

اللى مالوش ولد عديم . . .

أكلهم تجارة ولبسهم خسارة

احترم أبوك ولو كان صعلوك

العز بعد الوالدين هوان

ابنك حته من كبدك

ابنك أنت زيك أنت

ألزم ابنك وربيه

إن كان بدك تعرف ابنك وتسيسه . . .

اللى منى ما يخلى من همى
من أدب أولاده أرغم حساده
من أدب ولده صغيرًا سر به كبيرًا
أدب ابنك صغير تفرح . . .
من شابه أباه فما ظلم (مثل عربى)
اللى ما يطلع لأهله . . .
الابن ينشأ على ما كان . . .
الأدب فضلوه عن العلم
الأدب خير ميراث
الأدب مطلوب
الأدب أفضل من النسب
أدب عيالك تنفعهم
الأدب رأسمال
أدب الابن يحفظ كرامة الوالد
عيب الولد من أهله
ابنك على ما تربيه
اللى فى البزازات بترضعه الولادات
إذا كان أمك البصل وأبوك التوم . . .
ابن العز يتعزز وابن الذل يتذلل
اللى ما يترباش على سفرة . . .
ابن عبد الغفار ما ينامش . . .
اللى أبوه كلب لازم يعوى
اضرب ابنك واحسن أدبه . . .
اكسر للعيل ضلع . . .
ابنك فضله فى الأكل والكسوة . . .

إذا طلعت دقن ابنك اطلق دقنك
ابنك وهو صغير ربيه . . .
إن كبر ابنك خاويه
اللى من غير أب يلطف به الرب
عمر المره ما تربى عجل وينفع
ابن الكبر والشيب إن ادلع ماهوش عيب
اللى ما تعلموش أمه وأبوه . . .
آخر الدلع الندامة
الأب رب
اللى ما يسمع كلام والديه . . .
اللى ما يعرف أبوه ابن حرام

١٩ - الأم مع الأبناء

اللى بلا أم حاله يغم
اللى تموت أمه يا سواد خده
اللى عند أمه ما ينحملش همه
أسيادى وأسياد أجدادى . . .
من طعم صغيرى بلحة . . .
القرد فى عين أمه غزال
أدعى على ابنى وأكره اللى . . .
أضرب ولدى وأكره . . .
ما تدينى ولدى تحت خلقى
البطن ما تجيبش عدو
أضرب ابنى ينكفى فى حجرى

ابن بطنى يفهم رطنى
ما جابهمش قلب وارتاح
جر السحلية ولا قطع الدرية
الخنفسة عند أمها عروسة
خنفسة شافت بنتها . . .

٢٠ - مع البنت

أخير الناس اللى تبكر بالبنت
اكفى القلة على فمها . . .
بنت الحراتة تطلع دراسة
اللى لها أم ما تقبحش
اللى يسعدها زمانها تجيب . . .
اللى ما لهاش بنيه تصبغ . . .
بدرهم وإيده خضرة
يا مخلفة البنات يا دايخة للممات
اكبرى يا بنتى والنصيب كتير
أم واحدة ربنا محيرها وأم . . .
بكره يروح البراز والبول . . .
جوعة على جوعة تخلى الصبية زوعة
فى الأكل سوسة . . .
قامت الحمارة . . .
ترضع وتشخ وتاكل المخ . . .
ألف عين تبكى ولا عين . . .

٢١- مع الولد

جدار البنت على المعين . . .
البنات تحتهم عفاريت
لما قالوا دا ولد شد . . .
لما قالوا دا غلام شد . . .
يا ريت على الطلق الشديد غلام . . .
يا ريت الطلق كان ملان
ربنا يبعت للعويلة ولد . . .
أم بربور تجيب الشاب الغندور
بكره يروح الخرا والبول . . .
اللى تحت الطرحة مالهاش فرحة

٢٢ - الأب مع أبنائه

حبيب أبوك حبيبك وإذا عاديته
وصى بالوالد ماوصاش بالمولود
اللى أبوك عليه أنت عليه
اللى ماله خير فى أباه . . .
الابن سر أبوه
قبل ما يشوفوه قالوا كويس . . .
قبل ما شافوه قالوا حلو القوام . . .
قبل ما ولدوه قالوا عريض . . .
قل يابا شرفنى قال . . .
اللى ما تخلف له الجدود
أبوك خلف لك ايه قال . . .

أبوك ما خلف لك . . .
اللى يدفع القرش ابنه يزمر
معاك مال ابنك ينشال . . .
ادى ابنك للى له أولاد
ابنك اللى من صلبك
اللى تجوزه أمه وأبوه . . .
إذا كان ابنك فى بيتك . . .
يخلق من ظهر . . .
إن فلح الخايب يعمر بيت أبوه
إن خرب بيت أبوك خد . . .
إن جه عليك البحر طوفان . . .
أبو البنات مرزوق
اللى ما عندوش بنات ما . . .
إن كان بدك تصون العرض وتلمه . . .
إن جوزت بنتك غريبة حضر . . .
اخطب لبنتك ولا تخطبش لابنك
اللى ما بدوش يجوز بنته يغلى مهرها
خلف البنات يحوج لنسب الكلاب
البايرة أولى ببيت أبوها
الوحشة فى بيت أبوها تترد
البنات بسبع وجوه
البنات مربطهم خالى
اللى راسها بتوجعها . . .
بنت الأكابر غالية ولو . . .
اقعدى واتربعى ياللى الزمان

اكسر للبنت ضلع يطلع لها اتنين
أم البنات حبلة للممات
أحسن شىء الولد البدرى والزرع البدرى
اللى ما فلح البدرى . . .
لا إيد تسقف لوحدها ولا وحدانى . . .
عمر الوحدانى ما يكيد عدو
آخر العنقود سكر معقود
مفيش على الحجر غيره

٢٣ - الإخوة مع بعضهم

الأكل فيهم تجارة (مكرر)
اللى ماله خير فى أخاه الغريب ما يسترجاه
الابن مولود والجوز مردود . . .
أنا وأخويا على ابن عمى وأنا . . .
أخته فى الخمارة وعامل أمارة
كل مانوا فى حاله
مصيرك يا أخ جار
إحنا إخوات وربنا خلق وفرق
أخوك ما هو أخوك وأبوك ما هو أبوك
الأخ الصالح فخ للمصالح
الأخ جناح
أخوك اللى يواسيك فى الشدة
أخوك اللى يصدقك النصيحة
إن كنتم إخوات اتحاسبم

أخ ما ينفع حط فى النعش وأدفع

قال الأبقى الأخ والا الصاحب . .

كل غريب صح خير من الأخ

من كان عشان من دار أخاه

أخوك لا يحبك غنى . . .

إن كان بختى فى حجر . . .

أخوك من أمك رقعة فى كمك

أخوك من أبوك . . .

أخاك اللى ما هو من أمك . . .

٢٤ - الأهل

أهلك لتهلك

الأهل زى الملح لا غنى عنهم

صابعك منك ولو كان أجدم

الأقربون أولى بالمعروف

اللى له قيراط فى العيلة . . .

اللى فيه نقطة من دمك . . .

اللى من دمى ما يخلى من همى

اللى منك منك ويحمل همك

ما يحمل همك إلا . . .

اللى له ظهر ما ينضربش على بطنه

أصلك يرد عليك

نار القريب ولا جنة الغريب

الضافر ما يطلعش من اللحم

عمر الدم ما يبقى ميه

العرق يمد لسابع جد

أخير أهلك اللى ينفعك

أسية الأهل منسية

سكينة الأهل متلمة

سكينة الأهل ما تدبحش

ما ياكلوش فى بعض

ما يعضوش فى بعض

لك قريب لك عدو

إن كان لك قريب لا تشاركه . . .

اللى مالوش قريب مالوش عدوين

عداوة الأقارب زى لسع العقارب

العداوة فى الأهل

الأقارب عقارب

أنا وأخويا على ابن عمى . . .

٢٥ - أهل الزوج

امشى أما أنظرك . . .

عرق جنب ودنهم ما يحبش . . .

إن كان القمح طلع اد . . .

قالوا يا حما ما كنتيش . . .

قالت يا بت مالك صفرة كده قالت . . .

طول عمرك يا ردا وأنت كدا

طول عمرك يا خالة وأنت على دى الحالة

الأخ أخ مراته والخايبة تحلف بحياته

٢٦ - أهل الزوجة

قالوا حماتك تحبك قلت دا كان . . .
حماتى مناقرة قال . . .
بيضة الفرخة موش لقية . . .
وفرى نفسك يا حماتى . . .
قال يا جحا حماتك بتحبك . . .
بوس إيد حماتك ولا تبوس . . .
جوز البنية أغلى من نور عنية
اللى له عمايم يدخل بالهمايم . . .
إن كان لك طرحة خش بفرحة . . .
اللى من أهل المرة يخش من غير . . .
إن كان لك مرة خش . . .
ابن الابن ابن الحبيب . . .
ابن العدوة عدا وعدانى . . .

٢٧ - الجار

قبل ما أقول يا أهلى . . .
جارك قدامك ووراك . . .
اشترى الجار قبل الدار
النبى وصى على سابع جار
الجار أولى بالشفعة
الجار جار ولو جار
ارعى الجار ولو جار
ربك وجارك عالم بحالك
اطلب لجارك الخير إن ما نلت منه . . .
إن كان جارك فى خير افرح له . . .
إذا كان جارك فى خير أنت فى خير
اشتهى الخير لجارك تشوفه فى دارك
إن كان فى إيدك حنة اجلفها . . .
إن كان لجارى ما يهنا لى
اطلب الخير لجارك تلقاه فى . . .
إن شتمت جارك ابقيه . . .
أحسن لجارك ولو أساءك
إن كان جارك سفيه اعمل له . . .
إن كان جارك بلا حك به جسمك
اعمل زى ما يعمل جارك . . .
من جاور السعيد يسعد . . .
دقوا فى أهوانهم . . .
افتح فى جنبك طاقة . . .
الجار السو يحسب الداخل . . .
جارنا السو ما أرداه . . .
البلاوى تتساقط من الجيران
الحسد عند الجيران . . .
اقفل بابك وآمن جارك
صباح الخير يا جارى قال . . .
إذا بغضك جارك حول باب دارك
اصبر على جارك السو ليرحل . . .

غير من جارك ولا تحسده

يا واخد مغزل جارك هتغزل به فين؟

٢٨ - الله والمثل

ساعة لقلبك وساعة لربك

تبارك الذى خلقك يا بدر

ربنا موجود فى كل الوجود

الأعمار بيد الله

اصبح على كف الرحمن

اللى كتب له ربنا ستين . . .

إن الله قادر على كل شىء

الله فعال لما يريد

يرزق قليل الحيلة لما يستعجب صاحب . . .

يعطى الضعيف لما يستعجب . . .

أقام العباد فيما أراد

الأصل فعل الله

إذا أسعدك ما أتعبك

اللى يخذله الرب . . .

اللى يجمعه ربنا ما يقدرش . . .

اللى يحفظه ربنا ما حدش يضيعه

اللى أدى له خالقه . . .

الله جاب الله خد . . .

فعال لما يريد

إن صبرتم نلتم وأمر الله نافذ . . .

يا هارب من قضايا . . .

اللى ما يرضى بقضايا يطلع . . .

إذا أراد إنفاذ أمر سلب . . .

اللى أوله باسم الله . . .

ابدأ طعامك باسم الله . . .

من قال الحمد لله شبع

٢٩ - الاتكال على الله

آدى الله وآدة حكمته

اللى مالوش حد له ربنا

الله هو الحافظ

يا بخت من له باشقاوة من عليه

اللى عند الله ما يضعش

اللى ما تقدرش عليه . . .

ربنا هو المخلصان

ربنا مع المنكرسين جابر

الشكوى لغير الله مذلة

الله يرزق الواقف والقاعد . . .

اللى خلق الأشداق . . .

الله لما يعطى ما يسن . . .

رب العطا يعطى البرد . . .

الله يجس النبض

اللى يحبه ربنا ويختاره . . .

اللى خلقنى ما ينسانى
العبد فى التفكير والرب فى التدبير
إحنا لسه فى الجريد . . .
أنت تريد وأنا أريد . . .
خد من عبد الله . . .
اللى فى علم الله هو اللى يكون
الى اتكل على الله . . .
الله معنا
اللى يريده ربنا هو اللى يكون
اللى فيه الخير يقدمه ربنا
اللى فى علم الله غالب
الناس بالناس والكل على الله
اللى اتكل على الله . . .
اللى اتكل على شيء أخلاه الله منه
اللى اتكل على شيء أخلاه الله من يده
ما عند الناس ينفذ . . .
اعرف ربك فى الرخاء . . .
من قر بذنبه غفر الله له
اعمل الخير وارميه فى بحر جارى . . .
اللى زمرناه راح لله
اعمل لله مش لبنى آدم
اللى عند ربى قريب
اللى عند الناس بعيد . . .
كل عقدة ولها عند . . .
اكتم سرك واشكى ربك
اللى مش هاديه ربه يا تعب قلبه
مالك مربى قال . . .

٣٠ - الله والعمل

اللى على الله على الله
اللى على الله ما يتحمل له هم
اللى سترها فى الأول . . .
اللى يستره ربه ما يفضحوش مخلوق
اللى ساتره المولى ما يفضحوش العبد
اللى عليك اعمله . . .
الله حق
الله فعال لما يريد
ربنا عرفناه بالعقل
تعرى طيظك للدبان . . .
العاجز عن التدبير . . .
اسعى يا عبد وأنا أسعى . . .
الله يسد باب ويفتح أبواب
الرب واحد والعمر واحد
على كف الرحمن
من عمود لعمود يأتى الله . . .
إذا كنت منقبض الصدر . . .
اللى حبه ربه فرجه على ملكه
اللى ما يخاف من الله خاف منه
ما يعرفش طظ من سبحان الله

لا يرحم ولا يخلى رحمة ربنا تنزل
اللى ما يخاف من الله يا ويله . . .

٣١ - العقيدة الدينية

إذا اعتقد أحدكم فى حجر . . .
اللى مالوش عقل مالوش دين
ربنا عرفوه بالعقل
اللى ماله خير في دينه ماله . . .

٣٢ - العبادات والشعائر الدينية

يا مزكى حالك يبكى
اتصدقوا ترزقوا
استنزلوا الأرزاق بالصدقات
اللى يخرج منه زكة عنه
ياما الحج مربوط له جمال
ياما قدامكم يا حجاج
بعد العيد ما يتفتلش كعك
اللى يكدب نهار الوقفة يسود . . .
اللى اتسحر اتسحر . . .
اللى يتسحر مع العيال يصبح فاطر
يصوم يصوم ويفطر على بصلة
لو كان دى الطهى على دى النهى . . .
يصلى الفرض وينقب الأرض
جالك الموت يا تارك الصلاة
إذا نسيت الحمد تصلى بإيه
الصلاة أخير من النوم قال جربنا . . .
اللى ما يصوم ويصلى رزقه يولى
ما تعيبوا يا قوم إلا على . . .
اللى مالوش بيت بيته الجامع
حصيرة البيت تحرم على الجامع
الزيت إن عازه البهت . . .
اللى يلزم للبيت يحرم . . .
كل لقمة فى بطن جائع . . .
ضلالى وعامل إمام والله حرام
هاتوا م المزابل . . .
قبل ما يبنى الجامع اترصت العميان
بركة يا جامع الى جت . . .
دنيا غرورة
آخر الحياة الموت
دنيا واللى مستغطى . . .
دنيه فنيه والزمن كباس *
بكره تقوم القيامة وينصبوا . . .
علامة القيامة لما تشرب . . .

٣٣ - الجنة والنار

بكره تقوم القيامة وينصبوا . . .
النفس الحلوة لها الجنة
اللى ما ينفع للجنة ينفع للنار

جنة من غير ناس ما تنداس
عينه فى الجنة وعينه فى النار
اللى ياكل مال اليتيم يشره . . .
الظن السو يودى جهنم
جهنم ما فيهاش مراوح
جهنم وعند البراطيش

٣٤ - المشايخ

اللى عليه ندر يوفيه
الشيخ الباتع يقيد نفسه
يا شيخ يا للى فى القبة . . .
بكره تموت يا أبو جبه . . .
الشيخ البعيد مقطوع ندره
افتكرنا تحت القبة شيخ
إحنا دفنينوا سوا
أنت شيخ ولا حد قال لك
ما دام ما أنتش رفاعى . . .
الطريقة تجيب العاصى
البساط أحمدى
كل شيخ وله طريقة
من زار الأعتاب ما خاب
ركب الخليفة وانفض المولد
طلع من المولد بلا حمص
اكرم الدقن وهين الشنب

٣٥ - إبليس

فضى إبليس لقلع الديس
إذا دخل إبليس حمى الوطيس
ما يشكرش فى نفسه إلا إبليس
إبليس سمى نفسه أنا
إبليس ما يخربش بيته
إبليس يعرف ربه لكن . . .
طمع إبليس فى الجنة
إبليس حته منه
إبليس بيتعلم منه
ألف دعوة من إبليس ما تخرق . . .

٣٦ - الشياطين والعفاريت والغول

كل ما أقول يا رب توبة يقول . . .
اللهم اخزيك يا شيطان
اللهم اجعل كلامنا خفيف عليهم
كل واحد له شيطان (مكرر)
إذا غابت الملائكة غابت الشياطين
كل واحد له شيطان (مكرر)
اللهم اخزيك يا شيطان
اللى يخاف من العفريت يطلع له
له فى كل خرابة عفريت
معجون بمية عفاريت

غولة عملت عرس قال . . .
هو زى الغول فى الأكل
محدش يقدر يقول يا غولة . . .

٣٧ - الفلاح المصرى

راح تروح فين الشمس . . .
العونة يا فلاحين قال من كل . . .
من دخل مصر ولم يستغن فلا
أغناه الله (مكرر)
إن حضر العيش يبقى المش شبرقه
نعمة من الله
نعمة واللى يكرهها يعمى
فلاح مكفى سلطان مخفى
لو كانت الأسماء تباع وتشترى . . .
لو كان الاسم ينشرى . . .
نسيت يا فلاح اللى كنت فيه . . .
بعد نومك ويا الجديان . . .
الفلاح مهما اترقى ما ترحش . . .
آهى أرض سوده والطاعم الله
عمر الفلاح إن فلح
إن طلع من الخشب ماشه . . .
من دخل مصر ولم يستغن . . . (مكرر)
لو يكون الفلاح من ذهب . . .
الفلاح يوم ما يتمدن . . .

أول ما شطح نطح
أكل الفلاح تفاح قال الفجل أحسن
أكل الفلاح تفاح اضربه ينزل . . .
إن فاتتك الوسية اتمرغ فى ترابها

٣٨ - الزراعة

اللى يزرع ذرة فى الناروز . . .
إن نظرت على السلاح . .
أزرع البصل من عروقه
إن سبقك جارك بالحرث . . .
كل ميت بدرى لما يخيب بدرى
قل من الأرض واخدم
قل من الزرع واخدم وقل . . .
كل شيء بالبخت إلا القلقاس . . .
البطيخة ما تكبرش إلا فى لبانتها
الأرض تكبر البطيخ
الأرض موش شهاوى . . .
الزرع زى الأجاويد . . .
الزرع واحد لكن الأرض محطات
ازرع كل يوم تاكل كل يوم (مكرر)
إن كان زرعك استوى . . .
قرقر جرنك ولا . . .
اللى ما ينام فى جرنه . . .
اللى يحرس مقاتته . . .
اللى تزرعه تقلعه
اللى ما يروح الكوم ويتعفر . . .

الأرض تضرب ويا أصحابها

أكبر المصايب زرع البرايب . . .

اداين وازرع ولا تداين وتبلع

إن كنت فلاح ولك مقدرة

بين اللبة واللبة أربعين يوم

بكره ثيجى أيامك يا عوجة

قيراط بخت ولا فدان شطارة

يا فرحة العوله بلم . . .

ما يموتش السد إلا . . .

الزرع إن ما غنى ستر

ازرع كل يوم تاكل كل يوم (مكرر)

٣٩ - الشهور القبطية

الفلاحة فلاحة

هاتور أبو الدهب المنتور

إن فاتك زرع هاتور . . .

بابه زرعه يغلب النهابة

توت هات الانتوت

مسرى تجرى فيه كل ترعه

عسره (مكرر)

أبيب طباخ العنب والتين

بئونة الحجر

بشنس يكنس الغيط كنس

برمودة دق بالعمودة (مكرر)

برمهات روح الغيط وهات

أمشير يقول للزرع سير ، الزرع . . .

طوبة أبو البرد والعتوبة . . .

كياك صباحك مساك (مكرر)

كل مائة بدرى لما يهيف بدرى . . .

توت رى وإلا فوت

لا خير فى نيل يجى فى توت

بابه خش وأقفل الدرابة

إن صح زرع بابه غلب القوم النهابة . . .

هاتور أبو الدهب المنتور

هاتور يقول للبرد دور

كياك صباحك مساك (مكرر)

طوبة ما بلت لنا عرقوبة

طوبة أبو البرد والعقوبة

طوبة تخلى الصبية كركوبة

قالت المعزة لطوبة فوتى يا طوبة . .

أمشير يخلى العجوز تقيد الحصير

أمشير يقول للزرع سير بلا تعسير

فى أمشير الزرع القصير يحصل الطويل

أمشير أبو الطبل الكبير

أمشير أبو الزوابع الكثير

أمشير يقول لبرمهات عشرة منى خد . . .

برمهات يخلى العجوز تقيد المحلات

برمهات روح الغيط وهات

برمودة دق بالعمودة (مكرر)

بشنس أبو الشمس . . .

بؤونة فلاق الحجر

أبيب أبو الحرورات واللهيب
أبيب طباخ العنب والزبيب
مسرى تجرى فيها كل ترعة
عسرة (مكرر)
إن ما جت مسرى تعجعج بنيلها
لا تخلى ندى الورد يفوتك ...
لا خير فى زاد يجى مشحوت ...
الاسم لطوبة والفعل لأمشير
زى روايح أمشير كل ساعة فى حال
توت الكتكوت ياكل ويموت
بابه ادخل واقفل البوابة
كياك صباحك مساك تقوم ...
برمودة دقوا الشعير بالعمودة ...
بشنس اكنس البيت كنس
بشنس اكنس الغيط كنس
من ياكل الملوخية فى أبيب
يجيب لبطنه طبيب

٤٠ - الحيوانات الريفية

خف على بهيمك يطول عمره
حط فيه يبان حواليه
حط فى مدوده تلاقيه فى مرقده
خير الشبة يبان ع الضبة
بيعة المندرة غندرة
قيد بهيمك يبقى لك نصه ...
إن فاتك لبن الكندوز ...
قص حمارك يكبر ...
حضروا المداود قبل حضور البقر
ظلم البهايم حرام
حمار ما هو لك عظمة من حديد
ما ينفعك إلا عجلك ابن بقرتك
اللى ما تشبع برسيم فى كياك (مكرر)
طور الحرث ما يتكممش (مكرر)
اللى ولد معزته جابت ...
اللى ما يقدر ع البقرة ...
المستعجل ما يسوقش جمال
اللى يبيع الجمل ...
اللى يعمل به الجدى
اشبع البهايم ودبر ...
الميه فى كعب البهيم
مقايضة الجحش ...
حمارك الأعرج ولا ...
السروج بالبقرة ...
طوبة فى بيت ولا ...
صيف يا لبن ...
عمر الرايب ما ...
الزبدة ما تطلعش ...
اتطلع فى وش البقرة ...
اشبع البهايم ودبر البرسيم
الميه فى كعب البهيم (مكرر)
اللى ما تشبع برسيم

طور الحرث ما يتكممش (مكرر)

٤١ - العمل

اعمل عركة من غير أصل . . .

اشتغل الجمعة والعيد . . .

اعمل بطالتك لعدوك

اللى ماله أشغال . . .

اللى ماله شغلة تشغله . . .

إذا دار عليك الزمان ديره . . .

إن مال عليك الزمان

إن مال عليك الزمان ميل

إن تنام لك الدهر ما تناملوش

إحنا ساعيين والرب يعين

اعمل انت وأنا المجازى فى السما

اعمل اللى عليك والباقى على الله

اسعى يا عبد وأنا أسعى معك . . .

اتعب ترتاح

اتعب على الشيء تلاقيه

اركب الأهوال تكتسب أموال

اتعب لسانك ولا تتعب أقدامك

اشتغل بقلبك ولو كان سخرة

أشمر وأتحزم

اشتغل لحد ما تكل ولا تتحمل الذل

اعمل بالميدى لما يجى لك البندقى

العب بالمقصوص . . .

قشش على ميتك تسخن

إذا كان رزقك ضيق . . .

اللى ثبت نبت

اللى واره الطلق ما ينامش

أكل العيش يحب الخفية

اضرب عصاتك واجرى وراها

الجرى نص الشطارة

اللى ما يقعد فى الكوم ويتعفر . . .

المال اللى ما تتعب فيه اليد . . .

يا طالب المال لوقف الحال . . .

اللى بيشتغل أحسن من الواقف

عملك عمالك

حجر داير ولا سبع نايم

الإيد التعبانة شبعانة

الرغيف المقمر للصاحب اللى يدور

اعمل وافتخر وإلا . . .

اعمل حاجتى بإيدى ولا . . .

اللى تعب وباين عليه سيدين عليه . . .

اللى من إيده الله يزيده

العمل عبادة

الاجتهاد نص العبادة

اعمل بخمسة وحاسب البطال

اللعب بالقطط ولا البطاله

الإيد البطالة نجسة

خايب أمل وغشيم عمل

عويل الشغل شاطر الكرا

رأس الكسلان بيت الشيطان

اللى ياكل بلاش ما يشبعش

اخدم تتقدم اقعد تتندم

اللى ما يقضى حاجته بإيده . . .

أكل ومرعى وقلة صنعة

قاعدة على قاعدة فات . . .

اللى بيتكلم عليه قفل الباب

٤٢ - أسلوب العمل

اللى ياكل حلوتها يتحمل مرتها

مفيش حلاوة من غير نار

اللى ما يدوق ما يعرف حلو

اللى أكل العسل يصبر لقرص النحل

اللى ما تتعب فيه الأيادى ما تحزن . . .

اللى ما يشقى ما يلقى

اللى ما تتعب فيه الأيادى . . .

اللى ما يشقى ما يلقى

اللى يعمل جمل ما يبعبعش من العمل

من تعب ارتاح

تعب ساعة ولا كل ساعة

آخر التعب راحة

الكار محنة

اللى ما يتعب وبيان عليه . . .

ما حد مستريح ولا ابن الجريح

إن كتر عليك الشغل فرقه على الأيام

حط قبل ما تتعب وشيل . . .

خف تشيل

ابطى ولا تخطى

اتعب جسمك ولا تتعب قلبك

فرق شمله يخف حمله

كل شيء فى أوله صعب

صنعة بلا أستاذ يدركها الفساد

شغل القرارى وياك . . .

اللى له عين وراس . . .

اجتهد وفتح عينك

اللى ما يخدم فى صغره ما يشوف . . .

من يترك صنعة أبوه وجده . . .

ابن الوز عوام

الاعتماد على النفس أساس النجاح

الاستقامة رأس النجاح

اتقى الله فى صنعتك ولو كنت حرامى

ابطى فى الوعد واسرع . . .

قبل ما تعمل شيء اقرأ عواقبه

اللى وراه المشى الجرى أحسن له

اللى يحسب الحسابات فى الهنا يبات

اللى يخاف من العرسة . . .

طولة البال تهد الجبال

طولة العمر تقطع الشدايد

إن فاتك عام اترجى غيره

اللى ابتدأ بده يكمل

صاحب بالين كداب

إن طاب لك طاب لك وإن . . .

٤٣ - المهن

اسمك إيه قال اسمى عنبر . . .

يبيع الميه فى حارة السقايين

اللى يشيل قربة مخروقة تخر . . .

يبيع الورد على جناينه

أبرد من المزين اللى يحلق ولا . . .

زى المزين يضحك على الأقرع . . .

جه المزين يفتح . . .

ملوخية وعيش لين . . .

زى الصباغ تناه على . . .

زبال وفى إيده وردة

تموت الرقاصة وصباعها يرقص

إذا عز المركوب فارضى . . .

إذا تزاحمت الحمارة . . .

اتقاتلوا المكارية . . .

آه ليلة يا مكارى

اتقاتلت البغال طلعت . . .

إذا اتبطر الخياط يشترى . . .

اللى ما يعرفش يقيس . . .

أجرة الخياط تحت إيده

عملوه مسحر قال فرغ رمضان

الفقى يقيس الميه فى الزير

عيش الفقى فى الأنجم . . .

الفقى ياكل ويتلدد . . .

الفقى لما يسعد يجيله . . .

يا سيدنا الشيخ ضربة تكسر . . .

اللى تعمله يا فقى فى البناية تلتقى

اتعلم آيتين ادعى أنه مقرئ

أصل البناية صناعة . . .

ضيق تسقف

يوم الهدد ما فيهش بناية

الأرض بفلوس والسما بلاش

ولسه ياما فى الجراب يا حاوى

الحاوى ما ينساش موت ابنه . . .

الحاوى ما يمتش إلا بالتعبان

اللى ما يقدر عليه القدوم . . .

العقدة تغلب النجار

عند العقدة يوحل النجار

باب النجار مخلع

ستين مقاس ولا قطيعة منشار (مكرر)

اللى تقطه أحسن من اللى تمطه (مكرر)

دقة المعلم بألف ولو . . .

دقة ع السندال ودقة ع الوتد

كف لحم ولا كف فحم (مكرر)

الجزار ما يخفش من كتر الغنم

زى الجزار كريهه . . .

مال لحمتك مشفتة . . .

صبرى على نفسى ولا صبر . . .

الشحاته طبع

الشحاته كيميا

الإيد اللى تاخد ما تديش

الشحات له نص الدنيا

شحات يكره شحات . . .

من عرف الشحات بابه . . .

الشحات قلبه وجعه . . .

إن كان فى العمود عيب . . .

الرقاص بيشخشخ . . .

إن خسع الحجر يكون . . .

طحان ما يغير على كلاس

الطحان يسرق حفان بحفان . . .

المحتاج يقلب ع النقاشة

الخباز شريك المحتسب

خباز ومحتسب

إدى العيش لخبازيه . . .

احسب حساب المريس . . .

خف أحمالها تطول أعمارها

خفها تعوم

الريس فى حساب . . .

اللى يعمل ريس يجيب . . .

المركب اللى فيها . . .

اتخانق المريس مع الطياب . . .

اختلف البحر والريح . . .

زى المراكبية ما يفتكروش . . .

زى النوتى الغشيم . . .

اللى ياكل الفتة يطلع الصارى

العصفور بيتفلى والصياد بيتقلى

يا صياد اصطدتشى . . .

لو كانت أم فويق فيها . . .

عصفور فى اليد . . .

قالوا للصياد اصطدت إيه . . .

السمك لا يشبع اللى . . .

اللى هون على الصياد . . .

صباح الفوال ولا صباح العطار

ضربوا بتاع التوم شخ بتاع الكسبرة

ابن السايغ اشتهى . . .

زى الفرارجى له فروج لا يموت

زى سلام المواردى . . .

الميكانيكية باشوات مداربة

ايش تعمل الماشطة . . .

غسله واعمل له عمة . . .

زى المحتسب الغشيم ناقص . . .

زى ضرابين الطوب . . .

زى صياف الريف يعدوا . . .

اتنين يحبوا الموت : حانوتى وتربى

اقعد بين خبازتين ولا تقعد . . .

٤٤ – الطوائف

آخر خدمة الغز علقة

غز الكرا ما يحاربوش

زى التركى المرقوت . . .

زى شحات الترك جعان . . .
زى غز الجيزة تملى . . .
زى غز الططر لا يوحشه . . .
زى كديس الططر . . .
زى بعجرأغا ما فيه . . .
أفلس من اليهودى نهار السبت
زى فقرا اليهود لا دنيا ولا أخرى
احتاجوا ليهود قال اليوم عيدى
لما يفلس اليهود يدور . . .
زى قرية اليهود . . .
زى ساعى اليهود . . .
زى اليهود وش نضيف . . .
إذا دخلو الكفار البلاد اخرج . . .
زى حداد الكفار حياته . . .
قبطى بلا مكر سجرة بلا طرح
خلص تارك من جارك (مكرر)
إذا كان دراعك عسكرى اقطعه
حد يقدر يقول للجندى . . .
اعمل الطيبة فى الكلب . . .
جندى ما عجب شبع طرطوره
عساكر الكرا ما تضربش بارود
كل شيء يجى من الصعيد مليح . . .
بحر سنة ولا تقبل يوم
ما حوالين الصعايدة فايدة . . .
إن فاتك القطر اركب صعيدى

إن علا واترقى علامته الدقة
عليك يا صعيدى ولو بات
يا صعيدية جوزك قبل قالت . . .

٤٥ - المال

الاعتبار للمال مش للرجال
أصلك فلوسك وجنسك ملبوسك
الفلوس على كل شيء تدوس
النقود تتكلم (إنجليزى)
اللى ما عنده فلس ما يساوى فلس
اللى مامعهش قرش . . .
اللى معاه بارة . . .
القرش صياد (مكرر)
المال له كلاليب من حديد
اللى معاه مال يفعل ما بدا له
الدراهم مراهم تخلى . . .
افتح جيبك ينقفل عيبك
اللى معاه مال يمشى فى الطريق . . .
اللى معاه مال ياكل لحم . . .
اللى معاه مال بدر واشترى
اللى معاه مال بيتنزه بالجمالات
مكسح طلع يتفسح بفلوسه
الأقرع سيأكل حلاوة قال بفلوسه
اتنين ما يشبعوش طالب علم . . .
من وفر غداه لعشاه ما . . .
الميه فى الزير تحب التدبير

القرش الأبيض ينفع ...
دبر غداك تلقى عشاك
من وفر شيء قال له الزمان هاته
خسر سوقك ولا تخسر فلوسك
المال السايب يعلم السرقة
صاحب المال تعبان
هز فلوسك ولا تهز دقنك
هين قرشك ولا تهين نفسك
يبقى مالى ولا يهنالى
ما عاش مالى بعد حالى
مال كسبته كلته
الشيء إذا زاد عن حده ...
اللى من مالك ما يهون عليك
اصرف ما فى الجيب ...
مال الكنزى للنزهى
هاتى يا مدره ودى يا سدرة
الفلوس زى العصافير ...
مال تجيبه الريح تاخده الزوابع
المال اللى ما يشبه ...
مال الوقف يهد السقف
المال اللى ما تتعب فيه اليد ...
مال الناس كناس وقليل الغنى
عمر المال الحلال ما يضيع
الألف تجر الوف
القرش صياد (مكرر)
طالب المال بلا مال ...
السلف يربى العداوة
الدين سواد الخدين
الدين ينسد والعدو ينهد
كل دين واشرب دين ...
ما يموتش حق وراه مطالب
من خد وادى صار المال ماله
ألف لنا ولا علينا
أبويا وأبوك القرش
اللى ح يعرف ناس ما يعرفش فلوس
اللى يحبنى على مالى ...
يا واخد القرد على كتر ماله ...

٤٦ - البيع والشراء

قطع الشرك ولو فى الغدا
الرخيص غالى
الغالى ثمنه فيه
اللى اشترى الدون رجع ...
إذا لقيت الغالى فى السوق تمنه
اشترى لنفسك وللسوق
اشترى الصغير وشاور الكبير
بيع الدهب واشترى العتب
يا شارى بيت مبنى يا لاقى ...
آخر النهار اختيار
اللى اشترى ما لا يحتاج إليه ...
خلينا تجارى

اللى بدك ترهنه بيعه

البيع والشرا حرية

الشرط نور

بين البايع والشارى يفتح الله

على قد زيته كيل له

اتعاشروا زى الإخوان . . .

البيع فرص

إن عجبك مالك بيعه

أول بيعة من دهب

أفوت لك دى البيعة

بيع واشترى ولا تنكرى

بيع بخمسة واشترى بخمسة . . .

اللى يبيع يغتنى سنة . . .

٤٧ - المكسب والخسارة

المكسب فى الجلة ولا الخسارة . . .

ألذ شيء فى الدنيا المكسب

ما يشكر السوق إلا من كسب

ما يمدح السوق إلا من كسب فيه

اللى كسب قال المساحة صحيحة . . .

الشكك يفلس التاجر الألفى

اللى يخسرك مالك يخسرك روحك

أبغض من وجوه التجار يوم الكساد

الخسارة تعلم الشطارة

الخسارة اللى تعلم مكسب

الخسارة المستعجلة ولا . . .

خسارة قريبة ولا مكسب بعيد

القرش صياد (مكرر)

البيع والشراء فرص

٤٨ - البضاعة والسوق

اللى يروح السوق يسوق

اللى يحضر السوق يبيع ويشترى

ابن سوق

حسن السوق ولا حسن البضاعة

كون فى أول السوق يا جحا . . .

قابل القرع على سوق الطواقى

ضيع سوقك ولا . . .

إذا اشتريت افتكر السوق

غالى السوق ولا رخيص البيت

على عينك يا تاجر

العينة بينة يا زباين

آدى العينة

اللى ما يعجبكش خد غيره

اللى ما يشترى يتفرج

اللى ما يدلل على بضاعته تبور

ده فى السوق وده فى السوق . . .

اللى فى السوق منه ما تحمل همه

رطل نحاس بيغنى ناس

ما يعجبك رخصه ترمى نصه

الغالى ثمنه فيه

إن لقيت الملح فى السوق تمنه

الحاجة فى السوق تقول نينى . . .

خلى العسل فى جراره لما تجى أسعاره

خليه فى قنانيه لما يجى . . .

كويس ورخيص وابن ناس

٤٩ - التاجر

التجارة شطارة

الأرزاق تجى بالمزاحمة

شرط الأخد العطا

المعاملة بالمفارقة

الحيا فى الرجال يورث الفقر

ما تبعش رخيص قال . . .

إذا وصلت وسلم الله . . .

اشترى بخمسة وبيع . . . (مكرر)

حط رجلك مطرح رجل . . .

خليك فى حالك يزيد رسمالك

مال تودعه بيعه

زيارة وتجارة

الخواجة قال لابنه كل زبون . . .

اللى بده الناس تتاجر له . . .

رحت أتاجر فى الكتان . . .

التاجر لما يفلس يدور . . .

قرد يبيع أم الخلول غارت . . .

العطار الزفت يضيع المستكة . . .

ما حدش يقول على عسله حامض

ما حدي بينادى على زيته عكر

عنده بضاعة والناس جواعه

أكتر التجار فجار

الزبون الزفت يا يبدر . . .

اللى ما معاهوش . . .

الأخد حلو والعطا مر

الفاجر ياكل مال التاجر

غلا وسو كيل

قطع الغلا وكياله

الله لا يرجع الغلا ولا كياله

الطايبة لحنكك والنية لصاحبها

٥٠ - الأرزاق

الأرزاق تجى بالمزاحمة

الرزق يحب الخفية

الأرزاق على الخلاق

الرزق يوم بيوم . . .

ربنا بيرزق الكتف . . .

آدى الباب وآدى الباب . . .

يرزق الهاجع والناجع . . .

ما يروحش من رزقك حاجة

اللى لك محرم على غيرك

القناعة مال وبضاعة

الرزق يحب الخفية والمبدر . . .

استقنع بالقليل يأتيك . . .

إذا كان الرزق بالقوة ما كانش . . .

المراجع

١ - أبو منصور النيسابورى ت ٤٢٩ هـ
كتاب الأمثال (الفرائد والقلائد)

٢ - أبو هلال العسكرى ت هـ ٣٩٥ هـ
جمهرة الأمثال

٣ - أحمد أمين
قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية
(طبع لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٣ م)

٤ - أحمد تيمور
الأمثال العامية - طبع ١٩٥٣ م

٥ - أحمد رشدى صالح
(أ) علم الفولكلور - الكزاندر هجرتى كراب
طبع دار الكاتب العربى ١٩٦٧ م
(ب) فنون الأدب الشعبى

٦ - أحمد الشنتناوى
عادات الزواج وشعائره - سلسلة اقرأ» العدد ١٦٩

٧ - أحمد فؤاد الأهوانى . دكتور

مباهج الفلسفة - ول ديورانت طبع ١٩٥٧ م
٨ - أنور عبد العليم . دكتور
قصة الحياة ونشأتها على الأرض «المكتبة الثقافية» ١٩٦٤ م
٩ - بولين سنجر
أمثال العوام من مصر والسودان والشام - طبع القاهرة ١٩٤٣ م
١٠ - جلال الحنفى
الأمثال البغدادية - طبع بغداد ١٩٦٢ م
١١ - جلال الدين السيوطى
المزهر فى علوم اللغة وأنواعها - تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين طبع إحياء الكتاب العربى ١٩٥٨ م
١٢ - جمال حمدان . دكتور
شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان - «كتاب الهلال» سنة ١٩٦٧ م
١٣ - جمال عبد الناصر
خطاب للرئيس فى مجلس الأمة - بتاريخ ١٢/١/١٩٦٤ م
١٤ - حسن كمال . دكتور
تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى - جيمس هنرى برستد

١٥ - زكريا بن محمد بن محمود القزوينى

عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات

١٦ - شرف الدين الأصفهانى

أطباق الذهب - طبع القاهرة ١٩٣٥ م

١٧ - عامر رشيد السامرائى

مباحث فى الأدب الشعبى - بغداد ١٩٦٤ م

١٨ - عباس محمود العقاد

(أ) إبليس - طبع الهلال ١٩٦٧ م

(ب) سعد زغلول - القاهرة ١٩٣٦ م

١٩ - عبد الحميد يونس . دكتور

مجتمعنا - سلسلة اخترنا لك

٢٠ - عبد الرحمن الجبرتى

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - طبع العامرية الشرقية ١٣٢٢ هـ

٢١ - عبد العزيز الأهوانى . دكتور

فى ذكرى طه حسين (بحث بعنوان «أمثال العامة فى الأندلس»)

٢٢ - عبد المنعم أبو بكر . دكتور

مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة - أدولف أرمان ،

هرمان رانكه
٢٣ - عدلى طاهر نور
المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم - إدوار لين
٢٤ - على عبد الواحد وافى . دكتور
مشكلات المجتمع المصرى والعالم العربى ١٩٥٨ م
٢٥ - فايقة حسين
حدائق الأمثال العامية ط ١٩٤٣ م
٢٦ - فوزى العنتيل
الفولكلور ما هو ؟ - ط دار المعارف ١٩٦٥ م
٢٧ - محمد رضا (ترجمة)
أمثال الأمم الأوربية - سلوين جرثى شامبون - طبع ١٩٤٧ م
٢٨ - محمد على الدسوقى
تهذيب الألفاظ العامية - القاهرة ١٩١٣ م
٢٩ - محمد فؤاد عبد الباقى
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
٣٠ - محمد كامل حسين . دكتور
فى أدب مصر الفاطمية - طبع دار الفكر ١٩٥٠ م
٣١ - محمود أحمد عمر الباجورى
أمثال المتكلمين من عوام المصريين - طبع الشرقية ١٨٩٤ م

٣٢ - مصطفى على مرسى . دكتور
محاصيل الحقل - طبع الأنجلو ١٩٦٥ م
٣٣ - ناشد جورجى
قاموس الكلمات المأثورة (متفرقات فى الحكم والنصائح)
طبع ١٩٣٩ م
٣٤ - نبيلة إبراهيم . دكتورة
أشكال التعبير فى الأدب الشعبى
٣٥ - يوسف خانكى
مجموعة أمثال عامية مصرية - طبع البيان ١٨٩٧ م
٣٦ - مجموعة من العلماء
تاريخ الحضارة المصرية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مجلات وقواميس ومعاجم

١ - دائرة المعارف الإسلامية
٢ - نشرة مركز الفنون الشعبية سنة ١٩٦٠ م
٣ - مجلة الهلال السنة ١٤ سنة ١٩٠٦ م
٤ - لسان العرب لابن منظور

مراجع أجنبية :

1- The Oxford Dictionary of English Proverbs .

2- Encyclopaedia Britannica 1966.

3- The Encyclopaedia Americana 1956.

4- Larousse Du Xxe siecle .

5- Everman's Dictionary of Quotaions and Proverbs. D. C . Browning .

6- The Standard Dictionary of Folklore , Mythology and Legend .

7- Stevenson's Book of Proverbs , Maxims and Familiar Phrases, Burton Stevenson , London , 1949.

الفهرس

الفصل الثالث

المثل والدين

مكتبة الدراسات الشعبية

(صدر العدد الأول فى يناير من عام ١٩٩٦)

١ - قصصنا الشعبى . . . . د. فؤاد حسنين على

٢ - يا ليل ياعين . . . . يحيى حقى

٣ - سيد درويش . . . . محمد دواره

٤ - المجذوب . . . . فاروق خورشيد

٥ - فن الحزن . . . . كرم الأبنودى

٦ - المقومات الجمالية فى التعبير الشعبى . . . . د. نبيلة إبراهيم

٧ - إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية جـ ١ . . . . . . د. محمد حافظ دياب

٨ - إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية جـ ٢ . . . . د. محمد حافظ دياب

٩ - أدبيات الفولكلور فى مولد السيد البدوى . . . . إبراهيم حلمى

١٠ - موال أدهم الشرقاوى . . . . د. يسرى العزب

١١ - الرقص الشعبى فى مصر . . . . سعد الخادم

١٢ - المغازى . . . . د. صلاح فضل

١٣ - بين التاريخ والفولكلور . . . . د. قاسم عبده قاسم

١٤ - مملكة الأقطاب والدراويش . . . . عرفه عبده على

١٥ - فلسفة المثل الشعبى . . . . محمد ابراهيم أبو سنة

١٦ - الظاهر بيبرس . . . . د. عبد الحميد يونس

١٧ - الحكاية الشعبية . . . . د. عبد الحميد يونس

١٨ - خيال الظل . . . . د. عبد الحميد يونس

١٩ - الأزياء الشعبية والفنون فى النوبة . . . . سعد الخادم

٢٠ - الفن الإلهى . . . . محمد فهمى عبد اللطيف

٢١ - النيل فى الأدب الشعبى . . . . د. نعمان أحمد فؤاد

٢٢ - الفولكلور فى العهد القديم جـ ١ . . . . تأليف : جميس فريزر

ترجمة : د. نبيلة ابراهيم

٢٣ - الفولكلور فى العهد القديم جـ ٢ . . . . تأليف : جميس فريزر

ترجمة : د. نبيلة ابراهيم

٢٤ - الفولكلور فى العهد القديم جـ ٣ . . . . تأليف : جميس فريزر

ترجمة : د. نبيلة إبراهيم

٢٥ - حكاية اليهود . . . . تأليف : زكريا الحجاوى

٢٦ - عجائب الهند . . . . تقديم يوسف الشارونى

٢٧ - حكاية اليهود ط ٢ . . . . زكريا الحجاوى

٢٨ - الحُلى . . . . د. عبد الرحمن زكى

٢٩ - أبو زيد الهلالى . . . . محمد فهمى عبد اللطيف

٣٠ - السيد البدوى ودولة الدراويش . . . . محمد فهمى عبد اللطيف

٣١ - التاريخ والسير . . . . د. حسين فوزى النجار

٣٢ - خيال الظل . . . . د. ابراهيم حمادة

٣٣ - فرق الرقص الشعبى فى مصر . . . . عبير السيد

٣٤ - مباحث فى الفولكلور . . . . محمد لطفى جمعة

٣٥ - نجيب الريحانى . . . . عثمان العنتبلى

٣٦ - عالم الحكايات الشعبية . . . . فوزى العنتيل

٣٧ - الزخارف الشعبية على مقابر الهو . . . . محمود السطوحى

٣٨ - الفولكلور ماهو ؟ . . . . فوزى العنتيل

٣٩ - سيرة الملك سيف بن ذى يزن . . . . المجلد الأول

٤٠ - سيرة الملك سيف بن ذى يزن . . . . المجلد الثانى

٤١ - سيرة الملك سيف بن ذى يزن . . . . المجلد الثالث

٤٢ - سيرة الملك سيف بن ذى يزن . . . . المجلد الرابع

٤٣ - سيم العشق والعشاق . . . . أحمد حسين الطماوى

٤٤ - كتابات فى الفن الشعبى . . . . حسن سليمان

٤٥ - المأثورات الشفاهية . . . . تأليف : يان فانسينا

ترجمة : د. أحمد مرسى

٤٦ - بين الفولكلور والثقافة الشعبية . . . . فوزى العنتيل

٤٧ - الشعر البدوى فى مصر - ج ١ . . . . د. صلاح الراوى

٤٨ - الشعر البدوى فى مصر - ج ٢ . . . . د. صلاح الرواى

٤٩ - الطفل فى التراث الشعبى . . . . د. لطفى حسين سليم

٥٠ - تغريبة الخفاجى عامر العراقى . . . . باسم حمودى

٥١ - الفولكلور . . قضاياه وتاريخه . . . . تأليف : يورى سوكولوف

ترجمة : حلمى شعراوى - عبد الحميد حواس

٥٢ - الأسطورة والإسرائيليات . . . . د. لطفى سليم

٥٣ - البطل فى الوجدان الشعبى . . . . محمد جبريل

٥٤ - الاحتفالات الدينية فى الواحات . . . . د. شوقى حبيب

٥٥ - الاحتفالات الأسرية فى الواحات . . . . د. شوقى حبيب

٥٦ - من أغانى الحياة فى الجبل الأخضر . . . . د. هانى السيسى

٥٧ - النبوءة أو قدر البطل

فى السيرة الشعبية العربية . . . . د. أحمد شمس الدين الحجاجي

٥٨ - من أساطير الخلق والزمن . . . . صفوت كمال

٥٩ - بطولة عنترة بين سيرته وشعره . . . . د. محمد أبو الفتوح العفيفى

٦٠ - جحا العربى وانتشاره فى العالم . . . . كاظم سعد الدين

٦١ - الزير سالم فى التاريخ والأدب العربى . . . . . د. لطفى حسين سليم

٦٢ - على الزيبق . . . . فاروق خورشيد

٦٣ - ملاعيب على الزيبق . . . . فاروق خورشيد

٦٤ - الشعر الشعبى العربى . . . . د. حسين نصار

٦٥ - لعب عيال . . . . درويش الأسيوطى

٦٦ - الأسطورة فجر الإبداع . . . . د. كارم محمود

٦٧ - الزجل فى الأندلس . . . . د. عبد العزيز الأهوانى

٦٨ - الأغنية الفولكلورية للمرأة المصرية عند الجعافرة . . . . محمود فضل

٦٩ - اهازيج المهد . . . . درويش الأسيوطى

٧٠ - الثورات الشعبية فى مصر الإسلامية . . . . د. حسين نصار

٧١ - الواقع والأسطورة . . . . د. أحمد أبو زِيد

٧٢ - أصل الحياة والموت . . . . محمد عبد الرحمن آدم

٧٣ - الفلوكلور فى كتاب حياة الحيوان للدميرى ج ١ . . د. صلاح الراوى

٧٤ - الفلوكلور فى كتاب حياة الحيوان للدميرى ج ٢ . . د. صلاح الراوى

٧٥ - ألعاب الأطفال وأغانيها فى مصر . . . . محمد عمران

٧٦ - فولكلور الحج . . . . محمد رجب النجار

٧٧ - آثار البلاد وأخبار العباد ج ١ . . زكريا بن محمد بن محمود القزوينى

٧٨ - آثار البلاد وأخبار العباد ج ٢ . . . زكريا بن محمد بن محمود القزوينى

٧٩ - الموشحات الأندلسية . . . . د. سليمان العطار

٧٩ - الموشحات الأندلسية . . . . د. سليمان العطار

٨٠ - أضواء على السير الشعبية . . . . فاروق خورشيد

٨١ - الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى . . . . د. عبد الحميد يونس

٨٢ - السمسمية بين الواقع والاسطورة . . . . تأليف : عصام ستاتى

٨٣ - من فنون الأدب الشعبى ج ١ . . . تأليف د : محمد رجب النجار

٨٤ - من فنون الأدب الشعبى ج ٢ . . . تأليف د : محمد رجب النجار

٨٥ - ديوان فـن الـواو . . . . .عبد الستار سليم

٨٦ - الحكاية الشعبية دراسة فى الأصول والقوانين الشكلية . . . .
سامى عبد الوهاب بطه